عتيق رحيمي

ملعون دوستويفسكي

ترجمة

صالح الأشمر

رواية

دار الساقي

ملعون دوستويفسكي

صدر للمؤلّف عن دار الساقي

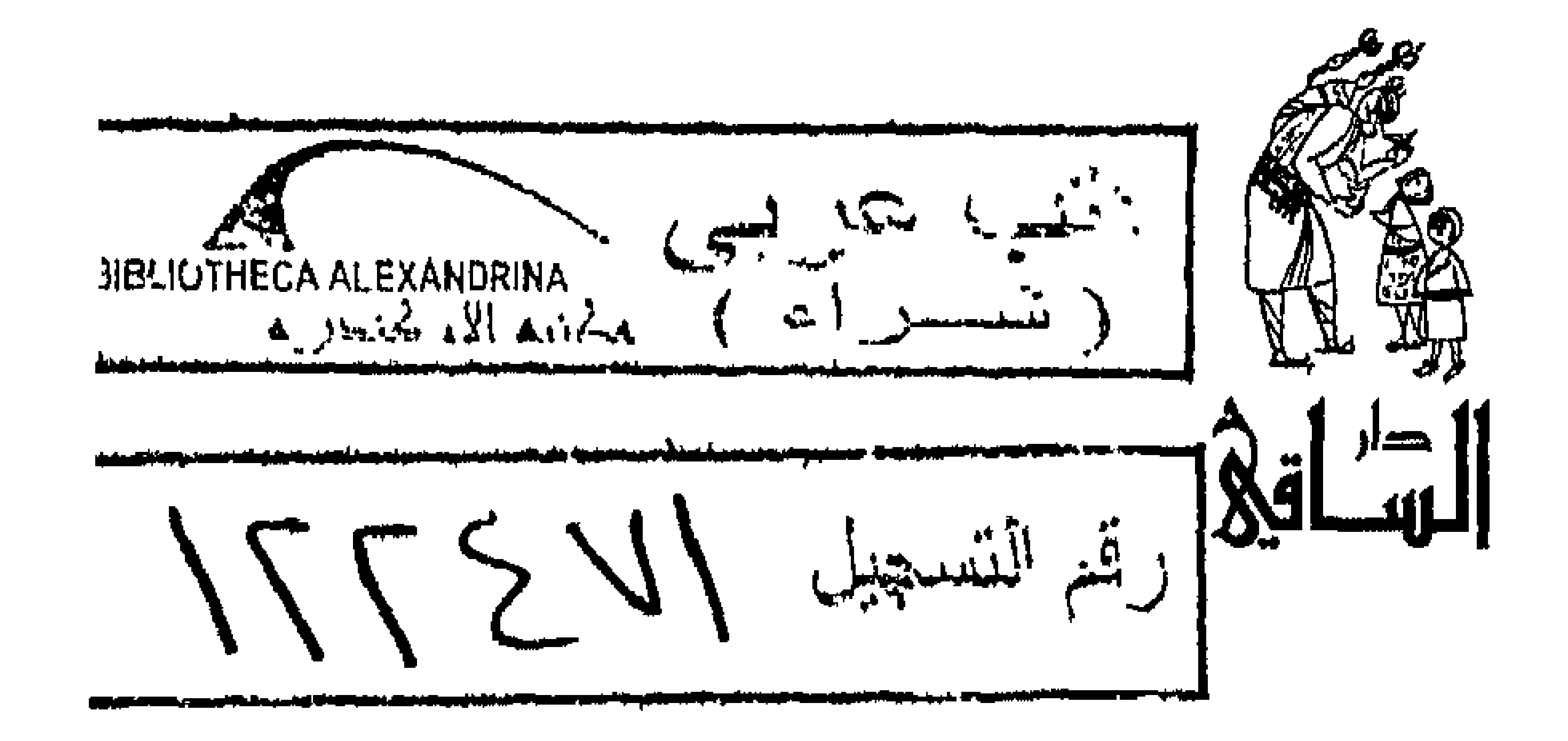
- حجر الصبر

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

عتيق رحيمي

ملعون دوستويفسكي

ترجمة صالح الأشمر



Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d'aide à la publication de l'Institut français.

الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-798-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

Avec le soutien du



يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى الأستاذ جان – كلود كارّيير

"كم كنتُ لأرغب في ارتكاب خطيئة آدم."

حافظ أزيش، **شاعرية الأرض**

"غير أنّ الوجود مثل الكتابة لا يقوم إلاّ على تكرار جملة مسروقة من شخص آخر."

فرديريك بوير، **تقنيات الحبّ**

ما كاد رسول يرفع الفأس ليهوي بها على رأس السيّدة العجوز حتى خطرت على باله **الجريمة والعِقاب** فصعقته. ارتجفت ذراعاه، واصطكّت ركبتاه، وأفلتت الفأس من يديه، وهوت على جمجمة المرأةِ فشقّتها وانغرزت فيها. تهاوت العجوز على السجّادة الحمراء والسوداء من دون أن تندّ عنها صرخة. تموَّج غطاء رأسها المطبَّع بزخارف من زهور شجرة التفاح في الهواء قبل أن يسقط على جسدها الرَّخص والممتلئ. هزّتها التشنُّجات. شهقت مرّةً، وربّما اثنتين. شخصت عيناها المحملقتان في وجه رسول، الواقف في وسط الحجرة، منقطعَ الأنفاس، وأشدَّ شحوباً من جثّة. اقشعرَّ بدنه. سقطت شملتُه عن كتفيه الناتئتين. سرحت نظرته المرتاعة في فيض الدم؛ ذلك الدم الذي كان ينحدر من جمجمة العجوز، ويمتزج بلون السجّادة الأحمر مغطياً تخاطيطها السود، ثم ينساب بطيئاً نحو يد المرأة البضّة القابضة بقوةٍ على رزمةٍ من الأوراق المالية. لسوف تغدو النقود ملطّخةً بالدم.

تحرَّكْ يا رسول، تحرَّكْ!

شلل تامّ.

رسول؟

ماذا دهاه؟ فيمَ يفكّر؟

في **الجريمة والعِقاب**. هذا ما فكّر فيه، في راسكولنيكوف، في مصيره.

لكنْ قبل أن يقترف هذه الجريمة، حين عزم على تنفيذها، ألم يفكّر فيها أبداً؟

في الظاهر كلاّ.

أو لعلَّ تلك الرواية، المدفونة في أعماقه، هي التي حرّضته على القتل.

أو لعلَّ...

أو لعلَّ... ماذا؟ أحقاً هذه هي اللحظة المؤاتية للتفكير في ما أقدم عليه؟ الآن وقد قتل العجوز، ما عليه إلاّ أن يأخذ مالها ومجوهراتها... ويهرب.

اهربْ.

لم يتحرّك. ظلَّ واقفاً، منتصباً على قدميه، مثل شجرة، شجرة ميّتة، مغروسة في البلاط، وما زالت نظرته تلاحظ خيط الدم الذي يوشك أن يبلغ يد المرأة. فلْيَنْسَ المالَ! ولْيَترك هذا المنزل، على وجه السرعة، قبل أن تصل أخت العجوز!

أخت العجوز؟ هذه المرأة ليس لها أخت. لها ابنة.

لا يهمّ، إن كانت أختها أو ابنتها، فهذا لن يغيّر في الأمر شيئاً؛ أيّاً يكن الداخل إلى المنزل في هذه الأثناء سيكون رسول مجبراً على قتله هو أيضاً.

انحرف الدم عن مساره قبل أن يبلغ يد المرأة، واتجه الآن نحو جزءٍ بالٍ من السجّادة حيث شكّل مستنقعاً غير بعيد من علبة صغيرة ملأى بالسلاسل، والعقود، والأساور الذهبية، والساعات...

ماذا تصنع بكل هذه التفاصيل؟ خذ العلبة والنقود!

قرفص. مدَّ يداً متردّدة نحو المرأة لكي ينتزع منها النقود. كانت قبضتها قد غدت متصلّبة، حازمة، كما لو أنّ العجوز ما زالت حيَّة وتمسك بقوة رزمة الأوراق المالية. حاول انتزاعها بإلحاح، دون جدوى. وفي غمرة اضطرابه وقع نظره على عينَي المرأة التي بلا روح. ذكّرته عيناها الجاحظتان بأنّ الرؤية الأخيرة التي تحتفظ بها الضحية لقاتلها تبقى ماثلةً في بؤبؤيها.

اجتاحه الخوف. تراجع، وتراجعت معه صورته في حدقتَي العجوز حتى توارت خلف أجفانها.

"نانا[1] عليا؟" رنَّ صوت امرأة في المنزل. قُضيَ الأمر، إنها هنا، تلك التي لا ينبغي لها أن تأتي. خاب سعيُكَ يا رسول!

"نانا عليا؟" مَن هذه؟ ابنتها. لا، هذا الصوت ليس فتيّاً. لا يهمّ. لا ينبغي لأحد أن يدخل هذه الغرفة.

"نانا عليا؟" اقترب الصوت، "نانا عليا؟" ارتقى الدرجَ.

إذهبْ يا رسول!

انطلق كقشّة في مهبّ الريح نحو النافذة ففتحها وقفز إلى سطح المنزل المجاور، تاركاً وراءه العباءة، والمال، والمجوهرات، والفأس... وكلّ شيء.

عندما وصل إلى حافة السطح تردّد في القفز إلى الزقاق. غير أنّ الصرخة المروِّعة التي انطلقت مُدوِّيةً من غرفة نانا عليا زعزعت ساقَيه، والسطح، والجبل... وثب صادماً الأرض بعنف. اخترق ألمٌ مُمِضٌّ عُرقوبَه. لم يُولِه اهتماماً. يجب أن ينهض. الزقاق خالٍ.

١ هكذا في الأصل Nana، وهي نَنَه بالفارسية، أمّ، مربية. (المترجم)

يجب أن يلوذ بالفرار.

ركض.

ركض من دون أن يعرف إلى أين يمضي.

ولم يتوقّف إلا وسط كَومة من النفايات، في دربٍ مسدود حيث النتانة تؤذي الأنوف. غير أنه ما عاد يشمّ شيئاً، أو لا يأبه بذلك. بقي هناك، واقفاً، مستنداً إلى جدار. ما زال يسمع صوت المرأة الصارخ، ولا يدري أهي التي تستمرّ في الصراخ أم بات هو مسكوناً بالصراخ. حبس أنفاسه. فجأةً، خلا الزقاق، أو خلا رأسه، من الصراخ. ابتعد عن الجدار استعداداً للانطلاق، غير أن ألم عُرقوبه أفقده القدرة على الحركة. تلوّى وجهه. استند إلى الجدار مجدداً. قرفص لكي يدلّك قدمه، لكنّ شيئاً في داخله يغلي. اعتراه غثيان، فمال قليلاً إلى الأمام ليتقيّأ سائلاً مُصفرّاً. دار به الزقاق بكلّ نفاياته. أحاط رأسه بكفّيه، وألصق ظهره بالجدار، وانزلق أرضاً.

بقي وقتاً طويلاً مغمض العينين، جامداً، معلّق الأنفاس، وكأنّه يصغي إلى صرخة، أو شكوى تأتي من قِبل منزل نانا عليا. لا شيء. لا شيء سوى نبض الدم في صُدغَيه.

ربّما غُشيَ على المرأة لدى اكتشافها الجثة. كلاّ، على ما يرجو.

من كانت تلك المرأة، تلك الشيطانة التي أفسدت كلّ شيء؟

أكانت هي حقاً أم... دوستويفسكي؟

دوستويفسكي، نعم، إنه هو! هو الذي صعقني بـ **جريمته والعقاب**، وأصابني بالشلل. منعني من اتّباع مصير بطله، راسكولنيكوف: أن أقتل امرأةً ثانية – بريئةً هذه المرّة؛ وأن أستولي على النقود

والمجوهرات التي كان من شأنها أن تذكّرني بجريمتي... وأن أصبح ضحية ندمي، وأتردّى في هاوية الشعور بالذنب، وأنتهي في سجن الأشغال الشاقّة...

وماذا بعد؟ لكان ذلك أفضل من أن أهرب مثل غبيٍّ مسكين، ومجرم أحمق، يداه ملوّثتان بالدم، وجيوبه خاوية.

يا لهًا من عبثيّة!

ملعونٌ هو دوستويفسكي!

أحاطت يداه المتوتّرتان بوجهه، ثم اندسّتا في ثنايا شعره الجعد لتلتقيا خلف رقبته المبتلّة بالعرق. فجأةً اخترقته فكرة معذّبة: إن لم تكن المرأة ابنة نانا عليا يمكنها أن تنهب كلَّ ما هنالك وتغادر المكان بهدوء. وماذا عنّي؟ أمّي، وأختي دنيا، وخطيبتي صوفيا، إلامَ تؤول أحوالهن؟ من أجلهنّ اقترفت هذه الجريمة، ولا يحق لتلك المرأة أن تستفيد منها. يجب أن أعود إلى هناك. تباً لغُرقوبي!

نهض.

عاد أدراجه.

العودة إلى مكان الجريمة. يا له من فخّ! تعلّم مثل سائر الناس أن العودة إلى أماكن الجريمة خطأ قاتل. خطأ تسبّب في هلاك كثير من مَهَرةِ المجرمين. أوَلم تسمع بقول قُدامى الحكماء: "المال مثل الماء، متى ذهب لا يرجع أبداً"؟ انتهى كل شيء، ولا تنسَ أبداً أنْ ليس للجاني إلا فرصة واحدة في قضية؛ إن فوّتها خسر كل شيء، وأي محاولة لتدارك الأمر ترتدّ شؤماً عليه، لامحالة.

توقف وألقى نظرة حواليه. كان كل شيء هادئاً وساكناً.

بعد أن دلّك عُرقوبه مضى في سبيله، غير مقتنع بقول الحكماء. مشى بخطى واثقة وسريعة حتى بلغ تقاطع شارعَين. توقف مرة أخرى لفترة وجيزة ريثما يلتقط أنفاسه قبل أن يسلك الشارع المؤدي إلى مكان الجريمة.

فَلْنأمَلْ أن تكون المرأة مغشياً عليها حقاً قرب جثة العجوز.

هوذا الآن في شارع ضحيته، وقد فوجئ بالصمت المطبق على المنزل فأبطأ خطاه. كان ثمة كلبٌ مُسترخٍ في ظل جدار فلمّا رآه نهض متناقلاً وأخذ ينبح نباحاً واهناً. تسمّر رسول في مكانه. تردّد. سمح بمرور الوقت حتى يقتنع، على مضض، بحماقة فُضوله. وحين هَمّ بالعودة سمع وقع خطى متسارعة في فِناء منزل نانا عليا. التصق بالجدار مذعوراً. رأى امرأة ملتفة بشادورها ذي اللون الأزرق السماوي تخرج من المنزل من دون أن تغلق الباب وراءها وتغادر

المكان على عجل. هذه هي؟ لا ريب. بعد أن اختلست المال والمجوهرات، ها هي تلوذ بالفرار.

آه، كلاّ! إلى أين تذهبين هكذا يا كافرة؟ لا يحق لك أن تلمسي هذا المال وهذه المجوهرات. إنها ملك رسول. قفي!

سرّعت المرأة خطاها، واختفت في أحد الأزِقّة. انطلق رسول في إثرها على الرغم مما يشعر به من ألم جرّاء التواء عُرقوبه. وجدها تحت سقيفة مظلمة. غير أن ضجّة أقدام مصحوبة بصرخات مراهقين كانوا يهبطون الزقاق أوقفت اندفاعه. التصق بالجدار كيما يختبئ. وانزوت المرأة على الرغم من عجلتها لكي تدع الأولاد يمرّون. ومن خلال شبكة شادورها تلاقت نظرتها ونظرة رسول الذي اغتنم هذه البرهة ليستأنف تدليك عُرقوبه المؤلم. ثم تبعت الأولاد وهي أكثر استعجالاً وأشد اضطراباً مما كانت عليه من قبل.

لحق بها رسول وهو يعرج ويتنفّس بصعوبة. وصلت إلى مفرق طُرق فسلكت شارعاً آخر أكبر وأكثر ازدحاماً. ولمّا بلغ رسول ذلك المفرق توقف تماماً، منذهلاً برؤية عشرات النسوة اللواتي يقاربنَ الخطى مسرعات في شوادير كلّها بلون أزرق سماوي. أيهُنّ يتبع؟

تقدَّم فاقد الأمل، تائهاً وسط هذا المدّ من الوجوه المحجوبة. كان يرصد أبسط دليل: بقعة دم على طرف شادور، عُلبة مخبّأة تحت ذراع، عجلة مريبة... لم يلاحظ شيئاً. اعتراه دُوار فتمالك نفسه لئلا يُغمى عليه. وشعر بالغثيان مرّةً أخرى، فمال وقد بلّله العرق إلى ظل جدار حيث انطوى نصفَين وتقيّأ مِرّةً مُصفرّة.

تتابعت أقدام المارة أمام ناظرَيه المخبّلين. ولِفرط ما أُنهك تضاءل

إحساسه بالضجيج، وغرق في الصمت: ذهاب الناس وإيابهم، محادثاتهم، جلبة الباعة الجوّالين، ضوضاء الزمامير والمرور...

اختفت المرأة. ضاعت وسط أخريات، بلا وجه.

لكن كيف أمكنها أن تفرّ تاركةً نانا عليا - إحدى قريباتها حتماً - على تلك الحالة؟ صرخت، وهذا كل ما قامت به. حتى إنها لم تطلب النجدة. بأية مهارة كان عليها أن تخطط لضربتها، وتحزم أمرها، وتسرق كل ما هنالك؛ ومن دون أن تقترف أي جريمة. القحبة!

من دون أن تقترف أي جريمة، طبعاً، لكنها خانت أقرباءها. والخيانة شرٌّ من الجريمة.

أسأتَ اختيار الوقت الملائم لبناء نظرية يا رسول. انظرْ، أحدهم يعطيك مالاً، خمسين ليرة أفغانية.

مَن يَحسَبني هذا الرجل؟

شحّاذاً! أنت، في جلوسك على الرصيف، جاثياً بطريقة تدعو للرثاء، مع هذه الثياب القذرة والرثّة، واللحية السيئة الحلاقة، والعينَين الغائرتين والشعر المتّسخ، أشبهُ بشحّاذ منك بمجرم. لكنه شحّاذ لا ينقضُّ على المال.

يُلِحُّ الرجل، مرتاباً، ويُلوِّح بالورقة المالية أمام عينَي رسول الزائغتَين. لم يحرّك ساكناً. دسَّ الرجل المال في قبضته العظمية ومضى. أخفض رسول نظره نحو الورقة المالية.

هوذا ثمن جريمتك!

أرعشت ابتسامة مُرّة شفتَيه الذاويتين. أطبق قبضته، وهَمّ بالنهوض، غير أنّ ضجّةً مهولة دوّت فجأةً، وسمّرته في مكانه.

انفجر صاروخ.
اهتزّت الأرض.
ارتمى بعض المارة على الأرض، وراح آخرون يركضون صارخين.
انفجر صاروخٌ ثان، أقرب، وأشدّ هَولاً.
ارتمى رسول أرضاً هو أيضاً.
غرق كلّ شيء حوله في الفوضى والضوضاء. برزت من أتونٍ هائل سحابة من دخانٍ أسود اجتاحت الحيَّ بأكمله عند سفح جبل الأصمعي في قلب كابول.
بعد بضع دقائق أخذت رؤوس أشبه بفطور مغبّرة ترتفع رويداً رويداً في صمتٍ مُضنٍ. وعلت أصوات تقول:
"قصفوا محطّة خدمة السيارات".
– كلاّ، إنها وزارة التربية.
– كلاّ، محطة خدمة السيارات...
غير بعيد من رسول، عن يمينه، كان رجل عجوز يبحث بنظر يائس عن شيء على الأرض، مُغمغماً: "أفعلُ بكم مع مِضخّة وقودكم، ومع وزارتكم... أين أسناني؟ يا إلهي، من أين أخرجت جيش ياجوج وماجوج هذا؟ أسناني...". تفحّص الأرض تحت بطنه. "ألم ترَ طاقِم أسناني؟" سأل رسول الذي حدجه بنظرة مواربة كما لو أنه يتساءل عمّا إذا كان العجوز مصاباً. "سقط من فمي... أضعته...".
– "إذهب يا بابا[1]، في زمن المجاعة والحرب هل ينفع طاقم

[1] هكذا في الأصل: bâba (المترجم).

الأسنان حقاً؟" سأله ساخراً رجلٌ مُلتحٍ كان راقداً قُبالته.

"لِمَ لا؟" ردّ العجوز بحزم وافتخار، مستاءً من مثل هذا التفكير.

"أيّ محظوظ!" قال الملتحي وهو ينهض نافضاً عنه الغبار، ثم ابتعد داسّاً يديه في جيبتَيه تحت نظر العجوز المرتاب الذي أخذ يتذمّر: "كُس – مادَر[1]، ابن العاهرة هذا سرق طاقم أسناني... سرقه بالتأكيد"، ثم التفت إلى رسول قائلاً: "زرعت فيه خمس أسنان ذهبية. خمس أسنان!"، وبعدما ألقى نظرة خاطفة في اتجاه الملتحي تابع قائلاً بصوت ملوّه الأسى: "كانت زوجتي تحثّني على بيعها من أجل مصاريف المنزل. سبق لي أن رهنتُ طاقم أسناني مرّات عِدّة. وحالما كان ابني يرسل إليّ بعض المال من الخارج كنت أسترجعه. ظُهرَ هذا اليوم استعدته من عند المُقرِض، يا لهذا النهار المشؤوم". ثم نهض ودخل وسط الحشد، في طلب الرجل. ربّما.

أُعجِب رسول بسُخرية الملتحي، لا بقدر ما فيها من تهكّم وإنما بقدر احتقاره للأسنان الذهبية، العلامة الخارجية للبخل بكل شناعته. نانا عليا أيضاً لديها اثنتان منها، ولو كان لديه متّسع من الوقت لودّ انتزاعهما منها.

من الوقت، كان لديه متّسع، لكنه هو لم يكن حاذِقاً؛ وإلاّ لما كان الآن هنا، في وضع يُرثى له، قابضاً على ورقة الخمسين ليرة أفغانية.

قام من بين الناس الذين اضطربوا مجدّداً وراحوا يركضون في جميع الاتجاهات محاولين بشتّى الوسائل استعادة وعيهم، وقد

[1] هكذا في الأصل: Koss-mâdar. الكلمة الأولى معروفة، والثانية مادر بالفارسية: أمّ (المترجم).

كمّموا أنوفهم وأفواههم لئلا يختنقوا وسط الدخان والغبار. توجّه أكثرهم نحو الحريق حيث كانت ألسنة اللهب والدخان ترتفع عالياً فأعلى. اقترب رسول من المكان هو أيضاً، غير أن الجثث المحترقة أجبرته على التقهقر، لولا أنْ سمع صوت رجلٍ تناهى إليه من خلال حُجب الدخان طالباً مساعدته. كان يحاول أنْ ينقل على ظهره فتاةً شابة جريحة. "أنا وحيد، وهذه التعيسة لا تزال حيّة". توجّه رسول لمساعدته، وحمل الفتاة بين ذراعيه وابتعد، ثم أعادها إليه. "يجب أن نذهب من هنا! سوف ينفجر خزّان الوقود!" صاح الرجل، مُحدِثاً عاصفة من الهلع ضربت جميع من كانوا يحاولون إخماد الحريق.

سلك رسول الطريق المؤدية إلى جبل الأصمعي. شرد نظره المتعب في الأزقّة الضيّقة والمظلمة التي تتلوّى على خاصرة المرتفع وتشكّل متاهةً حقيقية، سفحاً من ألف منزل، كلّها من طين، متداخلة بعضها ببعض على شكل طبقات متدرّجة حتى قمّة الجبل الذي يقسّم مدينة كابول جغرافياً، وسياسياً، وأخلاقياً، في أحلامها وفي كوابيسها، كأنما هي بطن على وشك الانفجار.

من تحت، يُرى سطح منزل نانا عليا. وهو منزل كبير بواجهة خضراء، ونوافذ بيض.

الآن، وقد ذهبت المرأة، يمكنه أن يعود إليه ليلقي نظرة؛ ولا شيء آخر. ارتقى بجهدٍ مُضنٍ الطريق الوعر إلى أن بلغ سقيفة. هناك فوجئ بثلاثة رجال مسلّحين، يخرجون ساخطين من منعطف أحد الأزقة. أخفض رسول رأسه ليخفي وجهه، ولم يسمع سوى زعيقهم "الأنذال، يقصفون الآن محطة خدمة السيارات عندنا...

– صاروخان! نحن سنرسل لهم ثمانية صواريخ لتدمير محطتهم: سوف يتحوّل حيّهم إلى أطلال، إلى دم!". اختفوا.

تابع رسول سيره. وقبل أن يصل إلى شارع ضحيّته توقّف ليستريح. كانت ساقاه ترتجفان. وكان يتنفّس ملء رئتيه. اختلطت رائحة النتانة برائحة الوقود والبارود. وما زال الهواء كثيفاً وغير صالح للتنشّق. وثمة رائحة أخرى، رائحة لحم بشريّ، لحم محترق، فظيعة. سَدَّ رسول أنفه. تقدّم خطوة. الخطوة الثانية جاءت متردّدة، كبحتها صورة جثة نانا عليا التي رسمها رسول في ذهنه المختلّ. يستحيل أن يرى ثانيةً هذه الجثة المقتولة بيدَيه؛ هاتان اليدان اللتان ترتعشان الآن، وتضطربان، وترشحان عرقاً. يجب أن يتخلّى عن كل شي، كل شيء.

أطلق ساقيه للريح. غير أن فضولاً سقيماً، شبه مرضيّ، أوقفه مجدداً. ينبغي أن يجد هنالك رجال الشرطة، وأقارب، والجيران، ودموعاً، وعويلاً...

عاد أدراجه واثقاً ممّا سيراه. تقدّم. لا شيء أبداً. اخترق على حذر صمت الشارع المسودّ بالدخان حتى أصبح أمام المنزل. لم يجد أحداً؛ إلاّ هذا الكلب الكسول الذي كفّ عن النهوض ولو من أجل أن ينبح.

ذُهل رسول لمّا وجد باب المنزل مقفلاً. دفعه، فلم ينفتح. إذاً، ثمة مَن أقفله من الداخل. لكن، لِمَ هذا الصمت، وهذا الحذر؟ كلّ ذلك يُنذر بالسوء.

عُدْ إلى بيتك!

لم يعد إلى بيته. هام على وجهه في المدينة. وها هو يمشي منذ ثلاث ساعات تقريباً. من دون أن يحثّ الخُطى. ومن دون أن يعبأ بعُرقوبه. كان قد نَسيَه. مضى على وجهه حتى بلغ ضفّة نهر كابول فتوقف. أعادته إلى رشده رائحة الوحل، تلك الرّائحة المنبعثة من مجرى النهر في نهاية فصل الصيف هذه. عاوده الألم من جرّاء الوقوف ومنعه من المضيّ في تيهه. تمسّك بالحاجز وشرع في تدليك عُرقوبه.

أصبح الهواء غير صالح للتنفس أكثر فأكثر. سعل رسول سُعالاً شائكاً، وصامتاً.

الحَنجرة خشنة.

واللسان جافّ.

وما من قطرة أملٍ، لا في فمه، ولا في النهر، ولا في السماء.

كانت الشمس الهرمة، المنهكة تحت حجاب من الغبار والدخان، تغيب على نحوٍ كئيب خلف الجبال... تغيب، الشمس؟ ما أغبى هذه الاستعارة! كلاّ، الشمس لا تغيب أبداً. إنها تمضي إلى الجهة الأخرى من الأرض، تحثّ الخطى لتنير بلداناً أقلّ كآبة. وألفى رسول نفسه يصرخ من صميم فؤاده: "خذيني معك". تقدّم بضع خطوات، مغضّناً عينيه وشاخصاً إلى عين الشمس، ثم توقّف. اتّخذ من يده واقيةً تُظلّل وجهه، وألقى نظرةً خاطفةً حواليه، كما لو أنه يتأكد خِفيةً من أنّ أحداً لم يلاحظ هذيانه الصامت. إيه، كلاّ، يا صغيري رسول، للعالم

اهتمامات أخرى تصرفه عن ملاحظة مجنونٍ بائس.

عُدْ إلى بيتك. ونَمْ!

أنام؟ هل هذا ممكن؟

طبعاً ممكن. سوف تقوم بما قام به راسكولينكوف الذي، بعد مقتل المرابية، عاد إلى منزله وارتمى محموماً على ديوانه. حسناً، أنت، إن لم يكن لديك ديوان، لديك مع ذلك فرشة، قذرة، تنتظرك بحنان على الأرض رأساً.

وبعد؟

لا شيء. تنام.

كلاّ، يُغمى عليّ.

حسناً، يُغمى عليك، إن شئت، لا فرق؛ وذلك حتى الصباح. في الصباح، عندما تستيقظ، سوف تتبيّن أن هذا كلّه لم يكن إلاّ كابوساً. آه، كلاّ. لا يمكنني أن أنسى كل شيء بهذه السهولة. بل يمكنك، انظرْ، لا شيء عندك يجعلك تفكّر في جريمة القتل، لا مال، ولا مجوهرات، ولا فأس، ولا...

دم!

توقّف بغتة. تفحّص يديه مرعوباً، لا شيء؛ تفحّص كُمَّيه، لا شيء؛ صدريّته، لا شيء؛ لكنْ أسفل قميصه توجد لطخة! لِمَ هي في هذا الموضع؟ كلاّ، هذا ليس دم نانا عليا. هذا دم الفتاة الشابّة التي أنقذتها.

أقلقه هذا الالتباس. تفحّص نفسه مرّةً أخرى. ما من قطرة دم أخرى. ولا أي أثر لجريمة القتل. كيف أمكن ذلك؟

غالب الظنّ أنك لم تقترفها. لم يكن ذلك إلا صنيعة خيالك البائس؛ تقمّصك البالغ السذاجة لشخصية روائية، تفاهة، ولا شيء آخر! الآن، بإمكانك أن تعود إلى بيتك، ناعم البال. بإمكانك حتى أن تنسى أنك وعدت، أمس، خطيبتك، صوفيا، بقضاء الليلة عندها. ونظراً إلى حالتك، لا تقابلْ أحداً.

نعم، لن أذهب إليها. لكنني جائع.

الآن، وأنت تملك خمسين ليرة أفغانية، يمكنك أن تشتري خبزاً وبعض الفاكهة، فأنت لم تأكل شيئاً منذ أيام.

هكذا قادته معدته الخاوية نحو ساحة جوَيشير. كان المخبز مقفلاً. في الطرف الآخر من الساحة كان تاجر يرتّب دكّانه. بعد لحظة من التردّد تقدّم رسول ببطء نحو الدكان. وما إن مشى ثلاث خطوات حتى سمع صراخاً سمّره في مكانه. "كلاّ، كلاّ، لا تأخذوا شيئاً!" كانت امرأة محجّبة تخرج من أحد الأزقة، وهي تركض وتصرخ مثل مجنونة. "... هذا لحم بشري... لحم الـ..." ثم وقفت جامدةً في وسط الساحة، متفاجئةً برؤية المكان فارغاً وصامتاً إلى هذا الحدّ.

ارتمت على الأرض مُعْوِلَةً: "لحم الفتيات الشابات... أوّل من أمس، فرّقوا حِصصاً منه أمام الضريح...". لم تجد سوى رسول كي تذرف دموعها أمامه: "أُقسِم لك، يا أخي، أنني لا أكذب، رأيت...". زحفت نحوه، "... العطيّة التي وهبوني إياها"، أخفضت صوتها، "... كانت ثديَي فتاة!"، أخرجت يدها من الشادور، "أُقسِم لك، يا أخي... هؤلاء الرجال الذين قدّموا العطايا هنا، منذ قليل، هم"، كشفت عن وجهها، "أنفسهم، الذين كانوا، في ذلك اليوم، أمام

الضريح..."، وأخيراً، سكتت، وفيما كانت تمسح دموعها بهُدْب شادورها سألت بصوتٍ واهن: "يا أخي، هل معك نقود؟ لديّ ثلاثة أولاد عليَّ إطعامهم".

من دون أن ينبس رسول ببنت شفة، أخرج ورقة الخمسين ليرة أفغانية وأعطاها للمرأة التي ارتمت على قدميه. "شكراً يا أخي... حفظك الله!".

ابتعد رسول، سئماً من شكاوى المرأة، لكنه فخور في قرارة نفسه.

يا لها من بادرة! كأنما بمثل هذه السهولة يمكنك أن تكفّر عن خطيئتك.

كلاّ. أنا لا أريد قطعاً أن أكفّر عن خطيئتي.

إذاً، لماذا قمت بهذا العمل الخيِّر؟ لن تزعم أنه من باب الرأفة! فلن يصدّقك أحد أبداً. إنما الغاية من ذلك أن تقنع نفسك بأنك طيِّب السريرة على الرغم من كل شيء. وأن بوسعك، وإن كنت قادراً على قتل امرأة حقيرة مشؤومة، أن تمنع عائلةً فقيرة من أن تموت جوعاً. المهمُّ هو قصدك؛ أن...

نعم! وهذا هو المهم في نظري: إ...

عثرت رجله بحجرٍ كبير، فارتسمت على شفتيه تكشيرة جرّاء ما شعر به من ألم في عُرقوبه. بعد هُنَيهة توقف. توقف لا عن المشي فقط وإنما عن الهذيان بكلام راسكولنيكوف أيضاً. لِله (أو للحجر) الحمد!

الطريق التي يتعيّن قطعها حتى يصل إلى المنزل حيث يقيم ليست

طويلة. يمكنه إذاً أن يمشي مشياً رفيقاً وبطيئاً.

عندما أصبح أمام الباب انتظر لحظةً وتحقّق للمرة الأخيرة – بقدر ما سمح بذلك هبوط الليل – ممّا إذا كانت عليه آثار دم أخرى. لم يجد سوى تلك اللطخة عينها التي لم يميّز حقاً إن كانت أثر جريمته أو علامة فضيلته.

أخذ نفساً عميقاً قبل أن يدخل إلى باحة المنزل حيث كانت تتردّد صيحات الفرح التي تطلقها ابنتا مالك المنزل، وهما تتأرجحان على حبل رُبط بغصن الشجرة الوحيدة الميتة. ارتقى رسول بخفّة وسكون درجات السلّم المؤدّي إلى غرفته الصغيرة الكائنة في الطرف الآخر من الباحة. وعندما بلغ الدرجة الأخيرة ارتفع هتاف الصغيرتين: "سلام كاكا[1] رسول!".

وفيما كان يهمّ بفتح الباب سمع صوتاً آخر، أبحّ ومهدّداً، منعه من أن ينسلّ إلى الداخل: "إيه، يا رسول، حتّام تظنّ أنّ بوسعك الفرار؟" كان هذا صوت يَرْمُوحمَد، المالك. التفت رسول نحوه، لاعناً ابنتَيه في صمت. كان يرموحمَد يطلّ من إطار النافذة مُعتمراً طاقيّة صلاة: "ماذا بعد، أين الإيجار، هيه؟".

هبط رسول السلّم مجهداً ومَغيظاً، ومضى نحو أسفل النافذة ليقول إنه ذهب اليوم، كما كان قد وعده أمس، لاسترداد نقوده فلم يوفَّق. كانت المرأة المدينة له قد غادرت ففتّش عنها طول النهار، لكنْ...

---

١ هكذا في الأصل kâkâ. ومعناها: الأخ، أو الأخ الأكبر، بالفارسية. وتمام العبارة: Salam kâkâ Rassoul: سلام أيها الأخ رسول، (المترجم).

لكنْ أمضّه إحساس غريب بالفراغ في حنجرته. لم يصدر منها أي صوت. سعل سُعالاً فارغاً، جافّاً، من دون ضجّة، ولا مادّة! تنفّس من أعماق رئتَيه وسعل مجدّداً. لا شيء، أيضاً. حاول متوجّساً أن يطلق صرخة، واحدة، مهما كانت، فما انبعث شيء سوى صوت تعس، مختنق، مضحك.

ما بي؟

"وإذاً؟" قال يرموحمد وقد عِيل صبره.

فلينتظرْ! حدث أمرٌ خطير. فقد رسول صوته. حاول مجدداً أن يستنشق الهواء ملء رئتيه؛ أن يستجمع قواه في صدره؛ أن يدفع الكلمات نحو شفتيه؛ بلا طائل. "هل وجدت ذلك الشخص المدين لك بالمال؟" هتف يرموحمد بنبرة هازئة. "أعطني اسمه، إذاً! وغداً تحصل على مالك. هيّا، أعطني اسمه...". لو كنت تعلم، يا يرموحمد، لما تجرّأت على مخاطبة رسول بهذه الطريقة، لقد قتلها. وسوف يقتلك أيضاً إن ضايقته. انظرْ إلى كلّ هذا الدم على ثيابه.

مرّر رسول يده على قميصه الملطّخ بالدم، مُخرساً بذلك يرموحمد، الذي أوى إلى غرفته وجِلاً ومواصلاً تذمّره: "تفاهة! الأكذوبة نفسها دائماً..." دعه يتذمّر يا رسول. تعرف التتمة: سوف يعود إلى النافذة ليقول لك أيضاً إنه إذا ما كان قد تحمّلك خلال سنتين فذلك إكراماً لقريبك رازمودين؛ ولولا صداقته لكان قد طردك منذ زمن؛ وإن هذا الأمر قد انتهى الآن، فما عاد يكترث لكما، لا أنت ولا قريبك، إلخ.

تظاهرْ بالصمم، وادخلْ. ولا تُلقِ نظرة لترى إن كانت رونا، امرأته، هناك أم لا.

إنها هناك، طبعاً، وراء نافذة أخرى، تنظر إلى رسول بعين الأسى، كأنّما تبحث له عن أعذار. هي تحبّه، وهو، رسول، يلزم الحذر. غير أنها تعجبه، وغالباً ما يستمني مفكّراً فيها. أما حذره فمردّه إلى عدم معرفته حتى الآن أي نوع من العاطفة - شغف أو شفقة - تكنّ له. إن كانت شفقة فسوف يمقتها. وإن كانت شغفاً فسوف تزداد علاقته بيرموحمد سوءاً. إذاً، ما فائدة التفكير فيها. فليدخلْ غرفته، وليسترحْ لاستعادة النفَس والصوت.

أثار صرير الباب الحادّ جيشاً لجِباً من الذباب الذي يتداعى للدخول أملاً في العثور على شيء يصلح للمصّ. لا شيء هنا، سوى كتب متناثرة؛ وفرشة قذرة؛ وبعض الملابس الرثّة، معلّقة على الحائط؛ وإبريق من الفخار في رُكن من الغرفة. وهٰذا كل شيء.

شقّ رسول لنفسه طريقاً مُنحّياً بقدمه الكتب المبعثرة حول فرشته، وارتمى على سريره من دون أن يخلع جَوربَيه. كان يحتاج إلى قِسط من الراحة.

أغمض عينيه. تنفّس على نحوٍ منتظم، بهدوء، وبطء.

كان لسانه أشبه بقطعة من خشب يابس.

نهض.

شرب.

عاد.

ما زالت حنجرته جافّة وفارغة، فارغة من الصوت. استنشق الهواء من أعماق رئتيه، وتنفّس على نحوٍ متوتّر.

أبداً، لا شيء يهتزّ.

استبدّ به الضيق، فجلس، ولطم صدره. عبثاً.

لطم أيضاً، لطماً أشد.

إهدأ! لا داعي للقلق.

ما هذا إلا غِشاء على الحنجرة؛ توعُّك في التنفُّس. هذا كل ما في

الأمر. يجب أن تنام. غداً، إذا ما استمرّ ذلك، اذهب إلى الطبيب.

تمدَّد، وانقلب ناحية الجدار. ثنى جسده نصفَين، ودسّ يديه بين رُكبتيه، وأغمض عينيه، ونام. نام إلى أن ارتفع أذان المغرب، وتلاشت الأعيرة النارية التي كانت تُسمع من جانب الجبل الآخر. ثمّ حلّ الصمت. وهذا الصمت المقلق هو الذي أيقظه.

كان محموماً. لا حول له على النهوض، ولا رغبة، ومرّة أخرى حاول متوجّساً إخراج صوته قسراً. ما زال النفَس يخرج غصباً، من دون أيّ كلمة. تعاظم اضطرابه، فأغمض عينيه، غير أنه انتفض لدى سماعه صوت امرأة تئنّ أنيناً مخنوقاً. جمد في مكانه. حبس أنفاسه المتقطعة، وأصغى. لا صراخ، ولا صوت. استبدّ به الفضول، فنهض ببطء واتّجه نحو النافذة، و، من خلال عناقيد الذباب المتعلقة بالزجاج، ألقى نظرة على الباحة. في ضوء القمر الباهت والبارد، بدا الفِناء خالياً، وحزيناً، وخادراً.

استراح برهة، ثم أشعلَ شمعة. تناول من وسط الكتب دفتراً صغيراً، فتحه وخربش على إحدى صفحاته هذه العبارة "قتلتُ نانا عليا" ثم رمى الدفتر في زاوية بين الكتب.

شرب ماءً.

أطفأ الشمعة.

عاد إلى سريره.

على الجدار، فوق جسده المنكسر، ألقى القمر صليباً، هو ظلّ النافذة.

كان يوماً من أيام الربيع، وكان الجيش الأحمر قد غادر أفغانستان، ولم يكن المجاهدون قد استولوا على السلطة بعد. وكنتُ قد عدتُ حديثاً من مدينة لينينغراد. أما لماذا ذهبت إليها فتلك قصة أخرى لا يسعني أن أرويها هنا، في هذا الدفتر. لنعدْ إلى ذلك اليوم الذي التقيتك فيه للمرة الأولى، وذلك منذ سنة ونصف السنة تقريباً. كان ذلك في مكتبة جامعة كابول حيث كنت أعمل. جئت تطلبين كتاباً، لكنك أخذت معك قلبي. عندما رأيتك، أمرتني نظرتك الهاربة والخجولة ألّا أتنفّس، وخلّف صوتك أثراً في أنفاسي، وتوقّف كل شيء من حولي، الزمن، والعالم... لكي يكون بإمكانك وحدك أن توجدي. ومن دون أن أقول لك كلمة تبعتك إلى الصف، لا بل انتظرتك إلى أن خرجت من الدرس. لكن كان من المستحيل أن أدنو منك، أو أُقاربك.

بعد ذلك تكرّرت القصة ذاتها. كنت أفعل كل شيء لكي ألتقي بك، وألقي عليك نظرة، وأوجّه إليك ابتسامة، ولا شيء آخر. لِمَ لمْ أتوصّل إلى مكاشفتك بحبّي لك؟ لست أدري. لانعدام الجرأة؟ أم للكبرياء؟ أيّاً كان السبب، تتلخّص حكايتنا في تلك النظرة الخاطفة، وتلك الابتسامة المحتشمة التي، لعلّك، لم تلاحظيها؛ وحتى لو لاحظتِها لما تجرأت، تهيُّباً أو حياءً، على أن تقابليني بمثلها.

هذا الحبّ هو ما جعلني أسكن في ذلك الحيّ من دهافغانان،

عند سفح جبل الأصمعي، على مرمى حجر من منزلك. آنذاك كنت تقيمين في منزل آخر، ذاك المطلّ على المدينة، على مقربة من الصخور العظيمة التي كنت أريد أن أقطعها لأنحت منها تمثالك.

صبيحة كلّ يوم، كنت أرافقك خلسةً حتى الجامعة، وبعد الظهر حتى منزلك. ما كنت تستقلّين الباص، عمداً ربّما. كنت تمشين الهُوَينى بغطاء رأس خفيف، ونظر خفيض، وقلب متّقد لكونك مصحوبة – ولو عن بُعد – بي، أنا المغرم بك، أليس كذلك؟ ذات يوم أقدمتِ مع ذلك على افتعال حادث لكي يمكنني الاقتراب منك. وهذا تصرّف مألوف تماماً: أسقطتِ دفترك على الأرض، آملةً أن أهرع إلى التقاطه وإعادته إليك، لكنْ كلاّ، لم يحالفك التوفيق. التقطتُه فعلاً، غير أنني لم أردّه إليك أبداً. أخذته معي، مضموماً إلى صدري، كالقرآن. وعلى هذا الدفتر أكتب إليك.

وهو الدفتر نفسه الذي أخرجه منذ قليل لكي يدوّن فيه: "اليوم قتلت نانا علياً".

كتب أيضاً أشعاراً، وحكايات، موجّهة كلّها إلى صوفيا، طبعاً، لكنّها لم تقرأها حتى الآن، مثل هذه: "مظلمة هي الأرض، مظلم هو النهار، وانظري إليّ يا صوفيا، في هذا الجحيم يبتهج قلبي، لأنه سيلقاك هذا المساء".

أنت لم تريني. وحتى، لعلّك، لم تعلمي أنني سأتناول العشاء هذا

المساء في بيتك. نعم، كنتُ في بيتك، مع أبيك، حتى أنني قابلت أخاك داوود.

منذ سنة وشهرين تقريباً فقدت أثرك. أو، على وجه الدقّة، منذ سنة وستة وأربعين يوماً. نعم، هذا هو، منذ سنة وستة وأربعين يوماً ذهبت إلى مزار شريف ملتحقاً بعائلتي، لكن لم يكن لي مكان في بيتي. أبي الذي كان شديد الرغبة في أن أتابع دراستي في الاتحاد السوفييتي، بلاد أحلامه، خاب أمله بعودتي. ضاق بي ذرعاً. بعد سبعة أشهر هجرتهم. وعندما رجعت إلى كابول كانت حرب أخرى قد اندلعت، حرب يقتل فيها الأخ أخاه، هذه المرّة، حيث الرصاص ما عاد يُطلق باسم الحرية ولكن من أجل الانتقام. المدينة برمّتها اختبأت تحت الأرض، نسيت الحياة، والصداقة، والحبّ... نعم رجعتُ إلى هذه المدينة بحثاً عنك. لكنكم ما عدتم تقيمون في المنزل نفسه. كنتم قد ذهبتم إلى مكان آخر، لكن أين؟ لا أحد يعلم.

اليوم، بعد الظهر، ذهبت إلى الشاي خانه[1]، كانت غمامة من دخان التبغ تملأ بيت الشاي هذا، الغاصّ بالملتحين، وكنت جالساً على مقعد في زاوية أحتسي الشاي. استرعى انتباهي وقْع خطى لرجل يصعد السلّم الخشبيّ بكثيرٍ من الجهد والعناء. كان هذا أباك، مُحرَّم الله، وقد أصبح وحيد الساق، يتوكّأ على عُكّازَين محصورَين تحت إبْطيه. لم أصدّق عينَيّ. وخبت حماستي. كان يتبعه صديقان.

[1] هكذا في الأصل Chaykhâna، كلمة فارسية تعني: المحل، المنزل، الدار، النادي، المخصص لاحتساء الشاي (المترجم).

أحدهما، من دون عكّازين، يعرج بشدّة ويتألّم. والآخر فقد إحدى عينيه وذراعه اليمنى. كانوا يترنّحون ثلاثتهم بعدما دخّنوا حشيشة الكيف في القبو، في الساقي خانه[1]. أقبلوا على زاويتي فسارعت إلى التراجع قليلاً مفسحاً لهم في المكان. جلس أبوك بجانبي وحدجني بنظرة ثاقبة جعلتني أضحك رغماً عني. التفت إليّ وسألني بصوته الأجش والفاتر: "أتبتسم بسبب انتصارك؟"، أضاف وهو يمدّ نحوي بقية ساقة المبتورة، "أهنّئكم على هذا الانتصار، برادَر[2]؟" ابتلعت ابتسامتي، واقتربت منه لأقول له إنني لست باباريش[3]، ملتحياً، ولا تاڤاريش[4]، رفيقاً... لست مهزوماً، ودون أن أكون منتصراً. ولكي أطمئنه قلت له وأنا أمرّر كفّي على لحيتي: "هذه الفروة ما هي إلّا هدية الحرب". أحسَسْتُ بأنّ هذا الجواب المفصّل قد أثّر فيه، فقد لطّف نظرته إليّ وسألني بصوت هادئ: من أين أتيت؟ قلت: "من هنا، من ده أفغانان". نظر إليّ متفحّصاً وقال: "هذه المرّة الأولى التي أراك فيها".

حاولت أن أشرح له أنّني، أنا، أعرفه تمام المعرفة، وأنني كنت مُغرماً بابنته، وأن...

غير أنني امتنعت عن البوح. ففي زمن الشك والشبهة هذا لا ينبغي إقلاق الناس. عندئذ قلت له إنني انتقلت إلى هنا حديثاً.

---

١ هكذا في الأصل Sâqikhâna. كلمة فارسية تعني: المحل، المنزل، الدار، النادي، المخصص لشرب الكحول (المترجم).

٢ في الأصل brâdar، وتعني بالفارسية: الأخ (المترجم).

٣ في الأصل babarish.

٤ في الأصل tavarish، وتعني الرفيق، بالروسية (المترجم).

"وماذا تفعل في الحياة؟"

بينما كنت أفكّر في اختراع مهنة لي مطمئنة، التفت أحد شريكيه، الأكتع، إلى الآخر وقال له وهو يضحك هازئًا: "إيه، يا عُثمان، الآن أصبح رفيقنا[1] محرّم الله محقّقًا؟".

– هل تعلم لِمَ شاء الله العليم[2]، الذي لا يغرب عن باله شيء، أن يخلق القطّ بلا جناحين؟ سأل عثمان، الأعرج.

– لأنه لو كان بجناحين لأكل عصافير السماء أجمع، أجاب الأكتع. "فلنحمد الله، البصير، الذي لم يجعل من مُحرّم الله مجاهداً مجنّحاً، وإلّا...".

وانفجرا ضاحكين، عندها التفت أبوك نحوي مغتاظاً وقال: "انتظرا حتى يأتوا، هؤلاء القطط المجنّحة والملتحيّة، وعندما يولجونه فيكما ستضحكان مُكرَهين".

إثر هذا التحذير، ازداد شريكاه صخباً ومرحاً. واقترب منه الأكتع قائلاً: "لا تقلقْ، إذا ما ضحكنا فلأنه بات في قفانا من قبل". أثار جوابه عاصفة من الضحك شارك فيها كلّ مَن في الشاي خانه، ما عدا ربّ العمل الذي تدخّل مذعوراً: "اهدأوا، سوف ينقضّون علينا هنا، وسيأتي يوم يمنعون فيه الشاي خانه والساقي خانه".

"سوف يأخذونها منك، شاي خانتك! لكنْ، بفضل إخواننا المسلمين، ما يزدهر عندنا ويكثر هو الحشيش، والساقي خانه والمؤخّرات المخروقة؟" بذلك أجاب الأكتع وهو يمسح دموعه.

---

١ بالروسية في الأصل: تاڤاريش (المترجم).

٢ باللغة العربية والحرف اللاتيني في الأصل: Allah-o-al-âlim (المترجم).

أغرب الجميع في الضحك، وعِيل صبرُ ربّ العمل، فأقبل على مَشربه وعاد منه بطاسٍ صَبّ ماءه على المعوقين الساخرين، فانتفضا وكفّا عن الضحك. "نبذل مالنا لكي ندخّن، وأنت تُفسد نَشْوَتنا!" قال الأكتع وهو ينهض متذمّراً. وغادر الاثنان صالة الشاي مُبلّلين.

مكث والدك في مكانه. التفت نحوي فيما كنت أنظر إليه بوجه عامرٍ بالسرور. لا شك في أنه لم يفهم لمَ هذا السرور. كان يجهل أن ما يسرّني هو شيء آخر غير دعابات شريكيه، هو حضوره هنا، هذا اللقاء الذي طالما رجوت حصوله مع أحد أفراد أُسرتك، علامة على وجودك.

"لا تهزأ بنا، أيها الشاب، القدر هو الذي جعلنا هُزأة، القدر!" قال برصانة وبطء. وبعد برهة من الصمت أضاف: "القدر... يقال إن القدر هو الذي يُجبر المرآة على أن ترضى بالرماد. أتعلم ماذا يعني ذلك؟" لم ينتظر إجابتي: "تعلمُ أن المِرآة هي زجاج مُقَصْدَر. وعندما يذهب الزمن بالقصدير يُغطّي الزجاج بالرماد! نعم، إنه هو، القدر، الذي يُرمِّد كلَّ شيء. كم عُمرك؟".

– سبعٌ وعشرون سنة.

"عُمري ضعفُ عُمرك... بل أكثر... حياة كريمة!" غابت نظرته، ثم قال: "الحرب تقتل كرامة الإنسان"، استوى جالساً: "قلبي دامٍ ولا دم على يديّ. يداي نظيفتان..." أراني راحتَيه. "أنا أيضاً، قمتُ بالجهاد... لكن على طريقتي..." اقترب مني: "لسنوات طويلة كنت المدير الإداري لدار المحفوظات الوطنية. وكانت في سالانغوات،

غير بعيد من هنا... إبّان حُكم الشيوعيين، الأوائل، المعروفين باسم خلقي. نعم، آنذاك كان لدينا مدير عام، ابن كلب، يبيع الوثائق للروس، وكنت كلّما فُقِدت وثيقة تراودني الرغبة في خنقه، كان يبيع تاريخ بلادنا، أتفهم؟ تاريخ بلادنا! يمكنك أن تصنع كلَّ شيء بشعب لا تاريخ له، كلَّ شيء! والبرهان..." البرهان سكت عنه، تاركًا لي أمر العثور عليه في خرائب أرواحنا. "باختصار، كنت لا أستطيع أن أفعل شيئاً ضدّ هذا المدير. كان خلقياً.." بصق اشمئزازاً. والتفت نحو صاحب الشاي خانه صائحًا: "موسى، كأساً من الشاي لهذا..." وأشار برأسه إليّ. سكت بُرهة كما لو أنه يتذكر عمَّ كان يتكلّم، ساعدته. "نعم، أحسنت... الحشيش... يُتلف ذاكرتي، لا، ليس الحشيش، عُذراً!... القدر... يُرمِّد الذاكرة! ولتحمُّل وطأة القدر لا بدّ من الحشيش، كمّية كبيرة منه حتى لا تعود تشعر بشيء. لكن أين تجد المال اليوم؟ لو كان لدي بعض المال لمكثت تحت... في الساقي خانه..." دعوته للنزول، فلم يرفض. نهضنا طالبين من ربِّ العمل أن يجلب لنا الشاي إلى غرفة التدخين. نزلنا. كان المكان المفعم بالدخان مُضاءً بنورٍ أصفر ينبعث من مصباح نفطي معلّق بالسقف، ولا يكاد المرء يتبيّن وجود رجال صامتين، زائغي الأبصار، متحلّقين حول نرجيلة كبيرة، والجميع في حالة انجذاب. أوجد لنا أبوك مكاناً مُنعزلاً. دخّن هو، أما أنا فلا. وشيئاً فشيئاً غادر الآخرون المكان وبقينا وحدنا! استأنف الحديث: "ماذا كنت أروي لك؟"... وساعدته مرّة أخرى. أكمل: "نعم، هذا المدير الحقير... هذا الكلب، الذي منحه القدر أجنحة، كان واحداً من مُحدَثي

النعمة، وكان قد سمع بالويسكي إلا أنه لم يذقه من قبل. ذات يوم طلب إليّ أن أجلب له قنّينة، لم يقل ويسكي بل ويتساكاي؟" وأغرب في الضحك. "هل تعلم ما معنى ويتساكاي في اللغة الباشتونية؟"، هنا أيضاً لم يترك لي مُتّسعاً من الوقت لأجيبه، "هذا يعني: هل تريد أن تشرب"، سكت برهة وعاد وقوراً، "ذهبت فاشتريت له كحولاً محلياً، أردأ ما وجدت، وأضفت إليه قليلاً من شراب الكوكاكولا، وقليلاً من الشاي! حتّى لُيخال من يراه إنه ويسكي، ملأت منه قنّينة ظريفة وأحكمت إقفالها، صُنعة محترف! حملتها إليه، وطلبت منه ستّمئة ليرة أفغانية. وكان هذا المبلغ كبيراً آنذاك، كما تعلم. بعد ذلك دأب على أن يطلب مني ويتساكاي، ودأبت على أن أزوّده بالكحول نفسه، بعد بضعة أشهر انفجر كبِدُه، وفطس، انتهى! عديم اللياقة!" بدا أبوك فخوراً وهو يسحب نفساً طويلاً من النرجيلة ويزفر الدخان عالياً نحو المصباح. "إذاً، قل لي، أيها الشاب، ألم يكن هذا هو الجهاد[1]؟ بوسعي أنا أيضاً الادّعاء بأنني مجاهد، أخ، غاز[2]!". لم أعرف بِمَ أجيب. "منذ ذلك اليوم وأنا أبتهل إلى الله وأسائله عن عدالتي وعن عدالته هو أيضاً! إسمع، أيها الشاب، كان ذلك المدير الحقير خائناً يستحق العقاب. وهذا ما فعلته أنا. لم أستطع الانتظار إلى أن يتغيّر النظام حتى أقاضيه!" سحب نفساً آخر من الغليون، وأخذ استراحة. "الآن تغيّر النظام... اليوم بإمكان أي تافه أن يُقيم العدالة، من دون تحقيق، ولا دعوى. مثلي آنذاك. وماذا بعد! الهدف من

١ هكذا في الأصل Le djihad (المترجم).

٢ هكذا في الأصل Ghâzi (المترجم).

العقاب هو إلغاء الخيانة لا الخونة... أتساءل اليوم أليس هذا النوع من الحكم والعقاب جريمة بحدّ ذاته؟". كنت حتى هذه اللحظة مأخوذاً بقسمات وجه أبيك وصوته، إلا أنني انتفضت فجأةً وسألته عمّا إذا كان قد قرأ الجريمة والعقاب. ألقى عليّ نظرة تنمّ عن عدم الفهم ثم انفجر ضاحكاً: "كلاّ، أيها الشاب، كلاّ! الحياة... قرأت الحياة" وسكت في الحال، سكوتاً طال. وسكتّ أنا أيضاً. أخذ يدخّن، وأخذتُ أفكّر، وكلٌّ منا في عالمه. كان عالمي أنا مسكوناً بك، فرحتُ أبحث عن وسيلة أدفع بها أباك إلى الحديث عنك. فجأةً عاد يتكلم، لكن عن عالمه هو: "كان دور الخلقيين قد انتهى وجاء دور الروس. ثمّ، وكان ذلك قُبيل رحيلهم، بدأت الصواريخ تنهمر من كل مكان. وذات يوم أصاب أحدها دار المحفوظات. وكنا في المكتب جميعنا، فهرعنا، أنا وزميلاي اللذان رأيتهما، لكي ننقذ من النيران الوثائق الأكثر أهمية. انفجر صاروخ آخر. وعُثِر علينا غارقين في الدماء" هزّ رأسه، أسفاً على شجاعتهم. "الآن، نحن مقعدون، مَن يعطينا وساماً؟ مَن يفكّر فينا؟ لا أحد!". خيّم الصمت مجدّداً. ومجدّداً تداعت الذكريات، والحسرات، والندم... "منذ ذلك الحين لزمتُ البيت، مع زوجتي وولَديّ. كان عليّ أن أطعمهم، وأن أدفع إيجار البيت، من سيدفع كل هذا؟ عندما ذهبت إليهم أطلب المال أهانوني، لأنني عملت في ظلّ النظام الشيوعي، ونعتوني بالخائن، ولم يكن أمامي من خيار إلاّ أن أضع هذه الوثائق الثمينة التي حافظت عليها رهناً عند صاحب البيت. كان عسكرياً يعرف قيمتها. لكنه توفّي بالسكتة القلبية. لم يبقَ بعد موته إلا زوجته وابنته، وكان عليّ أن

أتفاوض مجدّداً مع زوجته... نانا عليا، تلك القحبة، والأمّية الدنيئة! لم تكتفِ بالامتناع عن إعادة الوثائق إليّ، بل أخذت تزيد الإيجار كلّ شهر، أصبحنا خاليي الوِفاض، فعمدت زوجتي المسكينة إلى رهن مصاغ مهرها، مجوهراتها، لدى تلك المرأة القذرة، بعد ذلك صارت ابنتي تعمل عندها لتسديد الإيجار".

"صوفيا هناك إذاً؟" أردت أن أصرخ، أن أنهض، أن أرتمي في أحضان أبيك. "ماذا تفعل في الحياة؟" سألني مُنتزعاً إيّاي من فرحي الداخلي: "ما اسمُك، قلت؟". ذكرت له اسمي، وأخبرته بأنني كنت أعمل في مكتبة الجامعة. بعد صمت مصحوب بنظرة منه تفيض حناناً، قال مُستنتجاً: "يبدو للعيان أنك مثقف، وابن عائلة كريمة". سكت مجدداً قبل أن يضيف: "لديّ ولدان، بنت وصبيّ. ابنتي طاهرة، بريئة..." ثم نهض قائلاً: "الوقت متأخّر، يجب أن أعود إلى البيت. إنها تقلق عليّ...".

غادرنا الساقي خانه وتُهنا في ضباب الغسق الكئيب والمغبّر. بعد أن سرنا بضع خطوات صامتين استأنف أبوك الكلام كما لو أنه لم يكفّ عن التكلّم أبداً: "غير أن الحرب لا تعرف الطهارة ولا البراءة. هذا ما يُرعبني في الحرب. لا تخيفني الدماء ولا المجازر. أما حين يفقد الشرف والبراءة قيمتهما فعندئذ أخاف. ابنتي، مثل أمّها، هي الأطهر والأشرف"... خيّم الصمتُ مجدداً، واستمرّ طويلاً إلى أن توقّفنا أمام منزلكم. "هنا مسكني" قال وهو يفتح الباب. مددت له يداً مرتجفة لأسلّم عليه مودّعاً، لكنه منعني قائلاً: "تعود إلى بيتك؟ لقد أضفتني ثم رافقتني إلى هنا، وتظنّ أنني سأدعك ترحل؟" ثم

دعاني للدخول. وما إن وضعتُ قدماً في الداخل حتى ملأت رئتيّ بجرعة كبيرة من الهواء، ذلك الهواءِ الذي تتنشّقينه، وحبستُه في صدري أطول وقت ممكن... تبعتُ أباك وهو يتقدّم في باحتكم الصغيرة، مروراً تحت تعريشة الكرمة إبّان تفتّحها الربيعي، كان اضطرابي يتضاعف خشية اللحظة التي سنلتقي فيها. وكنت أُجيل النظر في كل ما هنالك، مفتّشاً كلّ ركنٍ وزاويةٍ مخفيّة في الباحة، متفقّداً نوافذ الغرف المغلقة، مُستطلعاً سطح منزلكم حيث كان أخوك ينظر إلينا حاملاً حمامة بين ذراعيه. "صباح الخير" صاح. "أما زلت على السطح؟" سأله أبوك. "كان يطوف هنا هرّ" أجاب بلهجة ماكرة. التفت أبوك نحوي قائلاً: "هذا داوود، ابني، منذ أن أقفلت المدارس أبوابها وهو يعتني بحمامي، ما عدتُ قادراً على الصعود إلى فوق". دخلنا إلى المنزل، وقادني أبوك إلى غرفة مظلمة حيث أشعل شمعة، ثم غادر، تاركاً إيّاي مستمتعاً بأن أداعب بقدمي البساط الوحيدِ على الأرض. ولمّا كنت مُستفزّاً باختلاجاتي الغرامية، تردّدت في الجلوس على إحدى المرتبات الثلاث في الغرفة. وكنت أتساءل إن كنت تعلَمين بوجودي هنا، في منزلك. آه، كلاّ. في ذلك المساء لم أتمكّن من رؤيتك، يا حبيبتي، بعد العشاء تركت منزلك على أمل العودة إليه قريباً.

مقطع آخر:

يوم الجمعة الماضي، بينما كنت أتكاسل على سريري، باحثاً

عن ذريعة للذهاب إلى بيتكم، انتزعني من غفلتي انفجار قنبلة رجّ الحي. سارعت مرتاعاً إلى مغادرة الغرفة، وركضت، مدفوعاً بشعور غريب، نحو مكان الانفجار. هالني ما رأيت. لم يكن بيت الشاي إلا أنقاض تأكلها النيران ويتصاعد منها دخان خانق. وكان نساء ورجال منهمكين في إخراج أجساد مدفونة تحت الردم. وعلمت من أقوالهم أن بعض الأشخاص تمكنوا من النجاة، ولكنّ آخرين ما زالوا محتجزين بين الأنقاض. شرعتُ في مساعدة القوم على تخليص الضحايا. وعثرت على أبيك وهو ينازع بين الركام. وضعته على عربة وأخذته إلى البيت.

وأنتِ فتحت لنا الباب.

لم تتعرّف صوفيا إلى رسول بلحيته الكثّة. كما أن رسول لم يُعرّف بنفسه. ولم تتذكر تدريجاً ملامح وجهه إلا بعدما استدعى الطبيب وعندما ذهب لجلب الأدوية. لكنها سرعان ما نسيت فرحتها باللقاء فيما كان أبوها يلفظ أنفاسه الأخيرة. في ذلك المساء أصبح مصير صوفيا بين يدي رسول الفارغتين، غير أنهما حازمتان.

هكذا وجد عائلة أخرى ترى فيه رجلاً بمعنى الكلمة، منقذاً، وحامياً... وهي صفات مهمّة لمن كان مثله معتزّاً بنفسه.

لكن هوذا، اليوم، حائر، على حافّة الهاوية، مُستغرق في أوهامه، مُنهك بكوابيسه، تحت القمر المتسلّل من بين الجدران.

في هذه الأثناء انكسر ظلٌّ النافذة على جسده المحموم.

من جديد انطلقت صرخة، مثل سابقتها، لكنها أقوى؛ أعقبها عويل أشدُّ تألّماً، مزّق صمت الغرفة، واقتحم رُقاد رسول الذي انتفض جالساً على السرير، حابساً أنفاسه، مرهفاً سمعه. من أين يصدر هذا العويل؟ ممّن؟ بذل أقصى طاقته لكي ينهض. لا طاقة. عادت قدمه تؤلمه، وشعر بأنه مربوط من عُرقوبيه. زحف حتى أسفل النافذة ورفع رأسه ليلقي نظرة خاطفة على الباحة. لمح أولاً ابنتي يرموحمد – اللتين كانتا واقفتين على الشرفة وبيد كلّ منهما قنديل – وهما تنظران بهدوء غريب إلى شجرة الموت التي لا يستطيع رسول أن يتبيّنها جيّداً. مطّ جسده إلى أعلى قليلاً. أذهله ما رأى: يرموحمد يبرز من الرواق حاملاً بيده سكّيناً كبيرة ويهرع نحو جسدٍ عارٍ لامرأة معلقة من عرقوبيها على غصن الشجرة بحبل الأرجوحة. تحوّلت نظرة رسول المرتاعة نحو نافذة لمح من ورائها رونا، وفي يدها قنديل هي أيضاً، غير أنها لا تنظر إلى زوجها، ولا إلى الشجرة، ولا إلى ابنتيها. كانت تبعث إليه بقبلات مُختلسة. اقترب رسول من النافذة مبهوتاً. رأى يرموحمد يدير جسد المرأة فيظهر وجهها. إنها صوفيا. صرخ رسول صرخة مخنوقة، ميتة في صدره. شرع يرموحمد في تقطيع ثديَي المرأة الشابة. تحوّل الأنين إلى عويل. أخذ رسول العاجز عن الوقوف يضرب على النافذة مهتاجاً. أنهى يرموحمد رابط الجأش تقطيع صدر صوفيا التي كفّت عن العويل والأنين. تابع رسول الضرب

على النافذة إلى أن تحطّم الزجاج.

فجأةً دهمته ضجة الباب الذي انفتح، وضوء باهر من مصباحين يدويين أعماه، وزُعاق مخيف لرجلين مسلّحَين بكلاشنكوفين اقتحما الغرفة. إنهار رسول عند النافذة وسط حُطام الزجاج وأخذ يتخبّط محاولاً النهوض. هرع إليه أحد المهاجمَين وضربه بالمصباح على رأسه. وراح الآخر يبحث بين أكداس الكتب. "أيها الشيوعيّ اللعين، أنت تختبئ كالجُرذ!" أغمض رسول عينيه، ثم فتحهما آملاً أن تكون ظلال الكابوس هذه قد اختفت. جهد بلا طائل. ما زالت هنا. وأنت لم تعد في حُلمك. دافعْ عن نفسك. إفعلْ شيئاً.

ماذا؟

طمئنهما، قُلْ لهما إنك لست شيوعياً، وإن كتبك الروسية ليست من كتب الدعاية الشيوعية وإنما هي مؤلّفات دوستويفسكي. اصرخ!

"نكح الروس أُمّك!" قال أحد الرجلين المسلّحين وهو يضرب شفة رسول بكتاب؛ وسال دم.

إنسَ دوستويفسكي! قُلْ شيئاً آخر، توسَّلْ، احلفْ باسم الله...

حاولَ، لكنّ كلمة الله لم يعد لها صدى في حنجرته.

أوسعه أحد الرجلين ضرباً، وألقياه أرضاً. هناك، لمح رسول يرموحمد واقفاً على عتبة البابا، مُلتذّاً برؤية هذا المشهد. سأله أحد الرجلين: "منذ متى يختبئ هنا؟". تقدّم خطوة ليجيب بتذلّل: "منذ سنة... أُقسم لك، لقد أجّرته هذه الغرفة كُرمى لقريبه الذي تربطني به صداقة. قريبه، رازمودين، مجاهد مستقيم وتقيّ... أقسم بالله أنه يخفي هذه الكتب حتى عن قريبه. رازمودين ليس بالرجل الذي يكفل

مُلحداً شيوعياً، وإن كان أخاه من أُمّه وأبيه...". اشمأزّ رسول، وأراد أن يعترض، أن يقف لينقضّ على يرموحمد، ويأخذ بخناقه، ويضربه، ويردّه إلى الصواب. قليلاً من الكرامة يا يرموحمد! غير أن الركلة التي تلقّاها أسفل بطنه طوته نصفين. "أتهرب؟".

أهرب؟ كلاّ... "لماذا كسرتَ النافذة؟" النافذة؟... كلاّ، لكن هذا... اختلط الأمر على رسول الذي نهض بمشقّة ليلقي نظرة خاطفة على الباحة حيث كل شيء مظلم وصامت. بلبلة تامة. عادت نظرته القلقة لتستقرّ على يرموحمد، على يديه الفارغتين، النظيفتين.

"هيّا، تعالَ معنا إلى المركز!" اقتاداه، متأبطَيْن بعض الكتب الروسية كوثائق إثبات.

عند مرورهم أمام يرموحمد نظر رسول في عينيه مباشرةً لإفهامه أنه سيدفع غالياً ثمن نذالته، وسمعه يغمغم: "رازمودين أيضاً ينفض يده منك، أنت وكتبك!".

لا، هذان الرجلان لم يأتيا إلى بيتي في هذه الساعة ليوسعاني ضرباً بسبب كتبي. لا بدّ أن شخصاً ما وشى بي بخصوص مقتل العجوز. قُضيَ الأمر. المرأة ذات الشادور الأزرق السماوي. تلك هي. تخلّصتْ مني. أنا أيضاً سوف أعترف بكل شيء، كلّ شيء. سوف أشي بها كشريكة في الجريمة. لا يحقّ لها أن تعيش في سلام، من دون أن تشاطرني جريمتي وعقابي.

أما زلتُ نائماً؟

وهذا الصمت، الذي تخرقه من حين إلى آخر وشوشات، ووقع خُطى خافت، وأنين مكبوت... أفي حُلمي ألاحظه؟

افتحْ عينيك، تعرفْ.

فتح عينيه فجأةً. لكن نوراً شاحباً أعماه. أطبق جفونه ثم فتحها بهدوء. ما زال النور هو نفسه. أصغى. ما زالت الأصوات على حالها. إذاً، هذا ليس حُلماً؟

كلاّ. يمكنه أن يكون على يقين من ذلك. هذا النور الشاحب، هذه الجدران البيضاء، هذه الأصوات المكبوتة، تعطيه الانطباع بأنه في مستشفى... سوى أنه ليس راقداً على سرير أبيض. كان مستلقياً على أريكة جلدية قديمة، مع ذلك الثقب في الذاكرة الذي يحاول أن يسدّه بالصور والأصوات التي ترهقه: صور الرجلين اللذين عاقباه سَحْلاً في غرفته؛ باب "وزارة الإعلام والثقافة"؛ الحزمة الضوئية الباهرة التي سلّطها عليهم حارس أوقفهم؛ الرجلين اللذين يرافقانه مخفوراً وهم يصعدون درج المبنى؛ ألم عُرقوبه المبرِّح؛ رواق طويل مضاء بمصابيح ضعيفة، حيث ينعس شبان جرحى ممدّدون في رُكن منعزل، بينما يُدخن آخرون جلوساً على كراس أو على أرائك مُخلّعة؛ وفي مكان أبعد قليلاً يجلس أشخاص على الأرض حول سِماط وهم يأكلون خبزاً وجُبناً؛ وعلى مسافة منهم كان ثلاثة أو أربعة رجال

ينظّفون بنادق سوفياتية رديئة؛ وعجوز يتلو آيات قرانية؛ وآخر يطهو طعاماً على موقد مالئاً الغرفة بروائح الدهن والتوابل... تملّك رسول شعور غريب ومُقلق. خالَ أنه يعيش مشهداً سبق له أن عاشه، وظنّ أنه يجتاز، ويجتاز، بالطول والعرض هذا الرواق اللامتناهي تحت الأنظار المرتابة والمهدِّدة. أُغميَ عليه. واسودّ كلُّ شيء.

هوذا الآن هنا، جالس قُبالة رجل في منتهى الرصانة يقلّب، من وراء مكتب كبير، كُتبَه الروسية، ويتصفّح الأوراق المبثوثة طيَّها، وخلفه يقف الرجلان الملتحيان اللذان قاداه إلى هنا.

حين هَمَّ بالنهوض لفت انتباه الرجل الجالس وراء المكتب. كان هادئاً، يعتمر القبّعة الأفغانية التقليدية، ذا وجه مُستدقّ، وبشرة لوّحتها الشمس، ولحية حسنة التشذيب. كفَّ عنِ القراءة، وافترّ ثغره عن ابتسامة لطيفة وهو يسأل رسول: "أيها المواطن[1] من أين أنت؟".

"مواطن"، هي ذي كلمة مطمئنة، عبارة جميلة تكاد تكون منسية منذ أن اندلعت هذه الحرب بين الأخوة. اليوم، قِلّة هم الذين يطلقون صفة "مواطن" على مَن لا ينتمي إلى معسكرهم، لا تخشَ شيئاً إذاً!

في الواقع، ليس ثمة ما يُخشى. سوف أجلس براحة على الأريكة، وأجيب بكثير من الهدوء أنني من كابول!

ارتعشت شفتاه. لم يكن اسم المدينة مسقط رأسه سوى نفثة، صامتة، غير مسموعة. "لم أسمع"، قال الرجل وهو ينحني فوق المكتب.

أكان قد نَسي أن صوته مخنوق؟

---

١ في الأصل Watandâr بالفارسية: وطن دار (المترجم)

سعل من أعماق صدره لجلاء حنجرته. ما من نأمة دائماً.

اعتراه الذهول، وحاول أن يحرّك يديه، أن يومئ، أن يشير إلى تفّاحة آدم، أن يضغط عليها بعصبية على نحو يُفهم بأنه لا يستطيع أن يتكلّم. "هل أنت أخرس؟". كلاّ، أومأ. "هل تسمع؟". نعم. "هل أنت مريض؟". مـمـ... نعم.

استوى الرجل على أريكته، ورنا إلى رسول مرتاباً، ثم سأله: "من أي معسكر أنت؟".

لست من أي معسكر! نفث رسول، لكن الكلمات ظلّت حبيسة الحبال الصوتية، وراحت يداه تتحرّكان في كل اتجاه لتشكيل العبارة، بلا طائل. نهض الرجل من أريكته وناوله قلماً أخذه ليكتب: "لستُ من أي معسكر!". قرأ الرجل، ثم أمعن النظر مجدّداً في وجه رسول متسائلاً، بلا ريب، كيف يمكن العيش على هذه الأرض التي تمزّقها الحرب الأهلية، من دون الانتماء إلى أي معسكر! ثم سأله: "من أي قوميّة أنت؟". خربش رسول هذه العبارة: "مولود في كابول" لا غير. بدا على الرجل أنه غير مقتنع بهذا الجواب. "أين تعلّمت اللغة الروسية؟".

كتب رسول: "كنت طالباً في روسيا". قرأ الرجل جوابه بصوت مرتفع، وسأل: "ماذا كنت تدرس؟". "القانون" كتب رسول، ثم أضاف بعد شيءٍ من التردّد: "وقراءة هذا الملعون دوستويفسكي!". قرأ الرجل، وضحك، ثم سأله: "لماذا هذا الملعون دوستويفسكي؟". قام رسول بحركة تشي بالإعياء، وكشف عن قميصه الملطّخ بالدم. استأنف محادثه قائلاً: "هذان المواطنان أُمّيان، وهما يعتقدان أن كل

كتاب روسي هو بالضرورة للدعاية الشيوعية".

حسناً، يا رسول، لقد نجوت. يجب عدم تفويت هذه الفرصة لمعرفة المزيد عن سبب اعتقالك. لكن من أين تبدأ؟ هل يعرف دوستويفسكي؟

كتب، والآخر أجاب: "نعم، عندما كنتُ طالباً قرأت هذه الكتب، بالفارسية طبعاً. كنت طالباً في معهد البوليتكنيك. لكن بعد مظاهرات عام ١٩٨١ ضد الغزو السوفياتي تركت الدراسة وانضممت إلى المجاهدين. وأنت، هل كنت عضواً في... الكومسومول[١]؟" إنه ماكِر، أمكر ممّا تظنّ. لا يتساهل مع شاب كابوليّ مثلك يريد أن يستجوبه. لا تلعبْ معه. في هذه الآونة، حياتك بين يديه. يمكن أن يسحقك بنفخة. لا تكن متعجرفاً. اعرض حياتك ببساطة وتواضع: أمضيت بضع سنوات في روسيا، في لينينغراد... لا، يجب أن تقول سان بطرسبورغ. تكلّم عن مغامراتك المزعجة، عن نزاعك مع أبيك الشيوعي الذي أرسلك إلى الاتحاد السوفياتي للدراسة رغماً عنك. لم تبقَ هناك إلا ثلاث سنوات، من ١٩٨٦ إلى ١٩٨٩. تعرَّفت هناك إلى فتاة كانت تدعوك كوسّينكا، يا كتكوتي. لا، دعْ عنك هذه القصة الغرامية مع فتاة روسيّة، لا ينبغي لهذا المجاهد أن يُحبّذ هذا النوع من المغامرات مع فتاة كافرة[٢]. اكتبْ ببساطة أنك تعرّفت إلى مختص بأدب دوستويفسكي قدّم إليك هذا الكتاب الأول **الجريمة والعقاب**،

١ Komsomol: منظمة الشبيبة الشيوعية التابعة للحزب الشيوعي السوفياتي (المترجم).

٢ هكذا في الأصل: Kafir (المترجم).

الذي قلب حياتك رأساً على عقِب. وأنك أهملتَ كلّ ما عدا ذلك...

آه، كلاّ! هذا شيء تطول كتابته. يجب أن تكون دقيقاً، ومُقتضباً.

انكبَّ على تلخيص حياته، لكن ما إن كتب الجملة الأولى حتى أوقفه صوت الرجل القوي الرنّان والمتأنّي. قرأ إحدى الأوراق المخطوطة – مقتطفات من **الجريمة والعقاب** كان رسول قد ترجمها –، ثم توقّف ليقول إنه قرأ منذ زمنٍ بعيد رواية **الشياطين**، وليس هذا الكتاب. وثب رسول باحثاً بين أوراقه عن الترجمة التي وضعها لما جاء على الغلاف الرابع لـ **الجريمة والعقاب**. عثر عليها وناوله إيّاها. أخذها الرجل وقرأها بصوت خافت: "الحدث الذي تقوم عليه الرواية هو مقتل العجوز المرابية، في مبنى بسان بطرسبورغ، على يد الطالب راسكولنيكوف: إن تفكير البطل في الدافع إلى ارتكاب الجريمة، وتأثير صونيا أو قوة داخلية غامضة، يدفعانه إلى أن يشي بنفسه، ويصبح عُرضة لعقاب ارتضاه طوعاً. وخلال السنوات التي قضاها في سجن الأشغال الشاقّة تكشّف له حبّه لصونيا، وطريق الخلاص". هزّ رأسه تعبيراً عن إعجابه، ثم فكّر بصوتٍ مرتفع: "هذه عِبرة حسنة جداً للمجرمين". عضّ رسول شفتيه، هاتين الشفتين اللتين تتحرّكان عبثاً للنطق بألف كلمة وكلمة بخصوص هذا الكتاب. كان يودّ أن يعرض للمرة الواحدة بعد الألف الدوافع إلى هذا القتل: لم يكن ذلك بدافع السرقة وحدها، فالمرابية، في نظر راسكولنيكوف، بهيمة مؤذية تسرق مال البؤساء، وما قتلُها إلاّ عينُ العدالة. وإذ يُتمّ راسكولنيكوف صنيعه فإنما يؤكد انتماءه إلى جنس الأرواح السامية الموجودة في "ما يتعدّى الخير

والشرّ"؛ وعنده أن جريمته هي الانتهاك الأعظم للقانون الأخلاقي والاجتماعي، وتدلّ على الاستقلال والحريّة... مثل جميع رجالات التاريخ العِظام، مثل محمّد ونابليون أو... يا للخسارة!

"... لا بد أن يكون هذا الكتاب مثيراً للاهتمام. هذه قصّة صوفيّة"، عقّب الرجل برصانة واستمرّ رسول في لعن صوته المفقود، وعجزه عن القول إن دوستويفسكي ليس كاتباً ثورياً شيوعياً، ولكنه صوفي. كان هو قد أبدى هذا الرأي مراراً إلا أن أساتذته الروس لم يقرّوا بذلك؛ كانوا لا يحبّون هذا النوع من التحليلات الشرقية. فضلاً عن أنهم لم يحبّوا دوستويفسكي البتّة. ولم يحظَ في روسيا بأي تقدير من قِبل الشيوعيين، فمن المحال عندهم القبول بأن فكر دوستويفسكي يتجاوز علم النفس الإنساني إلى ما وراء النفس... هذا الكتاب جدير بأن يُقرأ في أفغانستان، البلد الذي كان صوفياً في ما مضى، والذي فقد الإحساس بالمسؤولية. كان رسول مقتنعاً بأن تدريس فكر دوستويفسكي لو تمّ هنا لما شهدت البلاد هذا القدر من الجرائم.

يا لها من روح ساذجة!

إنسَ دوستويفسكي، أُنفذْ بجلدك، أصْغِ لهذا الرجل الذي يطلب إليك: "حالما تستعيد صوتك تعال إليَّ لنتباحث في هذا كله بهدوء". اتفقنا، أومأ رسول برأسه من غير اقتناع تامّ.

"رجالي لن يزعجوك" قال له الرجل وهو يجمع الكتب، ثم نظر إلى رسول مستطلعاً، وقد خطر على باله أمر ثانوي، "ثمة شيء يحيّرني بخصوصك". ماذا؟ "قال لي جانو إنك أردت الفرار عندما وصلوا. لماذا؟". كلاّ، لم يردِ الفرار، صَدِّق. كان تحت تأثير

كابوس. وكان الباب مغلقاً والنوافذ مقفلة، ولم يتمكن من فتحها. انظر إلى يديه، لقد جُرحتا.

ولكن من يصدّق أنّ كسر نافذة أمرٌ ممكن في كابوس!

تأمّل الرجل يدي رسول الممدودتين نحوه. وبدا متأسفاً وهو يقول: "يجب فرض النظام في هذا الحيّ. لكنّ الأمر صعب، ولا يكفي تجريد السكان من السلاح. تأخذ أسلحتهم فيأخذون سكاكين وفؤوساً. أمس، قُتل أحدهم بالفأس، في وضح النهار". قضِيَ الأمر، اكتشفوا جسد نانا عليا. وهاأنذا، أنا القاتل، جالس أمام المسؤول عن أمن المدينة.

شحب وجهُ رسول. استرخى في الأريكة. "ماذا جرى يا مواطن؟". نظر رسول إلى الرجل مرتبكاً وشفتاه ترتجفان. "تبدو متعباً. خُذْ كتبك وعُدْ إلى بيتك. سوف نلتقي في يوم آخر ونتناقش". غمز له بعينه، وتناول بندقيته وذهب لإيقاظ جانو ورفيقه. "هيّا يا رجال، أعيدا هذا الشاب إلى بيته". ثم توجّه نحو رسول وسأله: "ما اسمك؟" كتب رسول اسمه. "نحن بحاجة، يا رسول، إلى أناس مثقّفين أمثالك؛ أعني لخدمة الوطن والإسلام. عُدْ غداً لتسجّل اسمك وساعدنا على جعل الحيّ آمناً. أنت ابن هذه المحلّة. تعرف سلوك كل مَن هنا وماضيه. وتعلم مَن يسكن في كل بيت وما فيه..." ابتسم بأدبٍ جمّ فيما كان يتّجه نحو الباب، ثم التفت مجدداً نحو رسول: "تعالَ واطلبْ برويز، هذا هو اسمي"، وغادر. الثعلب! عليه أن يعرف كلّ شيء. لكن ماذا يريد مني؟

"هيّا يا رسولفسكي، تحرّكْ!" أمره جانو مغالباً نُعاسه. لبث رسول ساكناً. "ألا تريد أن تعود إلى بيتك؟".

قبل أن يدخل رسول إلى باحة المنزل لم يكن يرجو إلاّ أمرين لا ثالث لهما: الأول، ألاّ يرى دماء تحت الشجرة - ما زال مرتاباً في كابوسه -؛ والثاني ألاّ يرى يرموحمد - لا يريد أن يلوّث يديه بدم الرجل الذي يمقته، لأن الموت معروفٌ يُسْدَى إلى هذا الصنف من الأشخاص. يجب أن أتسلّل إلى حياته، أن أتسلّط على ذهنه، أن أمتلك أحلامه، وأغدو قدره.

دخل على هذه الحال؛ متأبّطاً كتبه. اقترب في كنف الليل الشاحب من الشجرة وتحسَّس جذعَها بيده. تفقّد الأرض تحت الشجرة. لا أثر للدم. نهض وألقى نظرة على نافذة غرفته. كان الزجاج محطماً فعلاً. دار نحو نافذة يرموحمد، وبعد برهة من التردّد اقترب منها لكي يصرخ معلناً عودته، سليماً لم يمسّه أذى. غير أن صرخته ظلت حبيسة حنجرته، عندئذ قرع النافذة. برز رأس يرموحمد الحليق في الظُليل. كان شاحب الوجه، قلقاً من إيقاظ زوجته وابنتيه، وطلب من رسول أن يهدأ. بلا طائل. استمر رسول في القرع على الزجاج. ثم لوّح بكتبه رافعاً ذراعه ومشيراً بيده إشارة مهينة تمسّ شرف الرجل. ثم أدار له ظهره وسلك طريق الغرفة مرتاحاً، ظافراً.

اذهبْ يا يرموحمد، نَم الآن، لك الكوابيس كلها! سوف أطاردك في أحلامك.

حالما دخل غرفته رغب في أن يصرخ بأعلى صوته. أن يصرخ

من الفرح، أو من الرعب. زفر بشدّة مخرجاً نفساً طويلاً، حارقاً، لكنه بلا فرح ولا رعب.

بلّل ظهره عرقٌ بارد. رمى الكتب على الأرض، وأضاء شمعة. كانت النافذة المكسورة أكثر ما يُحيّره، ما زال لا يفهم كيف أمكنه أن يكسرها في منامه!

هل أصبحت مجنوناً؟ ألا يقال إن أولى علامات الجنون تظهر عندما يتجاوز الكابوس النوم ليدخل في اليقظة ويمكث بها.

خلع حذاءه واستلقى على السرير قانطاً. خشي أن يغمض عينيه، خاف من كوابيسه. نعم، أبالِسة السرير، أشباح الليل هؤلاء، هم الذين سرقوا صوتي، وأفقدوني عقلي. لن أنام بعد الآن!

غير أن التعب كان أقوى من إرادته. أغمض له عينيه، ودفعه في هاوية الظلمات. ولم يخرج منها إلا بانفجار صاروخ سقط في مكان غير بعيد. انتفض. جلس وهو يتصبّب عرقاً. ما زال لسانه جافاً، وصدره ملتهباً.

خيَّم الصمتُ مُجدّداً.

ابتلع الجبلُ القمر.

استهلك الليلُ الشمعة.

خدَّر الظُلَيلُ الغرفة.

نهض رسول. أثبت على عقب الشمعة الذائبة شمعةً أخرى، وشرب ماءً، ثم رجع إلى سريره. ما عاد يرغب في الاستلقاء. بقي جالساً، مستنداً إلى الجدار. ما العمل؟ اقرأ كتاباً. انحنى وتناول كتاباً كيفما اتفق، لكنه ألقاه فوراً، وبحث عن الجزء الأول من **الجريمة والعقاب**، فلمّا وجده

فتحه على الصفحة التي يتحدّث فيها الكاتب عن عودة راسكولنيكوف إلى غرفته بعد أن قتل المرابية... ظل وقتاً طويلاً راقداً على هذا النحو. وحدث أن كان يراوده الشعور بأنه يستيقظ وفي تلك الآونة يلاحظ أن الليل قد هبط منذ مدّة طويلة، وعلى ذلك لا يخطر له أن ينهض. وأخيراً يلاحظ أن الضوء يسطع كما لو أنه في وضح النهار. تمدّد بطوله على الديوان، وما زال مخبولاً بهذا الشرود الذي انتابه. أصمّته زعقات، يائسة، رهيبة، مصدرها الشارع، زعقات كان مع ذلك يسمعها تحت نافذته حوالي الساعة الثانية، وهي التي توقظه في الوقت الحاضر. "آه، هؤلاء هم السكارى الذين يخرجون من الحانات في الساعة الثانية" قال في نفسه – وفجأةً وثب، كما لو أن أحداً انتزعه من الديوان. "كيف! الساعة الثانية!". جلس على الديوان – وعندها تذكر كل شيء! فجأةً. في لحظة، تذكّر كل شيء!

للوهلة الأولى، ظنّ أنه سيفقد عقله وسرى في جسده برد رهيب؛ لكن... هذا البرد لا يأتي من الخارج. كلاّ، الطقس ليس بارداً البتّة. الأحرى أنها برودة، برودة غريبة تنطلق من الداخل، تنبعث من الغرفة، من جدرانها الباهتة، ومن عوارضها المسودّة والمتعفّنة...

نهض واتّجه نحو النافذة ففتحها. في الخارج كان الجوّ رائعاً. انتعل حذاءه وغادر الغرفة مسرعاً. هبط السلّم، وعبَر الباحة متجنّباً الالتقاء بالمالك، فألفى نفسه في الشارع. مضى قاصداً النهر بجسم خفيف نشط وقلب عامر بالبهجة. وفي كل مكان كانت جموع من النساء، والرجال، والشبّان، والموسيقيين، يتسكّعون تحت شمس الأصيل. هام على وجهه وسط المارّة على ضفّة النهر. لم يلحظه أحد. ولم ينظر

إليه أحد بعين الريبة. ومع ذلك كان من غير الممكن ألاّ يفطن إليه أحد وهو في هذه الثياب البالية والملطّخة بالدم. ويا لها من سعادة ألا تلحظه العيون ولا تدركه الحواس. وفيما كان مأخوذاً بنشوة كونه لامرئيّاً، ميّز على نحو مفاجئ وسط الحشد امرأةً ملتفّة بشادور أزرق سماوي. ماذا تفعل هنا في سان بطرسبورغ؟ مرّت بأقصى سرعة في مُحاذاته. نظر إليها ذاهلاً، ولاحظ أن مشيتها مألوفة له. ثم اختفت وسط الحشد. أخيراً ثاب إلى رشده وانطلق مسرعاً. لمح المرأة ذات الشادور وهي تجتاز مفترق طرُق مزدحم. ركض قاطعاً مسافةً طويلة من دون توقّف إلى أن تمكّن من مدّ يده والإمساك بالمرأة. ثم انتزع شادورها. بدت المرأة عارية. تملّكها الرعب فتكوّرت على نفسها لتستر جسدها ووجهها ولتخفي أيضاً الشيء الذي تحمله بين يديها. ثم رفعت رأسها ببطء. إنها صوفيا. كانت تضمّ بين ركبتيها علبة مجوهرات نانا عليا. تأمّلها رسول مندهشاً وتمتم بشيء غير مسموع. ثم أغمض عينيه وارتمى عند قدميها ليصرخ وليشكر صوفيا. شعر بأنه أُنقذ. لقد أنقذته. غير أن يداً هزّته: "رسول! رسول!" هذا ليس صوت صوفيا. هذا صوت رجل. صوت مألوف. هذا رازمودين، قريبه. ولكن أين هو؟ هنا، أمامك، في غرفتك. افتحْ عينيك! استفاق رسول بمشقّة واستوى جالساً مسقطاً كتاب **الجريمة والعقاب** الذي كان على صدره. رازمودين؟ حرّك اسمُ قريبه شفتيه وضاع بينهما. تنَحْنح متظاهراً بأنه يقول "سلام"[١]. كان رازمودين جاثياً قربه وينظر إليه قلقاً: "أنت على ما يُرام يا قريبي؟" فتح رسول عينيه على وسعهما ثم أغمضهما في الحال، حالماً. "ماذا جرى؟

١ هكذا في الأصل Salam (المترجم).

أنت بخير؟" ألحف رازمودين في السؤال. أومأ رسول برأسه إيجاباً واستوى جالساً وعينه على النافذة المكسورة. كان النهار قد بزغ لكن الشمس ما زالت سوداء، سوداء خلف ستار الدخان. "أتريد أن آخذك إلى طبيب؟". كلاّ، لا بأس، ردّ عليه رسول إيماءً. "نعم، هذا بَيِّن. قُلْ لي ما الذي حدث؟" بان القلق على مُحيّا رازمودين وهو يُمعن النظر في قميص رسول "ما هذا الدم؟ هل أوسعوك ضرباً؟".

فكّر رسول لحظةً ثم استوى جالساً ليلقي نظرة خاطفة على الباحة حيث لمح يرموحمد الذي كان يراقبه. أشار إليه أن يصعد إلى غرفته. لكن يرموحمد انسحب عائداً إلى منزله. "دَعْه! حضر إلى مكتبي فجراً ليروي لي كل ما حدث. كان شاحباً، وقال لي إنه لم يكن هو... وهذا صحيح. في هذه الأيام تطوف الدوريات في كل مكان، خصوصاً في هذا الحيّ... أنت لا تعرف شيئاً عمّا يحدث في البلاد حالياً. ولمّا كنتَ متوارياً، لا أدري في أي عالم، فأنت لا تهتمّ...". كفى، يا رازمودين، أرجوك! انظرْ ما صنعوا به.

كفَّ رازمودين، لا لينظر إلى ما ألمّ برسول، وإنما ليسمع تفسيره لما حدث. انتظر برهة. لم يسمع كلمة. دُهش. شمّر رسول كُمَّيه ليريه آثار ما ناله من الضرب. "أي أولاد قحبة! لكنك مجنون أنت أيضاً. لماذا احتفظت بكل هذه الكتب الروسية في مثل هذه الأوقات؟". عاود رسول ألم عرقوبه. شحُب وجهه وعاد إلى سريره ليدلّك قدمه. رازه قريبة بالنظر: "دوستويفسكي! دوستويفسكي! لكم تورّط نفسك في المشاكل بسبب صاحبك دوستويفسكي! كيف تريدهم أن يعرفوا دوستويفسكي؟".

ليسوا كلّهم أمّيين مثلك، يا رازمودين! القائد برويز، الذي ينبغي أن تكون قد سمعت باسمه، هو، يعرف دوستويفسكي. جنوده يرابطون هناك، قُبالة فندقك، في وزارة الإعلام والثقافة. لكن لا يمكنني أن أحدّثك عنه في حالتي الراهنة.

اكتبْ له عنه!

ما جدوى ذلك؟ أنا أهدأ بالاً هكذا، من دون كلمات، من دون محادثات لا تنتهي. سأدعه في حيرة حيال صمتي.

"قال لي يرموحمد إنهم اقتادوك إلى مركز القائد برويز. أعرفه". هكذا إذن، أنت على حق. "إبّان مظاهرات العام ١٩٧٩ دخلنا السجن معاً. أنت ميمون لوقوعك بين يديه. هل حدّثته عني؟" هزّ رسول رأسه نافياً، ثم نهض ليكمن مجدداً خلف النافذة. كان يرموحمد يعود في هذه الأثناء إلى الباحة. ومرّةً أخرى أشار إليه رسول أن يصعد. "إنْسَه، انتهى الأمر. أعطيته الإيجار المتأخّر عن الشهرين". بدا رسول منزعجاً من كرم قريبه، وعاد بخطى وئيدة إلى سريره وحاول أن يقول له بكثير من الحركات والإيماءات أنْ ما كان ينبغي له أن يفعل، وكان بوسعه هو شخصياً أن يدفع... وهي الكلمات ذاتها التي ابتدره بها في المرّة السابقة، عندما دفع رازمودين عنه إيجار ثلاثة أشهر.

"كان بوسعك أن تدفع بماذا؟! ما عدتَ تهتمّ بشيء. انظر في أيّ حالة أنت. يخال من يراك أنك متسوّل، أو مجنون هارب من مستشفى المجانين!" كان ليقول رازمودين.

إذاً، لا حاجة برسول إلى أن يُجهد نفسه للإفصاح عن مُراده.

لكن رازمودين يأمل مع ذلك أن يستمع إلى رسول، ولا يفهم لِمَ يتجنّب الكلام معه. نظر إليه مستطلعاً عندما نهض وأخذ يفتش في كومة من الغسيل عن قميص نظيف، غير أنها كانت متّسخة ومدعوكة كلها، وكان رسول يعرف ذلك لكنه يتظاهر بالبحث، لا حرصاً منه على إجابة رازمودين، بل لأنه لا يريد إخباره بأنه فقد صوته. هما قريبان، وبينهما معرفة وطيدة، ويفهم كل منهما ما يريد أن يقوله الآخر وإن صمتا، وعلى الرغم من ذلك كان رازمودين مصرّاً، شأنه دائماً: "رسول، يجب أن تفعل شيئاً. حتّام تستمرّ في العيش على هذه الشاكلة؟ لو كنت، مثلك، أتكلّم عدّة لغات لجمعت ثروة طائلة. هؤلاء الصحافيون الأجانب وهذه المنظمات الإنسانية يحتاجون جميعاً إلى مترجمين. كل يوم يسألونني مئات المرّات إن كنت أعرف من يتكلم الإنكليزية ولو بصورة بدائية. ولكن كيف أجرؤ على إعطائهم اسمك مرّة أخرى. سبق لك أن مرّغت سمعتي في الوحل، وأكثر من عشر مرّات ندمت على ترشيحك". وكالعادة، سوف يسامحه مرّة أخرى: "إذا أردت، يمكنني أن أنسى الماضي وأقدّمك مجدّداً. لكن، يا قريبي، أتوسّل إليك، لا تتحامل على الصحافيين بعد الآن. ما الذي يهمّك إن عملوا لهذا أو ذاك، ولماذا يدافع أحدهم عن هذا الفريق أو ذاك. خذ الدولارات، وليذهبوا هم وأفكارهم ومواقفهم السياسية إلى حيث...". لكنه لم ينتظر هذه المرة أن يضجره رسول بتكرار شعاره: "أفضّل الجريمة على الخيانة"، وأردف قائلاً: "من السهل أن تقول إنك تفضّل الجريمة على الخيانة. لماذا، إذن، لا تحمل سلاحاً؟ أنت مثل النعامة: إذا طُلب منك أن تطير قلتَ إنك جمل، وإذا طُلب

منك أن تجرّ العربة قلت إنك طائر. لقد تخلّيتَ عن أهلك، ونسيت أختك وأصدقاءك. إن كنت تريد أن تفقد عقلك تماماً استمرّ على ما أنت عليه. هل تعرف، على الأقل، ماذا تريد في الحياة؟"، استبدّ به الغضب، فنهض وتناول من جيبه سيجارة وأشعلها. أما رسول، وإن كان مغتاظاً من هذه المآخذ المتواترة، فكان مستمرّاً في التظاهر بأنه يبحث عن قميص، فيما يومئ برأسه علامة الموافقة، ويحرّك يده في الهواء لإفهام رازمودين أنه يعرف تتمة ما يقول: "أُقسِم لك، أنك تغيّرت، لم تعد أنت نفسك. تريد صوفيا، ستنالها. لكن ماذا تفعل بها الآن؟ أتريد أن تُهيِّئ لها مصيراً كمصيرك؟ يا قريبي، لقد كبرنا معاً، ونعرف بعضنا جيداً، وأنت بمنزلة أخي. لقد علّمتني كل شيء..." ما تبقّى سكت عنه رازمودين، لأنه أسمعه، منذ بضعة أسابيع، الخطاب ذاته، أو ما يقاربه، ولأن رسول ردّ عليه رداً جافياً: ما عدا شيئاً واحداً.

– ما هو؟

– كراهية الوعظ.

– ما كان ذلك وعظاً. لقد مددتُ إليك مرآة.

– مرآة؟ كلاّ، هذا قعر زجاجة ليس عليها غير صورتك التي تمدّها نحو الآخرين لتقول: "كونوا مثلي!"

خيرٌ لك أن تصمت يا رازمودين. أتظنّ أنني لا أعبأ بما تقوله لي. لحسن الحظ أنك لا تعرف أنني محكوم بالصمت، وإلا لأكملتَ. ولنفّست ما بقلبك من غمّ بما كِلْتَه لي من شتائم في المرّة الماضية، من دون أن تصغي إلى ما كنت أقول من أنني لا أريد إحسانك، ولا أحِبّ سوق عواطفك الإنسانية البالية، وأمقتُ هؤلاء الكرماء الذين

ينتظرون أن يتحدّث الناس عن كرمهم، وأكره كل تلك العُقبان التي تحوم فوق جثثنا، وهذا الذباب الذي يطنّ حول دُبُر بقرة نافقة. نعم، أبغض كل ما هنالك الآن، أبغض نفسي، وأبغضك يا قريبي، يا صديق الطفولة؛ أنت الذي تنظر في عيني مباشرةً، وتنتظر بضع كلمات مني. آه، كلاّ، لن تسمع شيئاً مني بعد الآن. لعلّك فسّرت صمتي على أنه لامبالاة مني تجاهك، أو كتسليم مني بمآخذك عليّ.

فسّره كما تشاء. ما الذي يمكن أن يغيّره هذا في العالم؟ فيَّ؟ لا شيء. إذاً، دعني وشأني.

بعد هذا الصمت المديد، أعاد رازمودين الكرَّة: "الآن، ما عدت تريد أن تكلّمني؟ انتهى الكلام؟". كفّ رسول عن البحث في غسيله، وكان يهزّ كتفيه ليفيد أن لم يعد لديه ما يقوله. نهض رازمودين خائب الرجاء وقال: "فقدت عقلك بوجه خاص يا رسول. إن لم تعد ترغب في رؤيتي، والاستماع إليّ، انصرفت..."، واتجه نحو باب الخروج، "إن كنت قد دفعت الإيجار فما ذلك إلا لإنقاذ شرف العائلة، وكفى!". غادر.

لبث رسول ذاهلاً، مُتجهِّماً. ثم اندفع فجأةً نحو النافذة ليصرخ.

ما عدتُ أستطيع حتى أن أصرخ مُعلناً بأسي، ولا حقدي، ولا غيظي...

إذاً، اصرخْ معلناً الأمل، والفرح، والصفاء، لعلّ ذلك يساعدك على استعادة صوتك.

أين يجب أن أبحث عنها؟

هناك حيث أضعتَها.

وقف أمام مرآة صغيرة معلّقة على الجدار وراح يتأمّل وجهه في حقدٍ وغضب. داعب لحيته، ثمّ بلّل وجنتيه بالقطرات الأخيرة المتبقّية في الإبريق، وتناول آلة الحلاقة. كانت الشفرة مُستهلَكة غير صالحة، لكنه أعملها على بشرته بإلحاح وقوّة فخدشت الشفرة جلده، وسال الدم. لم يهتمّ ومضى في الحلاقة وقد استشاط غضباً ممرّراً الشفرة، ومعيداً تمريرها، على ذقنه، وما دون ذقنه... أقبلت ذبابة وأخذت تحوم فوق جراحه. طردها. وعادت، لتذوق دمه. أبعدها رسول ثانيةً بحركة عنيفة لكن الموسى انزلقت على خدّه. وكان جُرحٌ آخر. لم يُبالِ، وتابع الحلاقة بعصبيّة متزايدة كما لو أنه يريد أن يسلخ جلده.

خفّف وقعُ أقدام على السلالم من سرعة حركاته. وقُرِعَ الباب. بعد تلكّؤٍ وجيز مصحوب بالصمت والسكون فتح رسول الباب، من دون أن ينظّف وجهه الملطّخ بالدم. طالعته امرأة في شادور أزرق سماوي، ما إن رأته حتى ندّتْ عنها صرخة مكبوتة، وارتدّت إلى الوراء. خلعت حجابها. واستدارت عيناها البريئتان في محجريهما هلعاً. "رسول، ما الذي أصابك؟". مرّر يده على وجهه، وتحرّكت شفتاه ليقول إنها الشفرة الرديئة... حركات لم تستطع تأويلها. "ماذا حدث؟". لا شيء، أومأ رسول، قانطاً. "مساء البارحة انتظرناك حتى وقت متأخّر، لِمَ لمْ تأتِ؟ قلقت عليك أمي أشدّ القلق. لم يغمض لها جفن طول الليلة". أفينبغي لي أن أُفهمها أني فقدت صوتي؟ نعم، لِمَ

لا. مَن سواها يمكن أن تكون نجيّي؟

تراجع في الغرفة مفسحاً المجال لصوفيا كي تدخل. وانهمك هو في البحث عن قلم وورقة. غير أنها، بعد أن ألقت نظرة على ابنتي يرموحمد اللتين كانتا تراقبانهما، آثرت البقاء على العتبة. "لا أريد إزعاجك. جئت أبحث عنك للذهاب..." لم تكمل عبارتها وقد أربكتها رؤية رسول المنهمك في البحث بين كتبه. وبعد هنيهة من الصمت والتردّد أسدلت شادورها على وجهها وانصرفت، تاركةً رسول منشغلاً في الغرفة بالبحث عمّا يكتب عليه وبه كلماته الصامتة، وفي حُلمه حيث طاردها في شوارع سان بطرسبورغ. وماذا لو أن المرأة في الشادور الأزرق السماوي كانت هي حقاً؟ سؤال سخيف جعله ينتفض ويهرع إلى الباحة. غير أن صوفيا كانت قد أصبحت في الشارع. بعد أن غسل رسول وجهه بماء الحنفية عاد إلى غرفته، حيث بدّل ملابسه، ثم خرج حاثّاً الخطى في إثر صوفيا.

حقاً إنها فكرة عبثيّة! لو كانت هي صوفيا لعرفت صوتها.

صوتها؟

توقّفَ.

لا تقلْ إنك لم تعرفه!

طبعاً، عرفته، لكنني لا أستطيع أن أتذكّر نغمة صوتها عندما تصرخ. في الواقع، ما سمعتها تصرخ قط، أو ترفع صوتها. ومشيتُها؟ وطريقتها في الركض؟

تتنقّل صوفيا كالسمكة. كتفاها، مثل زِعْنفَتَين، أو جناحي سمكة، تتحركان إلى الأمام وإلى الخلف. نعم، لكن، قديماً، كانت تتميّز

بهذه الطريقة الخاصة في التحرّك قبل أن ترتدي الشادور. كل النساء يمشَيْن بالطريقة ذاتها تحت غطاء الشادور، لا؟

بلى.

كان الشك والتردّد يزيدان من سرعة خطوات رسول العارجة التي تقوده نحو منزل صوفيا. ولمّا كان مستثاراً على نحوٍ غريب، كان غير قادر على إقناع نفسه بأن فتاة على هذا القدر من الحياء والبراءة لا يمكنها أن تتورّط في مغامرة بمثل هذه الخطورة.

بينما كان يركض بين المارّة المغمورين بسحابة من دخانٍ أسود هبطت على المدينة، حطّت يد على كتفه، ولجمت اندفاعه. "رسولفسكي"، كان هذا صوت جانو، من خلفه. وإذ لاحظ الجروح على وجه رسول سأله: "نحن من أحدثها؟". كلاّ، إنها الشفرة، أومأ رسول مقلّداً فعلَ الحلاقة. شفرة القدر، كان ليقول لولا أن فقدَ صوته. ولأجابه جانو بلا ريب: "يا لك من محظوظ! تعلمُ على الأقلّ أنّ لك قدراً". قدر؟ يؤثر رسول ألاّ يكون له قدر على الإطلاق.

"والصوت؟".

لا صوت دائماً.

بعد أن سارا بضع خطوات صامتين، سأل جانو: "إذاً، تريد أن تلتحق بالقائد برويز؟ سوف تحصل على كلاشينكوف ظريف!... هل تعرف كيف تطلق الرصاص؟". كلاّ. "في يوم واحد سوف تتعلّم كلّ شيء. من جهة ثانية..."، اقترب من رسول، "ستجد الرصاصة هدفها بنفسها" همس له ضاحكاً ضحكة قصيرة ومجاملة، تلتها

نظرة خاطفة إلى كلاشينكوفه المخفيّ تحت شملته.

سارا خطوات أخرى، من دون كلمة، وهما يفكّران - رسول في شفرة قدره البطيئة، وجانو في أهداف رصاصاته الطائشة - إلى أن توقفا أمام شاي خانه حيث دعا الجندي الشاب رسول إلى احتساء كوب من الشاي معه. لمَ لا؟ هو يشتهي أن يشرب ويأكل، ويرغب خصوصاً في التعرّف إلى جماعة برويز، ومعرفة ما إذا كانوا قد اكتشفوا جثة نانا عليا أم لا. وأخيراً هناك ألف سبب وسبب لاصطحابه واكتشاف السرّ بدلاً من لقاء صوفيا.

في الداخل، جلسا مباشرةً أسفل نافذة، قرب ثلاثة رجال مسلّحين أنهوا ما كانوا فيه من حديث حالما وصلا، وأخذوا يتفرّسون فيهما.

طلب جانو شاياً وخبزاً. وسأل رسول فجأةً: "صاحب المنزل حيث تقيم... هل تعرفه جيّداً؟". نعم، أومأ أسفاً. "مساء أمس، عندما دخلنا البيت للتفتيش، سارع إلى إخبارنا أنّ في المنزل شيوعياً سابقاً، غريب الأطوار، لا يدفع الإيجار...". منعه صمتُ رسول الدائم من المتابعة. ألقى نظرة على جيرانه الذين ما زالوا يتأمّلونهما. وبدا منزعجاً وهو يبتلع جُرعة صافِرة من الشاي، وأردف قائلاً: "لديك شفرة تخدش وجهك. شفرتنا، الأشدّ مضاءً، تجرح روحنا!" ودسّ في فمه قطعة كبيرة من الخبز: "لم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة من العمر عندما اندلعت الحرب. وضع أبي بندقية على كتفي وأرسلني للجهاد[1] ضد الجيش الأحمر. بعد كلّ ما رأيتهُ... لو كنتَ في مكاني لما تمكّنت من سماع كلمة روسية واحدة، يا فتاي. أحرقوا قريتنا.

[1] هكذا في الأصل djihad (المترجم).

وعثرت على أجساد أفراد عائلتي متفحّمة تماماً. تبنّاني القائد برويز، وألهمني القوّة والشجاعة في القتال انتقاماً لعائلتي. آنذاك، حين كنا نبكي موتانا، وقرانا المدمّرة، وأخواتنا المنتهكات أعراضهنّ... كنت أنت ترتع في أحضان الفتيات الشقر، والبيض، الوديعات والحَرِكات كالأسماك... لا؟" ابتلع جرعة أخرى حارقة من الشاي. "لم تفكّر في مجيء يوم يستولي فيه أمثالنا من الجوعى والمشرّدين على السلطة..." ازدرد رسول الخبز وكلمات جانو بمشقّة. كذلك لسع الشاي الساخن لسانه وحنجرته. أراد أن يجيب بأنّ حياته لم تكن هانئة وهادئة كما يظنّ جانو. ولعلّه يبدو ودوداً في نظر جانو إنْ روى حكاية نزاعه مع والده الشيوعي.

هذا غير ممكن. لسوف يأخذ عليه جانو المآخذ ذاتها التي سمعها من مجاهد آخر كان قد كلّمه منذ بعض الوقت، فكان أن صفعه بهذا الردّ: "هذا أيضاً من سوء تربيتك الروسية".

– ماذا تعني؟

– عدم احترام الأب، من التربية الروسية.

– لكنّي نبذت عقيدة أبي. كنت معادياً لغزو الروس بلادي.

– لو كنت ابناً صالحاً لاحترمته، وسلكت سبيله، وآمنت بمعتقداته.

– لكن ما هذا الكلام؟ كيف يمكن للمرء أن يتبع والداً هو مجرم حرب؟

– على المرء ألاّ يخون والده أبداً، نعم، حتّى وإن كان مجرم حرب.

– حتّى وإن كان كافراً[1]؟

صمت.

كان جانو يحتسي شايه، منتفخ الصدر. رمقه رسول قابضاً على غضبه بين يديه مع تلك الرغبة في تحطيم هذا الصدر المتخم بالعزّة الوقحة والمنحطّة، وفي تقويض هذا القفص المُفعَم بالقوّة الباطلة... لكن لماذا يا رسول؟ ماذا تعرف عنه؟ لم يقل شيئاً. دع هذا الفتى وشأنه. هو سعيد وفخور، ولا يعاني مثلك، والحمد لله. إبقَ ساكتاً! اشربْ شايك، وكُلْ خبزك، واذهب! عندما نهض، سأل أحد الرجال المسلّحين الثلاثة جانو: معذرةً، أيها الأخ، ألستَ جانو؟

– بلى.

دنا منه الرجل باسماً: ألم تعرفني؟ أنا مُومن من فصيلة القائد نوروز.

انتفض جانو واضعاً كوب الشاي من يده: بالتأكيد! كيف أنساك؟ لقد تغيّرتَ قليلاً. سَمِنتَ، أنت! مضت على ذلك خمس أو ستّ سنوات... ربّما أكثر؟

– ستّ سنوات.

ونهض، ليرتمي أحدهما في حضن الآخر، ويتعانقا بحرارة، ثم جلس الجميع في دائرة.

كانت تلك فرصة غير متوقّعة لرسول كي يهرب. وقف ومدّ يده إلى جانو مودّعاً. غير أن هذا ألحّ عليه ألاّ يذهب، ودعاه إلى احتساء كوب آخر من الشاي مع رفاقه القُدامى. "اجلسْ". والتفت نحو

[1] هكذا في الأصل Kafir. (المترجم)

الآخرين قائلاً: "هذا الأخ، أوسعناه ضرباً مساء أمس في أثناء قيامنا بدورية، واليوم نحتسي الشاي معاً. إن لم تكن هذه إرادة سلام فماذا تكون إذاً؟" ضحك هازئاً وهو يجذب رسول لكي يجلس.

وأذعن رسول.

طلبوا الشاي، ودخّنوا. وأقبل مُومِن على أصدقائه ليروي لهم: عمليتنا التي لا تنسى! منذ ستّ سنوات.

"نعم، منذ ستّ سنوات" أكّد جانو وقد بان عليه الحنين إلى الزمن الماضي، وتوجّه إلى رسول قائلاً: "كان الصيف قد حلّ. ذات مساء صيفيّ، كنّا على وشك الهجوم على مركز سوفياتي. وأبلغونا أن القائد برويز ينوي إدارة هذه العملية. لم تكن العلاقة على ما يُرام بين القائد نوروز وقائدنا برويز. ومع ذلك تقرّر أن نهاجم الروس معاً، على أن يكون لنا الأسرى ولهم ما نغنمه من الأسلحة..." قاطعه ضحكُ مومن، فابتلع جرعة من الشاي، وأردف قائلاً: "الخلاصة أننا قمنا بالهجوم تحت جنح الليل!" منعه من المتابعة ضحكه هو هذه المرة، فأكمل مومن الحكاية: "كان في فصيلتنا مجاهد يُدعى شيردل[1]. شجاع، ومسلم صالح، لكن لديه نقطة ضعف بسيطة حيال الغلمان! الأمر الذي استحقّ عليه لقب كيردل[2]". أثار ذلك عاصفة من الضحك شارك فيها الجميع. "وفيما كانت فصيلتنا تهاجم مستودع الأسلحة، بكثير من الحذر والصمت، وقع أخونا شيردل على جندي روسي شاب كان يتغوّط!..." أسكت ضحكهم الصاخب جميع الزبائن

---

١ Shirdel: كلمة فارسية تعني: قلب الأسد.

٢ Kirdel: كلمة فارسية تعني: قلب الذَكَر (القضيب).

في بيت الشاي. وأصغوا هم أيضاً. أما جانو فأغرب في الضحك حتى انهمرت دموعه. ومضى مومن قائلاً: "تصوّروا شيردلنا في مثل هذا الموقف. أخذ قلبه يخفق خفقاناً مسعوراً؛ ولم يدرِ ماذا يفعل؛ وارتجفت يده خشية أن يطلق أحد المجاهدين النار على هذا المخلوق الرائع، مع ردفَيْن أبيضَيْن أملسَيْن ولا أجمل! أخيراً، ألقى القبض عليه. ولمّا تكلّلت العملية بالنجاح اقتاده إلى القائد نَوروز الذي أمره بردّه إلى القائد بَرويز. ولكن لمن تقول هذا؟ وضع شيردَل على الفور يده في القيد مع يد الصبيّ ثم ابتلع المفتاح!".

تلوّى الجميع من الضحك. وضحك رسول أيضاً، ولكن في أعماقه. وعندما هدأت عاصفة الضحك بعض الهدوء أكمل جانو الحكاية: "أخذهما القائد برويز معه. وتباحث طويلاً مع شيردل، غير أنه أعاره أذناً صمّاء. وانتهى كل شيء في نظره، الجهاد، الصلاة... ومن الصباح حتى المساء، كانا يتنزّهان معاً، يداً بيد. شيردل يغنّي له، وهو يتعلّم لغتنا... وذات مساء اختفيا". وسأل مخاطباً مومن: ألم تروه أبداً من بعد؟

"كلاّ، أبداً" أجاب وهو يمسح دموعه: "يا لها من حِقبة!".

– فعلاً، يا لها من حقبة! حتى وإن كنا لا نتّفق فقد تصدّينا معاً للروس.

– أي نعم!

– انظروا ما يحدث اليوم، يقاتل بعضنا بعضاً. لماذا؟

– إسأل القائد نوروز!

– وأنت، اسأل قائدك برويز!

انقطعت الضحكات.

اجتاح الشاي خانه حقدٌ أصمّ.

نهض رسول. أشار خُلسةً إلى جانو - الذي حيّاه رافعاً يده - ولاذ بالفرار.

ما كاد يصل إلى نهاية الشارع حتى ترامى إلى سمعه دوي رصاصتين، أُطلقتا من مكان غير بعيد، فسرت فيه رعشة.

في الشاي خانه؟

ربّما.

توقّف، والتفت إلى الوراء.

فليتقاتلوا.

ومضى في طريقه إلى صوفيا.

قرع الباب وانتظر. ارتفع صوت أم صوفيا المتوجّس: "مَن هناك؟" ولمّا لم تسمع أي جواب ردّدت السؤال. "هذا رسول" صاح داوود، أخو صوفيا، مائلاً من على سطح المنزل.

فتحت الأمّ الباب. وقع نظرها على وجه رسول المخدّش والمشقّق: "ماذا حدث لك؟". لا شيء، جرحتُ وجهي وأنا أحلق هذا كل ما في الأمر. ودّ أن يجيب، من دون أن يتفلسف بخصوص شفرة القدر. عبّر عن حركة الحلاقة إيماءً واجتاز العتبة وسط شكاوى الأم: "كان عليك أن تأتي مساء البارحة. لم يغمض لي جفن ليلاً". هزّ رأسه وكأنه يقول إنه يعرف ذلك. مؤسف ألاّ يتمكن من الاعتذار.

ألقت الأم نظرة على الزقاق الفارغ باحثةً عن شخص ما. بدت مندهشة لرؤية رسول وحيداً وسألته: "أين صوفيا". ألمً ترجع إلى البيت؟ سألها بنظرة بليغة الدلالة. "أليست معك؟". كلاّ. أقلقتها حركة رأس رسول. اسكتشفت الزقاق مجدّداً ثم التفتت إليه، تاركةً الباب مفتوحاً على أمل أن ترى إبنتها عائدة. "كانت تريد أن تصطحبك إلى بيت نانا عليا لإجراء الحساب...". إلى بيت نانا عليا! استند إلى الجدار لئلا يهوي. "قالت لي إنك طلبت منها أن تقطع علاقتها بها. منذ يومين جاءت إلى هنا ابنتها نازيغول لكي تبلغني أنّ علينا أولاً أن ندفع الإيجار المتأخر إذا كانت صوفيا لا تريد الاستمرار في العمل لديها. البارحة انتظرناك طول النهار لنناقش الأمر معك.

ولمّا لم تأتِ ذهبت صوفيا إليها، لكن..." ذهبت إليها أمس أيضاً؟ "... نانا عليا لم تكن هناك" لم تكن هناك؟ وأين جئتها إذاً؟ "كانت صوفيا تريد أن تعود إليها ثانيةً اليوم. وطلبت منها أن تذهب معك". معي؟ "ألم تكن في بيتك؟".

بلى. لكن لِمَ لم تقل لي شيئاً؟ نظراً إلى حالتك، يا رسول، لا يجرؤ أحد أن يسألك شيئاً أياً يكن. أنت بصمتك الذي لا يفهمه الآخرون تعطي الانطباع بأن العالم كله يتهمك... "رسول، أنا شديدة القلق على صوفيا، إعتنِ بها. لا تتركنا هكذا، وحيدتين ومن دون أخبار عنك. في هذه الأيام تختفي الفتيات الشابات. يقوم قادة الحرب بحملات مباغتة بحثاً عنهنّ لاتخاذهنّ زوجات لهم" خدشت شهقة صوتها. غير أن رسول ما عاد مهتماً بها. اصطكّت ركبتاه، وخال أن الأرض تميد به، وتنهار تحت قدميه. أسند ظهره إلى الجدار وتهاوى على الأرض. تابعت الأم: "هذه اللعينة نانا عليا أسوأ بكثير من القادة. أخشى أن تؤذيها" وجلست قُبالة رسول. "المرحوم زوجي عهد بنا إليك، وليس لنا أحد سواك. وأنت...".

وهو، معتصم بالصمت، منقبض النفس باللغز المخيّم على مقتل اللعينة نانا عليا، مستطار اللُّبّ في اشتباهه بالمرأة ذات الشادور الأزرق السماوي، التي لا يمكن أن تكون، في اسيتهامه، إلا صوفيا. فليعثرْ عليها!

نهض، وغادر.

في الطريق،

لم يصادف أيّ نظرة،

لم يسمع أيّ صوت،
لم يشمّ أيّ رائحة،
لم يعانِ أيّ ألم.
ركض.
ركض كما لو أنّ عُرقوبه لم يعد يؤلمه.

أمّا قدمه فلم تنسه، التوتْ، وأوقفته في عزّ اندفاعه. أوقفته في مكان غير بعيد من منزل نانا عليا، في رُكن الشارع، حيث وجد الكلب الأسود، هو ذاته دائماً، مسترخياً كالعادة أسفل الجدار. عسى أن يجد هذا الكلب الخامل بعض القوّة هذه المرّة لينهض، وينقضّ عليه، ويطرده من هنا. فليس بمقدور رسول أن يدخل إلى هذا المنزل وكأن شيئاً لم يحدث فيه.

لم يحدث شيء. فلننظرْ، ولنُصْغِ! هذا الصمت، هذا الفتور، لا يعطيان أي إشارة إلى أن البيت في حِداد.

إذاً، لعلّ ضربتي بالفأس لم تكن قاتلة. ولعلّها خرجت منها حيّة. والآن ينبغي أن تكون في المستشفى. لقد تأخّرتْ في استعادة وعيها وإلاّ لكنتُ الآن وراء القُضبان.

رشح جسمه عرقاً، رشح الخوفَ. يجب الذهاب من هنا، والعودة إلى منزل صوفيا وانتظارها. غير أن ساقيه كانتا ثقيلتين، لصيقتين بالأرض، كأنهما تريدان البقاء هناك من أجل إنهاء هذه القصّة.

نعم، يجب إنهاؤها.
يوماً ما، ستقول نانا عليا كلّ شيء.
يوماً ما، سوف تلقى العقاب على فَعلتك.

إذاً، لِمَ لا يكون ذلك اليوم، هنا، الآن، في مكان الجريمة؟

على ذلك، تقدّم نحو الباب المنفرج، ودفعه برفق، ثم تفقّد الباحة. كان البيت غارقاً في الهدوء والسكينة. ولم يكن ثمة إلا بضع دجاجات تنقُر وتُقاقي. دخل إلى حرم المنزل.. واتّجه نحو سلّم الشرفة. كان الجو خانقاً، والصمت مطبقاً. وخطاه غير واثقة... توقّف، ونظر من خلال النوافذ. لا أحد خلف الستائر. الخوف والفضول سرّعا نبض الدم في صُدغَيه. تلألأ العرق على جبهته. استعان بالجدار لارتقاء درجات السلّم. وما أن وصل إلى الشرفة حتى انتفض مذعوراً، إذ ارتسم أمامه خيال في ظلمة الرواق. "رسول؟... هذا أنت؟" بذلك ارتفع صوت صوفيا. حاول رسول مذعوراً أن يتكلّم، ناسياً صَمْتَتَه، تحرّكت شفتاه عبثاً ليوضح أنه جاء يبحث عنها، وأن أمّها شديدة القلق عليها... ما أضحك صوفيا. "ماذا تقول؟ لم أسمع شيئاً" قالت وهي تقترب منه. لبث رسول منذهلاً وقد ميّز خلف صوفيا خيالاً آخر يخرج من الرُواق. هذه نازيغول.

"نانا عليا اختفت منذ البارحة. لا أحد يعلم أين هي..." هتفت صوفيا.

لم يدرِ رسول، وهو يُنعم النظر في نازيغول، كيف يتصرّف، وفيم يفكّر، وماذا يقول. نانا عليا ما عادت هناك. هذا هو اليقين الوحيد. كيف ينبغي له أن يتلقّى هذا النبأ. أيفرح به، أم يرتاب؟

خطت نازيغول خطوة إلى الأمام: "البارحة مساءً، عندما عدتُ إلى المنزل لم أجد أحداً. أمّي لا تخرج أبداً من دون أن تترك شخصاً ما في المنزل، ولا سيّما عند المساء".

تفرّس رسول في الفتاتين وقد استبدّ به الذهول وبدا أكثر انغلاقاً.

التفتت نازيغول إلى صوفيا قائلةً: "عندما وجدت البيت خالياً خفت أن أبقى فيه وحيدة. أقفلتُ جميع الأبواب وغادرت..." رقّ صوتُها. وتلاشت كلّ الأصوات. وما عاد رسول يسمع شيئاً. وغدا كلّ ما هنالك مجرّد ثُقْب، ثقب أسود، والرواق صامت، مرَضِيّ، هاوية سحيقة، بلا نهاية، ولا مخرج.

مضى ذاهبَ العقل نحو الداخل، من حيث برز جسد نانا عليا وهي تهبط السلّم في عمق الرواق. قالت: صباح الخير. وسألته عمّا يريد. وكان دخان سيجارتها، تحت شعاع الشمس، يغطي وجهها. تقدّم رسول في الرواق ومدّ إليها ساعة كان قد وعدها بها من قبل. قالت أنْ ليس لديها مال لأخذها رهناً. توسّل إليها، وأمهلها يوماً أو يومين، قائلاً إنها ساعة بأحجار كريمة. كان قد اشتراها في مدينة لينينغراد. ويريد مئتي ألف ليرة أفغانية فقط. تراجعت نانا عليا مستريبة. لم تفهم لماذا يرتدي رسول شملة في مثل هذا الجو الحار. طرحت عليه السؤال، فأجاب بأنه مريض، وبه حُمّى. تناولت الساعة وتأمّلتها. كانت العقارب تشير إلى السادسة وتسع دقائق. هذه الساعة لا تعمل جيداً.

عادةً، تعمل جيداً، وكل ما في الأمر أنّ البطارية ميتة، ولو كان مع رسول مال لاستبدلها.

كلام فارغ. هذه ساعة ميكانيكية قديمة، لا تعمل بالبطاريات! أرادت أن تردّها له. غير أن رسول أبى أن يستردّها، وتوسّل إليها ثانيةً، مؤكداً أنه لا يطلب سوى مئتي ليرة أفغانية. في هذه الساعة اثنا عشر

حجراً كريماً. فلتنظر إليها؛ هذا مكتوب على ظهرها.

كلاّ، إنها لا تريدها. ألحّ رسول. الساعة روسية، من أجود العلامات التجارية. فلتعطِه ما يريد. غير أنّ المرأة التي بدت أشد ارتياباً أخذت ترتعش. أمسك يدها ووضعها على جبهته لتدرك كم كان محموماً، ومنهكاً. فهو لم يأكل شيئاً منذ يومين. سحبت يدها، وتردّدت قليلاً قبل أن تقبل بأخذ الساعة، لكن بشرط: أن يسمح لخطيبته بالعودة للعمل لديها؛ وإلاّ فإنها تستعيد غداً مالها، وتطرد الجميع من البيت، خطيبته وأمّها. وافق رسول، واعداً بأنه سيذهب فور خروجه من هنا إلى صوفيا ليطلب منها استئناف عملها.

كانت العجوز تهمّ بالذهاب، غير أنها التفتت مجدداً إلى رسول لإخطاره بالأمر التالي: من الآن فصاعداً ستكون هي، دون سواها، مَن تحدّد لصوفيا الوقت الذي تسمح لها فيه بالانصراف. هزّ رأسه موافقاً.

ثم أمرته بالبقاء في الرواق؛ ومضت هي نحو السلّم. وعندما وصلت إلى الطابق العلوي أخذ رسول يمشي على رؤوس أصابعه، قلقاً ومضطرباً، والفأس التي كان يخبّئها تحت شملته غدت أثقل فأثقل؛ ارتخت ذراعاه؛ وتصلّبت ساقاه. وجهد في ارتقاء درجات السلّم، والوصول إلى رواق الطابق العلوي حيث وجد نانا عليا أمام باب صغير فتحته. تردّدت هنيهة قبل أن تنسلّ إلى الغرفة وتغلق عليها الباب. تقدّم رسول متثاقلاً حتى الباب. ألصق أذنه به وأصغى إلى صوت الخزائن تُفتَح وتُغلَق. أخذ نفساً عميقاً. وفجأةً ركلَ الباب ركلةً عنيفة حطّمته واندفع نحو نانا عليا، التي كانت أمام النافذة

منشغلةً بعدّ رزمة من الأوراق المالية. وما كاد رسول يرفع الفأس ليهوي بها على رأس السيدة العجوز حتى خطرت على باله **الجريمة والعقاب** فصعقته. ارتجفت ذراعاه؛ واصطكّت ركبتاه، وأفلتت الفأس من يديه، وهوت على جمجمة المرأة فشقّتها وانغرزت فيها. تهاوت العجوز على السجّادة الحمراء والسوداء من دون أن تندّ عنها صرخة. تموّج غِطاء رأسها المُطبّع بزخارف من زهور شجرة التفاح في الهواء قبل أن يسقط على جسدها الرّخص والممتلئ. هزّتها التشنّجات. شهقت مرّة، وربّما اثنتين. شخصت عيناها المحملقتان في وجه رسول، الواقف في وسط الحجرة، متقطّعَ الأنفاس، وأشدَّ شحوباً من جثّة. اقشعرَّ بدنُه. سقطت شملتُه عن كتفيه الناتئتين. سرحت نظرته المرتاعة في فيض الدم. ذلك الدم الذي كان ينحدر من جمجمة العجوز، ويمتزج بلون السجّادة الأحمر مغطياً تخاطيطها السود، ثم ينساب بطيئاً نحو يد المرأة البضّة القابضة بقوّة على رزمة الأوراق المالية. لسوف يغدو المال ملطّخاً بالدم.

تحرَّكْ يا رسول، تحرَّكْ!

"رسول؟"

عاد إلى رشده، والتفت مذعوراً نحو مصدر الصوت. كانت صوفيا ونازيغول على عتبة الباب، تنظران إليه مندهشتين. "ما الذي حصل لك يا رسول؟" سألت صوفيا وهي تقترب منه. أمّا هو فراح يذرع الغرفة ذاهلاً، ملقياً نظرات قلقة على كل ركن وزاوية. لا أثر البتّة لجريمته.

"هل سبق لك أن كنت في هذه الغرفة؟" سألت نازيغول مشغولة البال. "كانت أمي تغلق هذه الغرفة بالمفتاح دائماً. وفي ما عدانا، هي وأنا، لم يكن مسموحاً لأحد أن يطأها بقدمه". والتفتت نحو صوفيا: "متى نظّفتها آخر مرّة؟".

– أنا، ولا مرّة. كانت تتولّى على الدوام تنظيف هذه الغرفة وترتيبها بنفسها.

تطلّع رسول إلى النافذة التي كان قد فرّ منها، فوجدها مغلقة. غدا أكثر اضطراباً وأحسّ بأنه سيسقط مغشياً عليه. ماء! التفت إلى صوفيا مومئاً بحركة الشرب. "نعم، انتظر" قالت له، ثم هرعت نحو الباب وخاطبت نازيغول بصوتٍ خفيض: "هو مريض في هذه الأيام"، وخرجت.

استقرّ نظر رسول على ابنة نانا عليا وهي تبحث في الخزائن. سألت بصوتٍ عالٍ وقد استبدّت بها الحيرة: "خرجتْ مع كل مجوهراتها؟"، ثم غادرت الغرفة، ودخلت إلى الغرفة المجاورة. ظهرت صوفيا وبيدها كوب ماء قدّمته إلى رسول، فشرب. شرب ببطء، لا ليبرّد حنجرته، بل ليمنح نفسه وقتاً للتفكير، قبل أن تعود نازيغول.

كيف أبرّر، وأفسّر، مجيئي إلى هذه الغرفة؟

لو استطعت لقلت إن ذلك كان منذ زمنٍ بعيد، في حياة والد نازيغول – كانت غرفته بالتأكيد – وكنت تحمل إليه وثائق من دار المحفوظات الوطنية تعود إلى والد صوفيا، إلخ.

آه، أيها الصوت الملعون عُذْ!

"حتى أنها لم تأخذ معها كلّ مالها؟" تساءلت نازيغول وهي تلقي نظرة متشكّكة على رسول وصوفيا. بعد برهة من الصمت المطبق أسرع رسول إلى الرواق، تتبعه صوفيا: "ماذا حدث يا رسول؟" لا شيء... لا شيء! أشار لها محرّكاً يديه وهو يهبط السلّم مسرعاً. "ماذا جرى لك يا رسول؟ هل أنت بخير؟ يبدو منظرك غريباً جداً؟"، ألحّت صوفيا بالسؤال. توقّف فجأةً، مفكّراً في وسيلة لإفهامها أنه لم يعد له صوت ليشرح لها ما به. غير أن نازيغول لحقت بهما، ولمّا أصبحت وراء صوفيا سألتهما: ماذا يجب أن أفعل؟ أين أذهب؟ لا أعرف هل تعود أمي هذا المساء أم لا.

- تعالي، سنذهب إلى بيتي.

"مستحيل، إذا ما رجعت أمي ووجدت المنزل خالياً سوف تلعنني. ولكن أين ذهبت؟ يجب أن أعود إلى بيت عمي لأسأله إن كان يعلم شيئاً..."، حوّلت نظرها ناحية رسول: "هل يمكنكما أن تبقيا هنا ريثما أعود؟".

"نعم. اذهبي..." ردّت صوفيا، فارتعب رسول. مستحيل أن يبقى هنا، كلاّ! عبّرت نظرته عن رفضه، وأيّدتها يده. لكن نازيغول توسّلت، وصوفيا قرّرت. "اذهبي، اذهبي!" ثم طلبت من رسول: "دَعْها تذهب، هذا ليس حسناً".

حقاً، يا رسول، لماذا تمانع؟ دَعْها تذهب. هكذا يتوفّر لك كلّ الوقت لتفتيش المنزل، واكتشاف مؤشّر يسمح لك بحلّ اللغز.

تلك هي نازيغول، اللغز. ليست بريئة في هذه القضية. أنا على ثقة من ذلك.

فلتذهبْ إذاً!

ذهبت نازيغول.

تحت نظر صوفيا التي تنفّست الصُعداء بدا رسول في مكانٍ آخر. انتظر إلى أن غدا وقعُ خطى نازيغول بعيداً، واختفت في الشارع، فأسرع نحو السلّم في أقصى الرواق. "إلى أين تذهب؟" صاحت صوفيا، وهي تمضي وراء رسول الذي عاد إلى الغرفة. "لكن ماذا تفعل؟". أخذ رسول يستكشف الغرفة. "لا تنبش شيئاً في منزلهم. هذا ليس حسناً...". أشار لها أن تنزل. لكنها بقيت أمام الباب وقد استبدّ بها القلق: "لا يا رسول، لا يحق لك أن تفعل ذلك. قُلْ لي عمّ تبحث!".

رسول، يجب أن تجيبها. ينبغي أن تعرف كل شيء.

لكن كيف؟ لم يحن الوقت بعد.

تجدك غريب الأطوار أكثر فأكثر، وغامضاً... هذا أفضل!

وماذا لو كانت هي المرأة ذات الشادور الأزرق السماوي حقاً؟

كفّ عن ذرع الغرفة، وألقى على صوفيا نظرة مرتابة، ثابتة، متحدّية تقريباً.

"ما بك؟ لِمَ تنظر إليّ على هذا النحو؟ لِمَ لا تريد أن تقول لي شيئاً؟".

الصمت. النظر. الشكوك...

غادرت الغرفة محبطة. وانصرف هو إلى البحث في كل مكان، في داخل الخزائن، تحت الطاولة، في الأدراج، تحت الأريكة... لا أثر لكل ما تركه أمس: لا عُلبة مجوهرات، ولا مال، ولا فأس، ولا

شملة. لا شيء. جلس على السجّادة ومرّر يده على المكان الذي كانت تجثم فيه الجثّة؟ كل ما هنالك جافّ، نظيف. أهي السجّادة ذاتها؟ مَن استطاع أن يقوم بمثل هذا التنظيف الحاذق، والسريع، والفعّال؟ كلّ ذلك صنيع معلّم كبير، لا عمل صبيّين مثل نازيغول وصوفيا!

نهض متحيّراً، وفيما كان يهمّ بمغادرة الغرفة وقع نظره على صُندوقة فوق الخزانة. فتّش في داخلها فلم يجد إلا ستّ علب سجاير مارلبورو. أخذ واحدة منها، وأعاد الصندوقة إلى مكانها. والعُلب الخمس الأخرى، لمن يتركها؟ أخذ الكل.

لدى مروره أمام باب المطبخ المُنفرج رأى صحناً مليئاً بالطعام على الطاولة. دخل، ولفرط جوعه تناول بأصابعه لقمة من الأرزّ اللزج ابتلعها بنهم. لم يستسغها، ولفظها في الصحن. ثم فتّش كلّ أنحاء الغرفة. لم يجد بعد ما يسمح له بفتح ثغرة على طريق اكتشاف اللغز. أخذ علبة كبريت كانت على الطاولة وخرج. أشعل سيجارة وسحب منها نفساً طويلاً. في الخارج، وجد صوفيا جالسة على إحدى درجات الشرفة رانيةً إلى باب المدخل. وكانت لا تزال قلقة وغاضبة. "هل فقدت لسانك؟" سألته. نعم، أومأ برأسه، عالماً بأن صوفيا لن تفهم إشارته بالمعنى الضيِّق. "عمّ كنت تبحث فوق؟"، نفث دخان سيجارته في اتجاهها، "عن سجائر؟". رمقها بنظرة متأنّية، ثم دنا منها وجلس إلى جانبها، وفي رأسه يدور ألف سؤال وسؤال: البارحة، في أي ساعة جاءت إلى هنا؟ هل رأت أحداً؟ لا بدّ أنّ ذلك لم يكن قبل الجريمة وإلاّ لكانت نانا عليا أخبرته بأن صوفيا جاءت إلى هنا.

كلاّ، ليست هي المرأة ذات الشادور الأزرق. وإلاّ لما قبلت أن تبقى في المنزل.

أما وقد بقيت، فما بقاؤها لحراسة المنزل، ولا لمساعدتك، وإنما تريد أن تبقى وحيدة معك. لم تُتح لكما من قبل فرصة كهذه، لقاء حبيبين وجهاً لوجه. لديها ألف أمر وأمر تودّ أن تقوله لك، وألف رغبة ورغبة في أن تستمع إليك...

شملت نظرة صوفيا الحانية شفتَي رسول. حجبتهما حلقات الدخان الملتفّة. "كنت تقول إنك ستكفّ عن التدخين". سحب نفساً أطول من سيجارته ونفث الدخان مجدداً في ضفائرها. وضحكا.

ضحكة صوفيا، ما أسعدها! يحبّ هذه الضحكة الطلقة، البريئة، والرقيقة التي تنكسر فجأةً بنظرة ارتياب وحركة خاطفة؛ لكنها تستمرّ في إضفاء البريق على عينيها.

ترامت إليهما من بعيد ضوضاء الرصاص والصواريخ من دون أن تكدّر صفوَ الصمت الوديع الذي يخيّم عليهما.

وضعت صوفيا يدها بحياء على ركبة رسول آملةً أن يأخذها بين يديه ويداعبها، وأن ينعما بهذه الاستراحة الغرامية. غير أنّ يديه لم تتجاوبا. كانتا ترتعشان وتنضحان عرقاً.

"هل قرّرت ألاّ تتكلّم بعد الآن؟" سألت صوفيا قانطةً، وعيناها ثابتتان على شفتي رسول المطبقتين.

تردّد قليلاً قبل أن ينهض فجأةً ويأخذ في البحث عن ورقة وقلم في المنزل ليكتب إليها مُفضياً بكلّ ما عنده. غير أن ضجة الباب

أوقفته. هناك مَن دفعه. هل عادت نازيغول؟ طوّح رسول بسيجارته واندفع نحو الرواق ليختبئ في الظُّليل. واتجهت صوفيا نحو الباب. "مَن هناك؟".

"نانا عليا؟" سأل صوت خفيض، صوت رجل. ردّت صوفيا مذعورة: "كلاّ، ليست هنا".

– في أي ساعة تعود؟

– لا أدري.

– مَن أنتِ، نازي؟

– كلاّ، نازيغول ليست هنا هي أيضاً. أنا خادمتهما.

– آه، لا! هذه صوفيا؟

– كلاّ...

– بلى! كوني لطيفة. افتحي! هذا أنا، القائد عامر سلام. ضغط بقوة على الباب الذي جهدت صوفيا في إبقائه مغلقاً بيديها المرتعشتين والضعيفتين صائحةً: "كلاّ.. كلاّ، أنا لست صوفيا... قيلَ لي ألاّ أفتح لأحد".

"أنا أحد؟ هيّا. افتحي!" حاول أن يدفع الباب مجدّداً، من دون جدوى. بادرت صوفيا إلى وضع السلسلة في القُفل. هزّه عامر ثانيةً هزّاً أعنف.

خرج رسول من مكمنه في الظل وركض نحو الباب ففتحه غاضباً أشدّ الغضب. ذُهل سلمان برؤيته وسأل بصوت قوي: "نانا عليا ليست هنا؟". كلاّ، أومأ رسول ساخطاً. ألقى القائد نظرة من فوق كتفه باحثاً عن صوفيا وقال: "إذاً، أبلغها بأن عامر سلام سيأتي

هذا المساء مع مدعوّيه. معه سبعة ضيوف، سبعة!" وانصرف.

كانت صوفيا مختبئة وراء الباب، خائرة القوى، فتهاوت أرضاً. أغلق رسول الباب، ونظر متحيّراً من خلال الألواح المنفرجة إلى عامر سلام الذي كان يجرّ قدميه متجهاً نحو سيّارته المركونة في مكانٍ أبعد. ثم ابتعد عن الباب، وأشعل سيجارة بحركة عصبية، وذهب ليجلس على إحدى درجات الشرفة. نهضت صوفيا وانضمّت إليه. دقّق النظر في عينيها وكأنه يسألها: من هو عامر سلام؟

هيّا يا رسول، تحبّ أن تطرح أسئلة تعرف جوابها. لا بد أن يكون هذا أحد زبائن نانا عليا وقد اعتاد أن يأتي لرؤية الفتيات الشابات وهنّ يرقصن. دَعْ صوفيا وشأنها.

أدخلتْ رأسها بين ركبتيها وأخذت تبكي بصمت. لم يدرِ رسول، المرتبك، إن كان عليه أن يواسيها أو يطردها.

لِمَ يطردها؟ هي أهلٌ لأن تُواسى، وأن تُحَبّ، وأن تُبجّل.

تردّد قبل أن يضع يده بحنان على كتفها. هدّأتها هذه الحركة كما لو أنها كانت تنتظر لحظة العفو هذه. لبدَتْ بين ذراعيه وراحت تنتحب. ربّت رسول على ظهرها. ولو كان له صوت لسمعته يقول: "قضِيَ الأمر يا صوفيا. ذهبت تلك القحبة القذرة إلى غير رجعة. لقد قتلتها. اهدئي!".

ما زالت تبكي. لا تريد أن تكفّ. لا تكفّ. ولن تكفّ أبداً ما استمرّ رسول في مداعبتها. عسى ألاّ تنتهي هذه اللحظة، وهذه الدموع، وهذه المداعبة.

لكن سرعان ما تبدّد كل شيء، ويا للأسف. اضطرب رسول

مجدّداً، لا بسبب صوفيا، بل بتأثير إحساس غريب يعانيه في هذا المنزل. خال أن ثمة من يراقبهما انطلاقاً من الرواق. نهض وألقى نظرة خاطفة ومرتابة وراءه. ثم أومأ إلى صوفيا أن تغادر المكان في أقصى سرعة. "عندما تعود نازيغول؟". كلاّ، هذا المنزل ملعون. ركض نحو الباب. "إذا ما عادتا ولم تجدانا هنا ستطردنا نانا عليا من بيتنا".

تباً لنانا عليا وسُحقاً! لقد قتلتها.

رمى سيجارته في الباحة، وفتح الباب، ومضى في الزقاق. اندفعت صوفيا في إثره مذعورة. "رسول، هل تعرف شيئاً عن اختفاء نانا عليا؟". لا تحاولي، يا صوفيا، أن تعرفي ما فعله بها! فسوف تخسرينه. "لكن، ما الأمر؟ من حقّي أن أعرف". توقّف وأحدّ النظر في عينيها، مُرهَقاً، ومُرهِقاً. كيف يقول لها إنها ستعرف ما فعل قريباً، وأنه هو الذي سيخبرها بنفسه. "أُفّ، شادوري!... انتظرْ، سأرجع لآتي به"، وعادت أدراجها. استأنف رسول سيره. وما إن خطا بضع خطوات حتى توقّف. لقد عاوده ألمُ عُرقوبه. وشرع في تدليك قدمه.

تناهت إليه من بعيد، من مكانٍ ما في المدينة، أصوات طلقات نارية. التفت نحو جبل الأصمعي حيث رأى مجموعة مسلّحة تصعد نحو القمة.

هبط هو نحو الساقي خانه، حيث...

سعل أحدهم، سعلة بلغمية، وأخرى بطيئة رتيبة، وبصق. وبين السعلتين ارتفع صوت مرنان، هو صوت المدعوّ كاكا سَرْوَرْ، وكان صوتاً رخيماً، رزيناً، راح يتلو: "... هكذا اتّبع ذو القرنين طريقاً جديداً نحو الشمال إلى أن وصل مدينةً ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا* قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾[1]". توقف ليعبّ نفحةً من حشيشة الكيف. "إذاً، طلب القوم من ذي القرنين لما رأوه من قوّته وسَطوته، أن يبني لهم سوراً يفصلهم عن يأجوج ومأجوج، وعرضوا عليه في المقابل جِزْيَة ضخمة. وفي الواقع كانت يأجوج ومأجوج عَشيرتين ضالّتين فاسقتين لا تسمعان نصيحة ولا تخشيان عاقبة. ولمّا كان ذو القرنين مجبولاً على فعل الخير، ونجدة المستضعفين، قبل على الفور أن يساعدهم، لكنه رفض أن يأخذ منهم جزية. ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[2]". علّق كاكا سَرْوَرْ سردَه مرّةً أخرى ليبتلع جرعةً كبيرة من الشاي. "ثم إن ذا القرنين طلب من هؤلاء القوم أن يأتوه بقطع الحديد، والخشب، والنحاس، والفحم. وردمَ ما بين الجبلَين بكُتل الحديد ثم وضع في كل جهة قطع الخشب والفحم. حتى إذا سوّى بين جانبي الجبلين

---

[1] سورة الكهف، الآيتان ٩٣–٩٤. (المترجم)

[2] سورة الكهف، الآية ٩٥. (المترجم)

بما وضعه بينهما أمر بإشعال النار. ثم سكب النحاس المُذاب حالما تحوّل الحديد إلى نار حامية. وهكذا لم يستطع يأجوج ومأجوج أن يصعدوا السور ولا أن يُحدثوا فيه نقباً. وعندما أتمّ ذو القرنين عمل ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[1]".

– كاكا سَرْوَرْ، متى يأتي هذا الوعد؟

– يا حكيم، لقد أتى فعلاً. قِيل إنه في يوم القيامة تتمكّن جحافل يأجوج ومأجوج من إحداث ثغرة في السور. وإن الله يمكّنهم من الانتشار في الأرض، فيسيطرون على العالم ويقضون على الجنس البشري. ثم إنهم يتحدّون العزّة الإلهية فيصوّبون سهامهم إلى كبدِ السماء... أين الغليون؟

حملوه إليه فدخّن وسأل: هل تعرفون هذا المقطع في القرآن؟

– كلاّ.

– الويل لكم. كما أنكم لا تعرفون أيضاً أين تقع تلك المدينة؟

– كلاّ.

– الويل لكم. تلك المدينة تقع هنا، إنها كابول!

ابتلع جرعةً أخيرة وانزوى في رُكن. "كاكا سَرْوَرْ، لن تتركنا على لظى تلك القصّة الرهيبة! أنشدنا شِعراً يطربنا". طلب فتى جالس قرب رسول. أغمض كاكا سَرْوَرْ عينيه، وأنشد: "يا ربَّ الفَتْوَى[2] نحن أمهرُ منك/ مع أننا سكارى، نحن أزهدُ منك/ أنت تشرب دماء

١ سورة الكهف، الآية ٩٨. والحكاية كلّها مستوحاة من النص القرآني (المترجم).

٢ هكذا في الأصل Fatwa (المترجم).

الكائنات، ونحن نشرب دمَ الكرمة/ كُنْ عادِلاً، مَن هو الأكثر دمويّة، نحن أم أنت؟".

"أنا" قال صوت، منتزعاً من أعماق الجميع ضحكاً أجشّ. ثمّ حلّ الصمت، والحذر، والحُلم... ولم يعد العالم سوى كتلة بلا مادّة، ولا وزن، وغدا شفّافاً. وفي قلبه رسول. يسبح. عارياً تماماً. بريئاً. خفيفاً وعَطُوباً. فليعشقْ حالة العفو هذه. هاوية جميلة. قصيدة قِنَّب.

"رسول! رسول!" هزّه أحدهم. نهض متباطئاً، وفتح عينيه برفق، وأصغى وسط غمامة الدخان إلى صبيّ يافع يكلّمه: "صباح الخير يا رسول، أرسلني رازمودين. طلب مني أن أجدك وأصطحبك إلى فندق متروبول. بحثت عنك في كل مكان..." نظر إليه رسول من قَعر هاويته. "... ذهبت إلى بيتك ولم تكن هناك. ذهبت إلى منزل المرحوم محرّم الله..." فليتوقّف! لا يسع رسول أن يستمع إلى كل مراحل البحث عنه. أشعل سيجارة، فلمّا رآها الصبي هتف وكلّه رغبة فيها: "هذه من صنف المارلبورو". عرض عليه رسول سيجارة، فأخذها بعد تردّد وجلس قُبالته. "... قالت لي خطيبتك إنها أضاعتك. ولما رجعتُ إلى بيتك أرسلني جارك إلى هنا...". نعم، نعم، أومأ رسول للدلالة على أنه فهِم كل شيء. فليسكت، الآن، وليدعه حتى يعود إلى رشده.

حين أصبح في كامل وعيه ألقى نظرة شملت أركان الغرفة الأربعة ولم يرَ سوى أشباح هامدة وصامتة. "... أشْفَى على الموت، قريبُك!". أشفى على الموت! لماذا؟ سأل رسول بنظرة مشفوعة

بتجهُّم. "سقط صاروخ وراء الفندق، وأحدث أضراراً جسيمة". ورازمودين؟ أهو سالم لـم يُصب بأذى؟

نهض رسول فجأةً وغادر غرفة التدخين، يتبعه الصبيّ. أخذ يركض – وهو يعرج دائماً – إلى أن توقّف أمام مكتب رازمودين الكائن في الطبقة السفلى من الفندق. كان الباب موارباً، فرأى قريبه يجمع أوراقاً مبعثرة على الأرض.

لا شيء خطيراً، إذاً.

يمكنني أن أذهب.

نعم. اِذهبْ! وإلاّ تعرّضت مجدّداً لنفس الكلمات، والتأنيبات، وثورات الغضب، كما حصل هذا الصباح... لا بل أسوأ، لأنه سيلاحظ أنك عدت إلى تعاطي الحشيشة.

همَّ بالمغادرة، إلا أن رازمودين لمحه، فكفَّ عن الجمع وأسرع نحو الباب. "رسول، إلى أين تذهب؟" جمد رسول في مكانه. "ادخل!" دخل رسول. "اجلسْ!" أمره رازمودين مشيراً إلى أريكة بالية. كان متوتراً، أشدّ توتّراً منه هذا الصباح. في داخله شيء ما يغلي، يُقلقه، يُلزِمُه الصمت. مرّ وقتٌ طويل. الوقت اللازم للبحث عن كلمات من شأنها أن تجعل الأمور الخطيرة محتملة. استعجله رسول. هو أدرى بقريبه، يعرف اضطرابه ورعونته في الأوقات العصيبة. تركه يبحث عن كلماته. "رسول، هل تعرف القائد رُسْتُم؟" أخفض رسول عينيه، وكأنه يفكّر، ثم أشار بـ"لا" لئلاّ يفضح نفسه. طبعاً، يعرفه. هو الذي يطمح إلى طلب يد دُنيا، لا شك في ذلك، وهو الذي تتحدّث عنه أمّه في إحدى رسائلها، من دون أن تسمّيه. "جاء من مدينة مزار،

بناءً على طلب أمّك. وهو الآن فوق، ينتظرك في مطعم الفندق"، قال رازمودين عائداً إلى مكتبه. ثم رجع ليُفضي بما يعذّبه:

"لديّ، يا قريبي، خبر سيئ"، وانتظر، انتظر أن ينهض رسول ويصيح: "أي خبر سيّئ؟" آه، لا، لبث صامتاً، هامداً، ذا نظرة متهرّبة. "رسول؟" رفع رسول عينيه. "أبوك..." مات؛ هذا أمر يعرفه، لكنْ لا يستطيع أن يقوله. وحتى لو استطاع فلن يقول شيئاً؛ سيهزّ رأسه، كما فعل هنا، الآن، ولا شيء آخر. "مات!" أخيراً لفظ رازمودين الكلمة، متلعثماً. وهزّ رسول رأسه مرّة أخرى ليفهمه أنه يعرف ذلك.

"هل بلغك الخبر؟" أشار رسول بـ"نعم" محرّكاً شفتيه وخافضاً عينيه. "كنتَ تعرفه؟" أعاد رازمودين الكرّة، ذاهلاً: "كيف عرفته؟ من أخبرك به؟ متى؟".

أيجب عليّ أن أبدأ الكتابة لأفسّر كل شيء، وأروي أنني تلقيت منذ شهر رسالة من أمي أطلعتني فيها على الأمر، وأن هذه الرسالة وصلت إلى هنا، إلى هذا الفندق؟ تذكّر، يا رازمودين، أنت بنفسك حملتها إليّ. لا تلعب دور الغبيّ.

لا، رازمودين ليس غبيّاً أبداً. لقد أدرك كل شيء. وإذا ما بدا مندهشاً فلأنه لم يفهم لِمَ لَمْ تقل له شيئاً. "إنه أبوك يا قريبي!" أخذ بذراع رسول وقد استشاط غضباً: "لقد قتلوه! أتعرف هذا؟". اليوم قلّة هم الذين يموتون على فراشهم يا رازمودين. تعلم رأيي في هذا الموضوع. إذاً، أعفني، لو سمحت، من اندهاشاتك السخيفة، ومن مفاجآتك الكاذبة. فلنلزم هذا الصمت المثقل بمآخذك وخيباتي.

تفرّس فيه رازمودين. ما زال نظر رسول مشدوداً إلى الأرض، لا

خوفاً من أن يناقض نفسه ولكن لئلا يلاحظ قريبه أنه تعاطى الحشيش.

عبثاً حاول الاختباء، فقد ساور الشك رازمودين. ومن أجل ذلك انحنى وراح يبحث في عيني رسول الكئيبتين والمتملّصتين عن أبسط علامة، عن بصيص نور يمكن أن يطمئنه إلى حالة قريبه. لم يصدّق أنّ بإمكان رسول أن يحتفظ بهذا القدر من الحقد على أبيه.

لا، ما هذا بحقد حتى؛ هذا شعور أشد فظاظة: هو اللامبالاة! وأسوأ أيضاً: هذه ليست لا مبالاة تجاه حياة أبيه، بل لا مبالاة حيال موت أبيه.

لا، لا يمكن لرسول أن يكون حقوداً وفظّاً ووحشياً إلى هذا الحد. لا بد من سبب آخر.

الحشيش! هذا هو. انظروا إلى عينيه! إنهما محمرّتان جداً، وشاردتان، ومطفأتان...

"هل عُدت إلى التدخين؟".

"قُضي الأمر، انطلق مجدّداً!".

نهض رسول. خرج. صفق الباب. لبث رازمودين برهة وحيداً، وذاهلاً. ثم لمّا عاد إلى رشده ركض نحو الرواق صائحاً: "إلى أين تذهب؟ القائد رستم يبحث عنك". فيمَ يعنيه ذلك؟ رفع رسول كتفيه ازدراءً. "جاء من مزار شريف. كان صديقاً لأبيك... قال إنه سيعتني بأمّك وأُختك". ليأتِ في يوم آخر. رسول مشغول الآن. "ماذا حدث لك يا قريبي؟ لم تقل شيئاً. قُلْ لي ما الذي جرى!". لا شيء يا رازمودين، لا شيء! "هل أنت مريض؟". كلا، أومأ برأسه.

بلى يا رسول، أنت مريض، مريض بشخصك. تبعه رازمودين:

"ما عدت مهتماً بشيء، لا غذاء، ولا نوم...". أخرج بضع أوراق مالية ودسّها في جيب رسول. "عدني بأنك ستهتمّ بحالك. اذهب لاستشارة طبيب. كُلْ شيئاً، أَرِحْ نفسَك، استردّ قواك. سآتي للاطّلاع على أحوالك...".

لِمَ كل هذا الاحتقار بخصوص رازمودين، وهو القريب الخيِّر؟

لأنني أعرف لماذا يهتمّ بي بهذه الرقّة. لا يفعل ذلك بداعي الشفقة ولا الصداقة، ولكن لأنه هو أيضاً يريد أن يتزوّج أختي. هذا هو السبب.

وماذا بعد؟

غادر رسول الفندق منزعجاً.

ما زال الشارع الذي تجتاحه سحابة من الدخان الكثيف خانقاً. بعد أن مشى رسول بضع خطوات توقّف، مفكّراً: "مَن هو هذا المخنّث رستم؟"، دخّن سيجارة ثم نظر إلى الجهة الأخرى من الشارع حيث وزارة الإعلام والثقافة، وحيث يحتشد رجال مسلّحون، من بينهم جانو. لمحه هذا فحيّاه من بعيد: "سلام يا رسولفسكي!" اجتاز رسول الشارع وانضمّ إليه. "تمّ الأمر، واتّخذت قرارك إذاً؟ اتبعني!". دخلا إلى المبنى، وهبطا الدرج، وتقدّما في رواق الطابق السفلي المظلم والمسودّ بالدخان، ليجدا نفسيهما أمام القائد برويز، الذي كان يتناقش مع رجلين ملتحيين حول طاولة عليها خريطة كبيرة لمدينة كابول، وكانت أصواتهم تضيع في ضوضاء مولّد كهربائي. اقترب جانو من برويز ليبلغه بحضور رسول.

"كيف حال قارئ دوستويفسكي؟ أهلاً وسهلاً. تبدو أكثر حيويةً

وشباباً منك البارحة!" قال برويز بابتسامته الآسرة. لامس رسول ذقنه مشيراً إلى أن السبب هو تخلّصه من لحيته. "تزعجك اللحية؟" ضحك. "والصوت؟" أبدى رسول استياءه: "أيها المواطن، لِمَ لم تقل لي أمس إنك قريب رازمودين؟ تعارفنا في السجن. وبعد؟... جئت للانضمام إلينا؟". نعم، أومأ، ملقياً نظرة قلقة باتجاه الرجلين الآخرين. "هما من أصحابنا" قال برويزُ ليطمئنه. بعد فترة وجيزة من الصمت، مردّها إلى تردّده بين أن يقول أو لا يقول، وكيف يقول، تناول رسول قلماً من على خريطة كابول وكتب في إحدى الزوايا اسم القائد رستم. قرأه برويز بصوت مرتفع، وسأله مندهشاً: "تذهب مع القائد رستم؟" على وقع هذا الاسم أدار الرجلان الآخران رأسيهما نحو رسول، مما جعله أكثر حياءً. وقال أحدهما: "مَن لا يعرفه!" ثم أحدّ النظر في وجه برويز قائلاً: بالمناسبة... كنت أريد أن أحدّثك عنه. لأنه يشاع أنك تريد أن تتحالف معه.

– نعم، لكن...

– طمئنّي، الأمر لا يتعدّى كونه إشاعة!

– مع الأسف، هذا صحيح!

– من أجل ذلك، إذاً، قدم إلى كابول! وهل أنت موافق؟

– القرار لا يعود إليّ...

– برويز، فكّر في ما أقوله لك: يوم أعلم أن هذا الخنزير أصبح بيننا ستجدني ذلك اليوم في مواجهتك على الجانب الآخر من الجبهة.

– أيها القائد مُراد، خيرٌ للمرء أن يعيش في سلام من أن...

– في سلام مع عدوّه؟ أتؤمن بالسلام بين ذئب وحمل؟

– ما تقوله صحيح، لكنّ السلام مع العدوّ فريضة؛ مع الصديق، ما جدواه؟

– ولكنْ لماذا؟ تعلم علم اليقين أن كلاًّ منا يبغض الآخر! إن كنت تريد أن تصالحه، فمكاني لن يكون هنا بعد الآن. وداعاً!

تناول بندقيته وأسرع خارجاً. اندفع برويز والرجل الآخر في إثره. لبث رسول وحيداً، متحيّراً، متأمّلاً خريطة كابول، مطروحة على الطاولة، مدعوكة ومليئة بالثقوب.

إذاً، "دُنيا!" أرنّ اسم أخته في وجدانه.

مدينة كابول تنتظر الريح. تنتظر الريح كما تنتظر المطر لتتخلّص من الجفاف. قبل خمسة أسابيع كانت الريح تهبّ حتّى قبل أن تغيب الشمس خلف الجبال. كانت ترفع الغبار الجاثم على المدينة، على كل ركن وزاوية خفية في حيواتها، وتطرده. ما كانت تطلع من أيٍّ من الجهات الأربع الأصلية. حتى ليقال إنها تصعد من أعماق الأرض؛ وكانت تعود أدراجها بعد أن تدوّم متيحةً بذلك للمدينة أن تتنفّس، وأن تنام، وأن تحلم... وما عادت تهبّ. تركت كلّ شيء يركد: بارود الحرب، دخان الرعب، جمر الحقد... رائحة الشياط، الدهنية، تلتصق بالجلد، وتتغلغل في الخلايا. خيرٌ لك أن تدخّن واحدة من سجائر نانا عليا من أن تتنشّق هذا الهواء الخانق.

أشعل رسول سيجارة. لم تكن لديه أدنى رغبة في العودة إلى بيته أو رؤية صوفيا. استأنف السير على غير هدى، تائهاً.

وماذا لو قصد طبيباً؟ الآن، بما معه من نقود رازمودين، يمكنه أن يدفع رسم الاستشارة، ويشتري الأدوية، ويأكل، ويدخّن...

عند ملتقى طرق مالك أصغر لمح عيادة طبية، عليها لوحة تقول: "اختصاصي في أمراض الأُذن والأنف والحنجرة، إلخ". دخل. كانت قاعة الانتظار تغصّ بالحضور. رجال ونساء مع عائلاتهم، بعضهم أمضى الليلة هنا. وكانوا يأكلون، ويدخّنون، ويسعلون، ويُدمدمون، ويضحكون...

عند مدخل الرواق اعترض رسول شابٌّ، يوزّع أرقام الاستدعاء على المرضى، قائلاً: "يجب أن تأتي في الصباح الباكر، في الساعة السادسة، لكي تحصل على رقم". وإذ أبدى رسول دهشته قال الصبي: "مرضى كابول كلّهم ياتون إلى هنا، من لديه مشكلة في الحنجرة أو الباسور، لا يهمّ! ما عادت المستشفيات تستقبل إلا جرحى الحرب، ولا تكاد!".

كان رسول يهمّ بالذهاب عندما اقتربت منه امرأة وعرضت عليه أن تتنازل له عن دورها في مقابل خمسين ليرة أفغانية، إن كانت حالته عاجلة. والرقم هو السادس والتسعون، ويأتي دوره بعد تسعة أشخاص، "وسترى، لن تنتظر طويلاً. وسأكسب أنا بعض المال لأشتري حليباً وأدوية لطفلي". قبل رسول بعد تردّد وانتظر في الرواق حلول دوره. وفي هذه الأثناء لاحظ أن المرأة باعت ثلاثة أرقام أخرى.

واتفق من باب السخرية أن الطبيب، الهرم، كان يعاني مشكلة قِصَر النظر، ويجد صعوبة بالغة في كتابة وصفاته على الرغم من نظارتيه الضخمتين، وكان يطلب من مرضاه أن يتكلّموا بصوت مرتفع. احتار رسول في أمره وكتب بسرعة على ورقة وصفة طبيّة: "فقدتُ صوتي"، وناولها الطبيب. اغتاظ هذا وصاح بالشاب أن يقرأها له، ثم فهم. "منذ متى؟". ثلاثة أيام، أشار رسول بأصابعه. "لأيّ سبب؟" صمت. "صدمة مادّية؟".

– ...

– نفسانية؟

نعم، أومأ رسول، بعد تردّد وجيز.

"لا يوجد أي دواء لهذه الحالة"، قال الطبيب بلهجة ساخطة وهو يربّت على رزمة من الوصفات المكتوبة مسبقاً لكل نوع من الأمراض، "لكي تستعيد صوتك عليك أن تعيش مجدّداً الانفعال نفسه، والموقف ذاته. مئة ليرة أفغانية الاستشارة، إذا سمحت"، ثم صاح: "التالي!". قبل أن يصل المريض الآخر دفع رسول كل ما تبقّى معه من نقود، وغادر العيادة، مستأنفاً تَيَهانه في هذه المدينة الغامضة، إلى أن هبط الليل. ثم عاد إلى بيته ونام. من دون كابوس.

الكابوس، رآه. العفو، حَلم به. من أجل ذلك، يقيناً، لا رغبة لديه البتّة في أن يفتح عينيه، أن يغادر سريره، أن يُحيّي الشمس السوداء، أن يشمّ رائحة بارود الحرب، أن يبحث عن صوته الضائع، أن يفكّر في جريمته... تكوّر أكثر تحت الغطاء، رموش مغلقة، وباب مغلق، زمناً طويلاً. لا شيء يخرجه من حالة الخدر هذه. لا الذباب الذي يحوم حول رأسه؛ ولا الصاروخان اللذان سقطا على جبل الأصمعي، ولا خُطى رازمودين اليائسة وهو يصعد السلّم، ويتريّث وراء الباب المغلق، ثم ينزل ثانيةً؛ ولا صيحات الفرح التي تطلقها ابنتا يرموحمد في الباحة... ما دامت الشمس لم تأفل بعد، فلن ينهض هو.

لكنه نهض بسبب تلك المرأة اللعينة ذات الشادور الأزرق السماوي التي اندسّت في نوم فراشه. كان وجهها مستوراً كالعادة. وشرعت في مداعبة رسول الذي حاول أن ينتزع حجابها. قاومته. لم يرتدع وراح يجذب ذلك النسيج الهائل الذي أخذ يكرّ بين أصابعه دون انقطاع. ضحكت المرأة، وناولته صندوقة. لم يكن في داخلها مجوهرات بل كرة صغيرة شفّانيّة، حيّة. "هذه تفّاحة آدم، جَوزة عُنقك"، قالت له المرأة، "أتريدها؟".

ألقي رسول العلبة على الأرض، وأراد أن يرى وجهها. حاول مجدّداً أن يجرّدها من شادورها. دون جدوى. ثم ألفى نفسه ملتفّاً بغطاء. لم يقوَ على تمزيق ذلك الحجاب. وأحسّ أنه يختنق.

تململ.

فتح عينيه.

كان غطاؤه هو الذي يخنقه. وكان كلُّ ما في الغرفة ساكناً. حتّى الذباب.

بعد تنهيدة طويلة، استوى جالساً، وغادر سريره، والمنزل، ليضيع ثانيةً في ضباب المدينة.

بلغ في تسكُّعه زقاقاً أفضى به إلى ساحة جواشير حيث أبطأت خُطاه رائحةُ خُبز. توقّف وانتظر أن تمتدّ يدٌ خيّرة توزّع الحلوى[1]. وبين الحشد الذي كان ينتظر بصبر أمام المخبز وقعت عينه على رجل أعرج، يعتمد على عكّاز طويلة بالنسبة إليه. وكان يشبه أحد صديقَيْ والد صوفيا.

بعد أن اشترى الرجل خبزاً مرّ أمام رسول. لاحظ هذا على خشب العكاز أبياتاً من الشعر محفورة كالتي كانت على عكّاز محرّم الله... بل هي العكّاز عينها.

وإذاً؟

لقد استولى عليها بينما كان صديقه ينازع تحت الأنقاض. لم يكن هو يملك عكازاً. لذلك أخذها لينجو بنفسه. هذه العكاز طويلة جداً عليه. خائن قذر!

تبعه رسول، بالنظر أولاً؛ ثم على قدميه.

مضى الرجل معتمداً على العكاز تحت إبط ومحتضناً الخبز تحت الإبط الآخر. سلك زقاقاً مزدحماً توقف في منتصفه ليُحكم الإمساك

---

١ Halwa: هكذا في الأصل. (المترجم)

بخبزه. في أثناء ذلك التقت نظرته بنظرة رسول الذي توقف هو أيضاً. استأنف الرجل سيره متضايقاً من هذا التناظر الملحاح، وبلغ زقاقاً آخر خالياً من المارّة. هنالك أدرك أن رسول يتبعه. حثّ الخطى متوجّساً. أسرع رسول في إثره إلى أن لحق به وقطع عليه الطريق. شدّ الرجل على خبزه تحت ذراعه مرتاعاً لاهثاً. "عندي ستّة أفواه عليّ إطعامها وليس معي إلا رغيف واحد"، قال مُتوسِّلاً.

ها أنت ترى، يا رسول، أنه لا يعرفك، المسكين.

كلاّ، لم يتعرّف إليّ. سأقدّم نفسي إليه. سأنعش ذاكرته الذاوية.

فلينظرْ إليّ مباشرةً في عينيّ!

كان الأعرج ينظر إليه مرعوباً، وينتظر كلمةً، صفعةً، سكّيناً، مسدّساً... لا شيء من هذا كلّه. "ما الذي تريده مني؟" سأل الرجل. "مَن أنت؟" هذا هو السؤال الصحيح. حرّك رسول شفتيه لكي ينطق باسم م – ح – ر – م – الـ – له. حاول الرجل أن يقرأ على شفتيه. "محمّد؟... آه، ابن كاظم؟... قتلوك، كلاّ؟ كيف عدتَ؟!" ها أنت تخلط الآن الأموات والأحياء. انظرْ جيّداً! أنا، ر س س ووو ل ل ل ل، قريب م – ح – ر – م – الـ – له.

ضغط رسول على ذراعه وجذبه نحو الأسفل. خطّ بأصبعه على الأرض اسم محرّم الله. "أي محرّم الله؟". أشار رسول إلى العكاز آملاً أن يربط بين الاسم والعصا. أمل خائب. ما زال الرجل يجهل ما الذي يريده رسول منه. "تريد عكازي؟" كلاّ! "ماذا تريد إذاً؟" أشار رسول بسبابته إلى الاسم المكتوب على الأرض. قرأ الرجل مذعوراً: "محرّم الله، أهذا أنت؟ أنا لا أعرفك" نهض، ومعه رسول. حاول

الرجل أن يلتفّ حوله ويستأنف سيره. غير أن رسول كان أسرع منه فاعترض سبيله وأحدَّ النظر في وجه الرجل المذعور.

أهذا هو حقاً؟

بلا أدنى شك. سوف أساعده على تذكّر الأوقات التي أمضاها مع محرّم الله في غرف التدخين، واليوم الذي جعلها فيه صاروخ طُعمة للنيران. لكي يتذكّر خيانته يجب أن يعيش رعب الموت مجدّداً.

تمسّك رسول بالعصا التي كان الرجل، وقد أخذ به الرعب كلّ مأخذ، يضمّها بقوة إلى صدره ضارعاً: "باسم الله!" ويعيره رسول أُذناً صمّاء. انتزع منه العكاز، ورفعها ليضربه بها. "يا الله، نجّني من هذا المجنون!" صاح الرجل الذي تهاوى أرضاً، متشبّثاً برغيفه. جلس رسول وكتب على الأرض "أنا خائن".

ميّز الرجل بصعوبة الحروف من بين الحصى وآثار الأقدام. وجهد أن يقرأ. ولمّا شقّ عليه أن يفهم معنى الجملة سأل رسول: "أنت خائن؟". كلاّ، أنت! أشار رسول مُسدّداً سبّابته إلى صدر الرجل. "أنا، خائن! لماذا؟". لوّح رسول بعكازه أمام عينيه المرعوبتين، وحدجه بنظرة قاسية وقد استشاط غضباً. ذُهل الرجل.

"سرقتها من" كتب إلى جانب اسم محرّم الله. "آه، لا! هي لي، هذه العكاز. اشتريتها، أُقسِم لك..."، لكن العصا هوت على فخذه المريض وانتزعت منه صرخةً مؤثّرة "النجدة!". أخذ رسول بشعره وأخفض رأسه إلى الأرض لكي يقرأ بأعلى الصوت: "النجدة! أنقذوني! العون!" هوت العكاز هذه المرة على رأسه وأسكتته. توسّل باكياً: "يا أخي، أأنت مسلم أم لا؟ عندي ستة أطفال. يا الله،

الرحمة!... لا أملك مالاً. أُقسِم لك أنني لا أملك مالاً". المسكين. لا يعلم أن الأمر لو كان يتعلّق بالمال لكانت جمجمته مفتوحة الآن.

اتركْه يا رسول! لن يفهم أبداً ما الذي تريده منه ولا لماذا.

فليعترفْ بأنه خائن، فليصرخْ بذلك.

ارتفعت العكاز ثانيةً مصحوبةً بصياح الرجل: "لا تضربْ! موافق. لا تضرب!" بقيت العكاز معلّقة. "لقد خُنتُ... خُنت! سامحني! يا الله، أسألك العفو..." هوت العكاز على رأسه؛ أعولَ من الأمل، ومن الخوف: "لا تضرب! لقد خنت"، بصوت أقوى، "لقد خنت"، أقوى أيضاً، ليسمع الجميع. اصرخْ! "أنا خائن! مجرم!". لا، أنت لست مجرماً. أنت خائن!

رسول، أنت أهل لدخول مستشفى المجانين في علي آباد. كيف تريد لهذا الشخص المسكين أن يعلم بوساوسك؟ لم يُلمّ بها من قبل. الخيانة والجريمة في نظره هما الجُرم نفسه، وعلى مستوى واحد من حيث الخطورة.

لا. يعرف تماماً التمييز بينهما. هو منّا، من هذه البلاد حيث الخيانة أخطر من الجريمة. لا يهتم إن قتل المرء، أو سرق، أو اغتصب... المهمّ ألاّ يخون. ألاّ يخون الله، أو عشيرته، أو عائلته، أو وطنه، أو صديقه... وهذا ما فعله هو.

لا جدوى من البحث عن حجّة. لا شيء يبرّر ضراوتك ضدّ هذا الرجل، لا شيء، إن لم يكن ارتكاب جريمة أخرى، لكي تعيش مجدداً الموقف ذاته، والصدمة ذاتها، والانفعال ذاته الذي جعلك أخرس. وكلُّ ذلك لكي تستعيد صوتك؟

دع هذا الرجل يعش. لا صوتك، ولا صوت نبيّ حتّى، يساوي حياة إنسان.

امتقع لونه، وراح يضرب الجدار بالعصا ضرباً عنيفاً حتى انكسرت، ثم جلس. وأخذ الرجل يبكي.

بعد أن التقط رسول أنفاسه، أشعل سيجارة وألقى نظرة خاطفة على الأعرج الذي كان يحاول أن ينهض وهو يئنّ. أشعل سيجارةً أخرى وناوله إياها.

ثم غادر.

وصل إلى الساقي خانه.

لم يجد هناك كاكا سَرْوَرْ ولا زُمرته. لكنّ غرفة التدخين كانت غاصّة بالروّاد، وكانت أنظار الجميع شاخصة إلى رجل مهلوس، طويل اللحية وشعر الرأس، وكل منهم يعطيه شيئاً: كوباً من الشاي، ورقة من فئة خمسين ليرة أفغانية، رصاصة بندقية. أخذ المهلوس الورقة المالية؛ ثم أخذ الرصاصة فوضعها في فمه وابتلعها؛ وأخيراً أخذ كوب الشاي وشربه دفعةً واحدة. التفت أحدهم، وهو الذي أعطى المال، إلى الآخرين مذهولاً وقال: "بلغ العدد خمس رصاصات! هل رأيتم؟ هذه الرصاصة التي ابتلعها الآن هي الخامسة".

نهض المهلوس غير عابئ بالنظرات المندهشة، وبعد أن أطلق صرخة بحّاء "يا هوو" غادر غرفة التدخين، يتبعه بعض الرجال.

في مقابل سيجارتي مارلبورو سحب رسول نفساً طويلاً من الحشيش حبسه في رئتَيه. وأغمض عينيه. واختفى العالم، كما اختفت الرصاصات في فم الرجل، حتى الفجر.

في الصباح الباكر سمع صوت كاكا سَرْوَرْ يرنّ في الطابق العلويّ، في الشاي خانه. انضمّ إلى الزمرة التي دعته لتناول طعام الفطور معها. ثم نزل معهم إلى الساقي خانه.

وغادر الساقي خانه نَشْوانَ بما تعاطى من الحشيش.

خاف أن يعود إلى بيته. راوده إحساس بأن غرفته تعجّ بأشباح هاربة من كوابيسه: المرأة ذات الحجاب الأزرق السماوي، يرموحمد مسلّحاً بسكين، رازمودين مع دروسه الأخلاقية، وحتى دوستويفسكي مع **جريمته والعقاب**... سلكت خطواته المترنّحة الطريق إلى منزل صوفيا.

عمّ تبحث عندها؟

أحتاج إليها، ولا أحتاج إلى أحد سواها. أحتاج إلى أن تأخذني في طهارة دموعها، في وداعة ابتسامتها، في تواتر أنفاسها... إلى أن أموت من براءتها.

بعبارة أخرى، أنت في حاجة إلى سذاجتها، إلى ضعفها، لكي تغفر لك. ولا تحتاج إلى أي شيء آخر! دعها وشأنها. لا تجرّها إلى هاويتك.

توقّف.

سأكتب لها كلّ شيء في دفترها، وسأعيده إليها. سأعيد لها حياتها. حثّ الخطى. أعرجَ. سكّيراً.

بذل جهداً مضنياً لكي يصعد السلّم، ويصل إلى الباب، وينسلّ إلى غرفته. وعندما تمكن من ذلك أخيراً فوجئ برؤية مأواه مرتّباً، ونظيفاً. ثيابه مطويّة، وكتبه مكدَّسة في ركنها؛ وما من أثر لحطام الزجاج على الأرض.

من الذي جاء ليشقى في سبيله؟ رونا، زوجة يرموحمد، طبعاً. تلك هي، كالسابق.

اقترب من النافذة، وألقى نظرة خاطفة على منزل يرموحمد. كانت الباحة خالية، ولا خيال خلف زجاج النوافذ. اجتاحته نشوة داخلية طغت على ذهوله أمام غرفته المرتّبة أحسن ترتيب، ورغبته المعذِّبة في كتابة كل شيء إلى صوفيا.

في الواقع، بِمَ يفرح؟ بانتصاره على يرموحمد الذي لم يتمكّن أن يمنع زوجته من تنظيف مسكنِه؟

يا له من رجل متكبّر!

هذا الفرح الوضيع والصبيانيّ طار شعاعاً عندما وقع نظره على الدفتر العتيد، الموضوع بعناية في فتحة النافذة. انقضّ عليه والتقطه. هل فتحته رونا، هل قرأت أشعاره وأفكاره الحميمة الموجّهة إلى صوفيا؟ والجملة الأخيرة، "اليوم، قتلتُ نانا عليا"؟

اهتزّ الدفتر بين يديه. فتحه على الصفحة الأخيرة، وقرأ: "اليوم، قتلتُ نانا عليا". جلس على فراشه. وبعد فترة طويلة من التأمُّل، تناول

قلماً ليضيف: "قتلتها من أجلكِ يا صوفيا".

من أجلها؟ ولماذا؟

سأكتب لها لماذا. لكن أودّ أولاً أن أتكلّم عنها، عن براءتها الهشّة، عن هذا الذي لم أعرف من قبل أن أتحدث عنه بكلمات واضحة، من دون تنميق. "صوفيا، لم أعانقك قطّ من قبل، أتدرين لماذا؟...".

ترامت إليه ضجّة أقدام تصعد السلّم فعلّقت كلماته على رأس قلمه. قُرع الباب، ومن ورائه صوت أُنثويّ عذبٌ: "رسول جان، هذه رونا"، هبّ ليفتح الباب، "صباح الخير" قالت بحياء. كانت تحمل بيدها طبقاً مُغطّىً بمنشفة بيضاء. تنحّى مفسحاً لها المجال لتدخل وراقبها خُلسةً، متلهّفاً لتبيُّن ردّة فعلها عندما ترى الدفتر في يده.

"رسول، جئتك راجيةً أن تسامح يرموحمد. يبدو في هذه الأيام منزعجاً، متوتّراً، خائفاً... أنت تعرفه. أضف إلى ذلك أنه بات عاطلاً عن العمل. يبدو ببساطة مشغول البال..."، ناولته الطبق: "خُذ، هذا كِشمش بانير، من الجبن البيتي، الذي تحبه، والزبيب الجاف".

تناول رسول الطبق مرتبكاً وشكرها بحركة غامضة، كما ليقول لها ألاّ تقلق، وأن المسألة انتهت. وتعبيراً عن امتنانه بخصوص تنظيف المسكن قام بانحناءة، مشيراً بيده – التي تمسك الدفتر – إلى الركن الذي صفّت فيه كتبه بترتيب حسن. "رتّبتُها كما كنتُ أفعل من قبل. أيام...".

لم يعد يصغي إليها. وإذ اطمأنّ على غياب أيّ ظلّ للشك أو القلق في عينيها، بدا مفتوناً، كما في السابق، بشفتيها المكتنزتين

واللامعتين، وعينيها اللوزيّتَين، بلون البُندق الرمادي الأحمر. أما هي، العليمة بسلطان فتنتِها - وذلك منذ زمنٍ بعيد -، فراحت تلعب معه، عاضّةً على هُدبَ حجابها بأسنانها، مخفيةً بذلك شفتيها، إمعاناً في إغوائه. وكان رسول مقتنعاً بأن يرموحمد إذا ما كان حاقداً عليه فذلك عائد في جزءٍ كبير منه إلى ضعفه حيال رونا، ولا بدّ أنه يشكّ في جاذبيّته، وهذا مؤكّد.

"طيّب، أنا ذاهبة..." قالت وقد عزمت على الانصراف. لم يسمع رسول ما قالته من وراء هُدب حجابها، فتبعها. ولما بلغ العتبة توقف وتبعها بالنظر إلى أن توارت في ظلمة رواق منزلها. ثم ألقى نظرة شاملة على النوافذ علّه يلمح من ورائها خيال يرموحمد. لم يجد له أثراً. لا شك في أنه متغيّب عن المنزل. ولهذا السبب تجرّأت دونا على زيارته.

لو لم يكن رسول مشغول البال بأمور خارج المنزل، ولم يكن لديه هذا القدر من الوساوس والهموم، ولم يكن دفتر صوفيا في يده، لاستلقى على فراشه، واستسلم لاستيهاماته؛ ودسّ يده في سرواله ليداعب قضيبه، ولكان تخيّل مشهدين أو ثلاثة مع رونا لكي يستمني. واختار لهذا اليوم مشهداً تظهر فيه رونا عارية تماماً، وقد جلست في أرجوحة ابنتيها، رأسها مائل إلى الأمام قليلاً، وابتسامة ماكرة ترتسم على شفتيها؛ عيناها ترنوان إلى عيني رسول؛ وساقاها منفرجتان، والحبال ملتفّة على ذراعيها، ويداها موضوعتان على عانتها، تلامسانها... طيّب، الوقت غير مناسب. ولا بد للمرء من أن يكون مريضاً، أو مُنحصراً، أو مجنوناً هارباً من مستشفى على

آباد، حتى يفكر في هذا، الآن.

ضَعْ الطبق، أغلق الباب، وابدأ بالكتابة. فتح الدفتر مجدّداً.

"صوفيا، أنا لم أعانقك قطّ من قبل، أتدرين لماذا؟"، والتتمة؟ "أنني كنت أحتاج إلى كثير من القوّة لأعانق براءتك..."، من أين تأتي بهذا؟ ألا تستطيع أن تجد ذهناً أصفى، كلمات أكثر صراحة؟ أعانق براءتك؟ لو كتبتها لسخرتْ منك؛ ولقالت لك: "إكسِرْ براءتي! عانقني! وسأعطيك القوّة".

أغلق الدفتر محبطاً، ورماه بين الكتب، وارتمى على السرير. أخفض جفونه ليجد في العتمة والصمت الكلمات المنشودة. غير أن ضجّة السلّم انتزعته من سريره. خطوات ثقيلة، هذه المرّة. "رسول، هذا رازمودين" لم يكن وحده إذ كان أحدهم يهمس في أُذنه. لبث رسول ساكناً. "رسول؟" ردّد رازمودين وهو يضرب على الباب. بعد انتظار قصير نادى ابنتي يرموحمد: "إيه، هل غادر رسول؟".

– كلاّ، هو في غرفته. لعلّه نائم، أجابتا بصوت واحد. تبّاً لكم، زأر رسول في قراة نفسه، ثم نهض.

"رسول!" ناداه رازمودين مرّة أخرى، هازّاً الباب المقفل من الداخل، ثم ضرب بقوة أشدّ. لحظة، غمغم رسول بصمت وذهب ليفتح.

"آه" هتف رازمودين مقترباً؛ وخلفه رجل قصير القامة، نحيل، يعتمر عمامة بيضاء. "رسول، تلطّف القائد رستم بالمجيء لزيارتك و..." تقدّم القائد رستم نحو رسول، "عزيزي رسول" احتضنه، "أخيراً تمكّنت من لقائك!" تراجع رسول، فاتراً وغير مرحّب. لبث

رستم عند العتبة، منتظراً أن يدعى إلى الدخول. أخذ رسول المبادرة؛ أسرع إلى الداخل ووجّه إليه إشارة الترحيب. دخل الآخر، واندفع في الكلام بلهجة احتفالية: "عزيزي رسول، جئت من طرف المبجّلة أمّك. لا أدري من أين أبدأ. عندي خبران من عائلتك. أحدهما سيّئ ومحزن جداً، والآخر طيّب ومُفعم بالأمل. أعلن لك، بفائق الأسى، أن والدك، الذي كان مسلماً صالحاً، وطهوراً، أسلم الروح بشجاعة إلى الله الغفور الرحيم. مات شهيداً. أتقدّم منك بأحرّ العزاء. ولتكن الجنّة مأواه. وأسأل الله الرحمن الرحيم أن يُلهم عائلته الصبر والسلوان، وينعم عليها بطول البقاء والعيش في رخاء..." ثم رفع يديه مبتهلاً: "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"[١]. بعد ذلك سكت في انتظار أن يتكلّم رسول. تأمّله رسول غير متأثر بما سمعه. بدا رستم مرتبكاً أكثر منه مندهشاً وهو ينظر خفيةً إلى رازمودين، ومن دون أن ينتظر دعوةً للجلوس خلع حذاءه واتّخذ لنفسه مكاناً على الفراش. انضمّ إليه رازمودين؛ وراحا يحدقان في رسول الذي جلس في مكان بعيد غير مبالٍ دائماً.

صمت.

صمت كئيب حاول رستم أن يخرقه مقدّماً سيجارة إلى رسول – الذي رفضها – ثم إلى رازمودين؛ وأخذ ثانيةً بطرف خطابه: "طبعاً، قالت لي أمك العزيزة إنها أخبرتك بهذه الأحداث المؤسفة في رسالة بعثت بها إليك... لكن يبدو لي أن رسالتها لم تصلك..." هزّ رسول رأسه وحرّك حاجبيه للتعبير عن أنه تسلّم الرسالة فعلاً،

١ هكذا في الأصل Inâ lellah wa inâ – ellaïhé râdj'oun (المترجم).

وذلك بطريقة زادت من بلبلة رستم بعض الشيء. وراح يراقب محتاراً حركات رسول وهو يقلّب كتبه بحثاً عن رسالة والدته التي ما لبث أن لوّح بها أمام ناظري رستم ورازمودين الذاهلين، ثم عاد إلى مكانه، وأمسك بفتور مِنشَّة بلاستيكية ليطرد بها الذباب الذي يحوم حول طبق الكشمش بانير.

"تسلّمتها إذاً؟" سأل القائد.

نعم.

"لكن... أمك المحترمة تظنّ أنك لم تعلم بخبر أبيك الشهيد! انتظرتك طويلاً بعد أن بعثت إليك تلك الرسالة...".

حدج رسول بنظرة مؤنّبة رازمودين الذي أبقى عينيه منخفضتين، تتطلّعان إلى أطراف أظفاره، خشية أن يسمع قريبه وهو يقول: "أبي، ميتاً أو حيّاً، لم يكن له عندي كبير أهميّة". لا شك في أن رازمودين لم يتحدث عن ذلك إلى رستم. لكن لماذا؟ كان ينبغي له أن يفعل!

ضرب رسول بالمِنشّة ذبابة حطّت أمامه، وطوّح بجثّتها نحو الباب. التقط رستم الرسالة. ولاقى صعوبة في تمالك نفسه وقد تمكّن منه الغضب. "تعلم أن واجب المرء تجاه أهله يسمو على كل شيء في نظر الشاب المسلم الأفغاني. دم الأب ثمنه غالٍ... لكن..." قوطِع بضربة منشّة سحقت ذبابة أخرى. التفت إلى رازمودين مغتاظاً: "تعلم كَم ستعاني أُمّه وأُخته إذا ما عرفتا كيف تصرّف هذا الشاب حيالهما، وحيال المرحوم إبراهيم؟" أيّده رازمودين بحركة من رأسه، متخيلاً في الوقت نفسه ما يفكّر فيه رسول: "كلاّ، ينبغي أن تكونا مرتاحتين بعد موت أبي".

تزايدت حيرة رستم من صَمْتَة رسول، وعبّ جرعة كبيرة من دخان سيجارته وانتظر؛ انتظاراً لا طائل من ورائه. ثم نفد صبره: "باسم الله، قُلْ شيئاً!..." ترك رسول المِنشة ورمقه طويلاً بازدراء. كان رازمودين يعلم تماماً ما الذي يثور في نفس رسول إلا أنه لا يفهم لماذا يبقى ساكتاً. من قبيل الاحترام؟ ليس هذا من شِيَمه. ينبغي له أن يزِن كلماته لكي يشتم، كالمعتاد، كل أولئك الذين يعمدون، باسم التقاليد، والشرف، أو الدين، إلى تشجيع الناس على التقاتل، والأخذ بالثأر، وإذكاء الحرب... "أتعلم مَن قتل أباك؟" رفع رسول كتفيه استخفافاً، هذا أمر لا يعنيه. "قتله لصّ، شرّير، من أجل المال... من أجل المال!" إذاً، هو شخص جائع. وليس في الثأر من جائع أي فائدة. أبي، بصفته شيوعياً، كان يقاتل، على ما يدّعي، باسم العدالة من أجل الجائعين، كان يقتل الأغنياء لإنقاذ الفقراء، أليس كذلك؟ لا بد أن روحه يُسعدُها أن ترى بعض الجياع يأكلون بفضل ماله!

يكفي رازمودين أن يخمّن ما الذي يدور في رأس رسول حتى يرتعب. غير أنه مندهش، لا، ليس مندهشاً، بل مرتاح برؤية رسول ساكتاً. ويجب أن يستفيد من ذلك. عندئذٍ التفت نحو رستم ليعتذر إليه: "منذ بضعة أيام ساءت صحّة قريبي..." قوطع بحركة رسول الذي نهض بغتةً ومضى ليضع حذاء رستم في الخارج ويشير إليه أن يغادر الغرفة.

هبّ رستم واقفاً وقد خرج عن طوره وصاح: "لكن يا لك من ولد بلا أدب[1]! عاقّ"، ثم توجّه إلى رازمودين قائلاً: "لولا احترامي

١ هكذا في الأصل beadab بالفارسية (المترجم).

لأمّه وأخته لبقرت كرشه في الحال!" وبصق على الأرض، عند قدمي رسول. ولكن قبل أن يصدر أي ردّ فعل من رسول كان رازمودين قد أكره رستم على الخروج.

أغلق رسول الباب ولبث واقفاً في وسط الغرفة، مصغياً إلى رازمودين الذي كان يجري خلف القائد: "لا تغضب، لا تُسئ الظنّ به. هو مريض، أُقسِم لك. يبدو غريباً منذ وفاة والده. منذ شهر والجميع يشكو منه..." ابتعد صوته في الزقاق، واختفى.

جلس رسول، وقد أفرغ غيظه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة. تناول المنشّة وأجال النظر في ما حوله باحثاً عن ضحية أخرى. وما إن حطّت ذبابة على فراشه حتى صرعتها المِنشّة وقذفت جثّتها نحو الباب.

الآن، وقد استعاد هدوءه، تناول رسالة أمّه من جديد وقرأها من البداية إلى النهاية. حمداً لله، ليس لأمه ذلك الخط الجميل ولا تُحسِن التعبير عن الأشياء في عشر صفحات مثل أُمّ راسكولنيكوف! هذه الرسالة قصيرة، سيئة الخط، تكاد لا تُقرأ.

أعاد قراءة الجمَل المتعلّقة بأخته دُنيا. "هناك رجل، غنيّ ونافذ، يطلب يد أُختك..." لكن مَن هو؟ لماذا تجنّبت أمّه أن تكتب اسمه؟ غني ونافذ، هذا يعني أنه ليس مغموراً. لا ريب في أنه رجل مريب، سيئ السُمعة. لذلك لا تريد أمه أن يعرف عمّن تتحدّث.

شرد نظره على الورقة، خشية أن يعثر على كلمات لا يحبّ قراءتها أبداً. لكنّها هنا، الكلمات، أوضح من البقية: "دنيا موافقة، غير أنها تريد الحصول على موافقتك أولاً. أنت الآن رجل بيتنا...".

طوى الرسالة. "...رجل بيتنا". عندما قرأ الرسالة أول مرّة ملأته هذه الجملة فخراً، "رجل بيتنا"، أما الآن فأدرك أنها تتضمّن رسالة أخرى، مهينة تقريباً. كل كلمة منها لها طابع آخر، ورنّة أخرى. ما عادت كلمات ساذجة، بريئة. كلمات تنضح بالسخرية، والمآخذ، والمسكوت عنه...

رجل بيتنا!

كلاّ، أمّك ليست قادرة على أن تكتب إليك مثل هذه الرسالة. أنت الذي أوجدت هذا الانطباع الكريه. إقرأها في يوم آخر ولن تجد فيها غير حكمة ورِفق.

طوى الرسالة ليدسّها في كتاب. لكن ليس في أيّ كتاب. طبعاً، سيضعها في أحد جُزءَي **الجريمة والعقاب!** والأسوأ: بين الصفحات التي يقرأ فيها راسكولنيكوف رسالة أمّه.

هذا كثير يا رسول!

ما كاد يعيد الكتاب إلى موضعه حتى فُتح الباب مجدّداً، بعنف، وملأ صوت رازمودين الغرفة: "ما عدت حريصاً على حياتك أم ماذا؟ أتريد أن ترديك قريباً رصاصة ملعونة؟ عَمّ تبحث تحديداً؟ أنت مريض حقاً". نظر إليه رسول، وتردّد في تسليمه رسالة أُمّه. "لِمَ تصرّفت كغبيٍّ أرعن؟ أتعلم أنه أنزل عمتي ودنيا تحت سقف منزله، لئلاّ يتركهما وحيدتين؟ قطع هذه المسافة الطويلة لكي يطمئنك ويعطيك نقوداً. خُذ!" أخرج من جيبه رزمة من الأوراق المالية ورماها على طرف الفراش. "ما اكتفيت بالامتناع عن شكره حتى امتنعت عن مخاطبته! لماذا؟". إثر هذا التوبيخ، فتح رسول الكتاب

مجدداً، واستعاد رسالة أمّه وناولها رازمودين. إقرأ! فقرأها. كانت كلّ كلمة تُضنيه، وتُدخِل رأسه بين كتفيه، وتُرجِف يده. فليفهمْ الآن لماذا هذه النقود! أي نعم، هذا الكرم، وهذه اللطافة، ليسا كُرمى لرسول. بهذه النقود يريد رستم أن يشتري دنيا. دنيا، قريبتك. تلك التي تحبّها وتريد أن تتزوّجها. 'البشرى' التي أراد ابن العاهرة هذا أن يزفّها هي هذه إذاً؟ تساءل رازمودين وقد اعتراه الشحوب. هذا هو السبب الذي جعل رسول يعامله معاملةً شنيعة. كان ذلك لمنعه من إعلان الخبر أمامك. "دنيا!" هتف رازمودين. أمسك رسول من كتفيه وسأله بصوتٍ مخنوق: "لكن... لكن لِمَ لم تقل لي شيئاً؟" حرّر رسول كتفيه. "لو أنك أخبرتني لذهبت إلى مزار، ولاصطحبتك إليها أيضاً..". إذاً، اذهب الآن، ودَعْ رسول هادئاً. "سأذهب معك" ما عاد رسول بقادر على أن يفعل شيئاً. اذهبْ يا رازمودين، أعِدْ أمّه ودنيا إلى كابول.

اشتعل رازمودين حماساً: "سنذهب لإحضارهما..."، لكنّ نظرة رسول القانطة تغلّبت على اندفاعه. ثم استردّ هدوءه: "كلاّ، هنا أصبح الوضع شديد الخطورة. سنذهب كلّنا إلى طاجكستان". لا، أومأ رسول متعباً: "في الواقع، هنالك أيضاً منطقة واقعة تحت نفوذهم"، "أين إذاً؟ جِدْ حلاً، عجباً". إفعلْ ما تشاء، لكنْ دَعْ رسول هادئاً... هادئاً!

لبث رازمودين محبطاً، يتنازعه السخط حيال صمت رسول غير المفهوم، وخشيته من خطر يأتي من قِبل رستم. ثم صفق الباب فجأةً، وسُمِع وقعُ خطاه الساخطة وهي تهبط السلّم وتطرق أرض الباحة،

وتتلاشى أخيراً في غبار الغسق.

أغمض رسول عينيه منهكاً من دون أن يغفو مع ذلك.

هبط الليل حالك الظلمة.

اجتاح الغرفة.

وعندما ارتفعت أصوات الأذان معاً، سالبةً المدينة نومها، فتح رسول عينيه بمشقة، ثم استوى جالساً، وأسند ظهره إلى الجدار، ساقاه مطويّتان ومضمومتان إلى صدره.

كان يرتجف. يرتجف من الغيظ، من الخوف، من الجبانة... من كلّ شيء.

كلّ شيء يجيش في صدره.

ينفخ ويمزّق حنجرته، خفيةً. وأسبل دمعَه.

نام.

فجأةً، استيقظ مذعوراً على دويّ انفجار هائل. جلس على الفراش وهو يتصبّب عرقاً واتجه نظره نحو النافذة. ما زال الليل حالكاً خلف النافذة، والدخان الكثيف يمنع القمر من التسلّل إلى حُلم المدينة.

أشعل رسول الشمعة التي تركتها رونا في مُتناوَل يده. وجرّ قدميه نحو إبريق الفخّار. لم تكن فيه قطرة ماء واحدة.

رجع إلى سريره، وثبّت نظره على رِزمة الأوراق المالية التي تركها رستم لرازمودين. لمح عليها ذبابة تتبختر. الرزمة هي نفسها التي كانت نانا عليا تقبض عليها بيدها المتصلّبة واللحيمة. هذا لا يعدو كونه انطباعاً. كل الرِزم متشابهة.

التقِطْها!

التقَطَها بعد طول تردّد؛ التقطَها بحركة عصبية، كما لو كان يريد بها أن يتلقّف الذبابة أيضاً. طارت الذبابة وانضمّت إلى سربها المتجمّع فوق المنشفة البيضاء التي تغطي الجبن البيتي والزبيب الجافّ.

تأمّل النقود طويلاً، ثم ألقاها بعيداً؛ خوفاً، أو اشمئزازاً.

دخّن سيجارة.

وفكّر.

فكّر أن هذه النقود قد لا تكون في نهاية المطاف بمثل قذارة نقود

نانا عليا، ولا خطِرة حتى. ما سبب هذا النفور إذاً؟ "الكبرياء!" كان ليقول رازمودين، "تَنْخُركَ الكبرياء نخراً يا رسول. كبرياء لا أساس لها. كبرياء غير معقولة".

نعم، لا أنكرها، هذه الكبرياء التي لا تستند إلى شيء. وليعلمَ العالَم: أُفضّل الكبرياء على الفخر. أن تكون فخوراً يعني أنك فخور بشيء ما، إذاً أنت متعلّق بهذا الشيء. أما الكبرياء فإحساس عميق، مستقل، من دون مرجع اجتماعي. الفخر يمنح الشرف؛ الكبرياء تمنح الكرامة.

كلمات، كلمات، يطرب لها السمع. أنت على الرغم من كل ما عشته، وما زلت تعيشه، لم تتوصّل بعد إلى إقناع نفسك بأنك تحتاج إليها، هذه النقود. حوالي خمسين ألف ليرة أفغانية إجمالاً. يمكنك أن تنقذ أمّك، وأختك، وخطيبتك معهما. أليس في تركك أسرتك تهلك إهانة لكبريائك، لكرامتك؟

أخذ نفساً طويلاً من سيجارته مغتاظاً، وعندما نفث ما في صدره من دخان أطفأ الشمعة. ثم استلقى وانتظر في العتمة. انتظر طلوع النهار لكي يبحث عن قريبه ويعيد له المال.

كلاّ، ما بهذا المال سأُنقذ عائلتي.

فليكن. لكن بِمَ تنقذها إذاً؟

تقلّب في فراشه، وتلوّى؛ وبأظفاره حكّ قُشارة الدُهان فانفصلت أجزاء منها عن الجدار، ثم لحسَ أطراف أظفاره، كما كان يفعل في طفولته، ووجد أن فُضالة الدهان لم تزل مثيرة للقيء. لحسها لكي يتقيّأ ولا ينام.

لم يتقيّأ.

ونام ثانيةً.

عند طلوع النهار وصل إلى فندق متروبول. كان الحيّ مطوّقاً، محميّاً بدبّابتين وبعض سيارات الجيب المسلّحة وعربات تحمل شارة الأمم المتحدة UN. تقدّم رسول بخطى واثقة أمام الفندق. هنالك اعترضه رجلان مسلّحان. حرّك رسول شفّتيه كأنما يريد أن ينطِق باسم رازمودين.

"ماذا؟"

فجأةً، ضاع كل شيء في الضوضاء. كان رجال يحملون جثة "شهيد" وهم يهتفون: "الله أكبر"[1] ثم "الثأر لشهدائنا!"[2]. ترك الحارسان رسول وحيداً، وانضمّا إلى الموكب حيث اختفيا. أما هو فدخل إلى الفندق. كان البهو يغصّ برجال مسلّحين وصحافيين، يترقّبون. ماذا؟ لا يبدو على أحد أنه يعرف. الكل بالمرصاد. اتّجه رسول نحو السلّم المؤدّي إلى مكتب رازمودين، وفي طريقه مال إلى زاوية كمن فيها لمّا رأى في الطرف الآخر من الرواق القائد رستم يصحبه رجلان – هما اللذان التقاهما في مكتب برويز، واللذان أفرغا ما في جعبتهما من حقد غير محدود على هذا القائد القادم من مزار شريف – وكان الجميع مبتهجين على الرغم من الجوّ المتوتر في الفندق، وبدت على وجوههم سِمات المتواطئين.

وصل رسول خلسةً إلى مكتب رازمودين. لم يكن هناك. لا بد

---

١ هكذا في الأصل Allaho Akbar (المترجم).

٢ هكذا في الأصل Shahids (المترجم).

أنه ذهب إلى مزار، بحثاً عن دنيا. هو ذا رجل حقاً. يقوم بما يجب عليه أن يقوم به. حسناً فعل.

نعم، حسناً فعل، لأنه يُعفيك من مسؤوليتك.

حَسْبي. اعتبروني جباناً، لا أصلح لشيء. ما أنا إلا ولد فاشل، صديق فاشل، عدوّ فاشل، طالب فاشل، خطيب فاشل، مجرم فاشل... ولا شيء آخر. دعوني أثمل، أُحوِّم في هُوَى القِنَّب الشاعرية.

وقرعَ بابَ الساقي خانه. "مَن هناك؟" سأل حكيم، صاحب غرفة التدخين، ناظراً من خَصاص الباب. "أهذا رسول؟". نعم. "لكن أيّهما؟ القديس أم الحشّاش؟" بذلك ارتفع صوت كاكا سَرْوَرْ. فتح حكيم الباب ضاحكاً وجذب رسول إلى الداخل. كان كل ما هنالك كالمعتاد، ضبابياً وعائماً في دوائر الدخان الملتفّة، كما في حُلم.

أغلق حكيم الباب، ودلّ رسول على مكان في حلقة المدخنين، جوار شاب مُنجذب. "جلال، أفسح له مكاناً".

غير أن شاباً آخر، يجلس إلى جانب جلال، هو الذي تنحّى له قائلاً: "لا تُفسد متعته. جلال يُحلِّق في السماء السابعة. إن تحرّك هَوَى. تعال هنا، يا فتاي، قُرب مصطفى. ستكون في أحسن حال". أجلس رسول إلى جانبه وناوله الغليون: "خُذْ، لأجلك أنت الآتي طازجاً". أفرغ رسول أولاً صدره من هواء المدينة المكبرَت، ثمّ تنشّق دخان الحشيش بقدر ما سمحت رئتاه.

"جلال هذا، جاءت به أمه إلى العالم بفضل الأفيون. كان ضخماً، على ما يبدو، وبقوة الأفيون أمكنها أن تلِد جلال. لقد وُلِد إذاً مع الأفيون، في سرور... ما أحسن حظه". نفث رسول الدخان ملقياً

نظرة خاطفة على جلال، الذي رفع رأسه وتمتم: "ألم تبدأ الحرب بعد؟". همس مصطفى: "عمّ يتحدّثون في الخارج، انقلاب آخر؟".
رفع رسول كتفيه ليقول إنه لا يعرف شيئاً من هذا، وسحب نفساً آخر.
"لا يعرف شيئاً هو أيضاً، كاكا سَرْوَرْ" قال مصطفى، مشيراً إلى رسول. "ما هو برسول إذاً، الرسول القدّيس".
هزّ كاكا سَرْوَرْ رأسه: "جهل كل شيء، تلك هي الحكمة! نعم، هذا الشاب فهم كل شيء. يعرف كلّ شيء، لكنه يجهله".
برز رأس رجل آخر من وسط الدخان:
– منذ بضع سنوات ونحن نجهل كل شيء، كما أن العالم يجهلنا. هذا أيضاً، أهو من الحكمة؟
– هذا ليس مماثلاً.
– إذاً، ما عدت أفهم شيئاً مما تروي، كاكا سَرْوَرْ.
– إسمعْ، عندما تقول إنك لا تعرف شيئاً، فهذه بداية الحكمة. وعندما تقول إنك تجهل كل شيء، فهذا يعني أنك توصّلت إلى المعرفة المطلقة. أتعرف شيئاً عن هذه الحرب؟
– كلاّ.
– جيّد جدّاً. أنت تعرف أنك لا تعرف. هذا شيء عظيم حتى الآن. وعندما تدرك سبب هذه الحرب، تودّ لو أنك تجهل كل شيء. هيّا، مَرِّرْ لي الغليون!
دخّن ثم أردف قائلاً:
– حكيم بين الحكماء، يدعى العطّار[1]، كان يقول إن المسافر في

[1] يقصد المتصوف فريد الدين العطار، والحديث مستقى من كتابه **منطق الطير**.

وادي الدهشة – الوادي ما قبل الأخير للحكمة، الذي يُسمّيه وادي الحَيرة[1] – يبقى ذاهلاً ويتوه. ينسى كلّ شيء، ويَنْسَى نفسَه!

ثم أغمض عينيه وأنشد شعراً:

– إذا قيل له: أتكون، أم لا تكون؛ أعندك، أم ليس عندك الإحساس بالوجود؛ أأنتَ في الوسط، أم لستَ في الوسط، أم أنت على الحافّة؛ أأنت مرئيّ أم مخفيّ؛ أأنت فانٍ أم خالد؛ أأنت الواحد أم الآخر؛ أموجود أنت أخيراً، أم أنت غير موجود؟ سوف يجيب على وجه اليقين: "لا أعرف شيئاً. أجهله، وأجهل نفسي. أنا مُغرم، لكن لا أعرف بمن؛ أنا لست مؤمناً ولا غير مؤمن. من أكون إذاً؟ أجل حتى حبّي؛ لي قلب مُترع بالحب وفارغ في آن".

"وماذا بعد، هل نحن في ذلك الوادي؟" سأل حكيم حاملاً المدخنين على الضحك.

"لو أنك، بدل أن تطرح علينا أسئلة غبية، تتوصّل إلى إدهاشنا بحشيشك، لكان الجواب: نعم" قال كاكا سَرْوَرْ، وبعد أن تنشّق نفساً طويلاً، مرّر الغليون إلى جلال، وقد استعاد حواسّه: "الحرب لم تبدأ بعد، إذاً".

"انتهت الحرب من قبل. دّخِّنْ، دَخِّنْ ناعم البال" طمأنه مصطفى. ثم التفت إلى رسول قائلاً: "هذا لأنه يخاف من الحرب. يخاف من الدم، من الرصاص ومن الصواريخ. من أجل ذلك يريد، قبل أن يموت في الحرب، أن يقتل نفسه بالإفراط في تدخين الحشيش. منذ أربعة أيام ونحن نحوم من ساقي خانه إلى أخرى".

---

١ هكذا في الأصل Wadié Hayrat (المترجم).

كفّ الغليون عن السحب. رفع جلال رأسه، وبدا في منتهى الشحوب: انتهى؟

– الحرب؟ نعم.

– لا، الحشيش...

تقدّم حكيم نحوه ليزوّده بغليون جديد: معك نقود؟

– نقود؟... مصطفى، معك...؟

– لا يا جلالي. جيوبنا جافة كمؤخّراتنا.

نهض رسول، مترنّحاً، وسحب من جيبه ورقة من فئة الخمسمئة ليرة أفغانية وأعطاها لجلال. رمقه الجميع باندهاش وإعجاب. أخرج ورقة أخرى مماثلة وناولها لحكيم لكي يشتري كباباً للجميع.

ارتفعت كل الأصوات شاكرة. أما هو فغادر الساقي خانه، فخوراً، خفيفاً، أخفّ من الهواء. يا لها من نشوة. من الآن فصاعداً سوف يعيش بنقود رستم كما كان ليعيش بنقود نانا عليا، عزيز النفس سعيداً.

الآن سأبحث عن صوفيا. سأضمّها بين ذراعي. وسوف نتزوّج. وآخذهنّ، هي وأُسرتينا، إلى مكان ما بعيداً من هنا، إلى ما وراء حدود الرعب.

ركض.

زلزل صاروخ الأرض تحت قدميه.

ركض.

لا شيء يوقفه، لا الرمايات، ولا المرور، ولا الألم في عرقوبه.

لا شيء يؤثّر فيه، لا الصراخ، ولا البكاء، ولا نداءات الاستغاثة.

لم يتوقف إلا أمام منزل صوفيا. هنالك انتظر، لاهثاً، إلى أن استردّ أنفاسه، ثم قرع الباب.

بعد فترة طويلة من الصمت، فُتِح الباب. هذا رسول. عجباً، ليس على السطح! "في هذه الساعة، ما من حمامة تطير". أغلق داوود الباب، وتبع رسول مضطرباً: "حمامتي عادت، حالما غادرت أنت رجعت. أظنّ أنها فرّت بعيداً من هنا..." ضحك هازئاً: "بعتها مجدّداً في مقابل..."، اتجه، مسروراً وفخوراً، نحو ركن في الباحة، وأخذ شيئاً من تحت قفص الحمام، وحمله إلى رسول: "اُنظر في مقابل ماذا بعتها". كان هذا مسدّساً من طراز كولْت. "في حالة جيّدة!" فحص رسول مخزن الخرطوش فوجده محشوّاً. "أخذته من أجلك...". من أجله؟ ماذا سيفعل به؟ "كل الناس لديهم مثله، إلاّ أنت! إن كان لديك واحد فلن تموت. خبّئه لئلاّ تراه أمي"، وإذ ساوره القلق استردّه منه وأخفاه تحت قميصه.

"جاء قريبك. كان يبحث عنك. قال إنه ذاهب إلى مزار". تقدّم رسول في الرواق وأبصر نوراً في المطبخ. دخل وحيّا أم صوفيا. "كيف حالك يا ولدي؟ جاء رازمودين، وأخبرنا عن أبيك. تغمّده الله برحمته وجعل الجنّة مثواه. كيف حال أمك وأختك؟" تجنّبت نظرة رسول. "كم عليها أن تعاني أيضاً، أمك المسكينة!" وساد صمت، حداداً.

وصوفيا؟ أين هي؟

ألقى رسول نظرة على الرواق. ما من صوت ولا دليل عليها. "طلبتُ بعض المال من نازيغول، قلت في نفسي لمرّة واحدة سيأكل

ولداي حتى الشبع" قالت كما لو أنها تبرّر شيئاً ما. لكن ماذا؟ انحنت على موقد الطبخ، ونظرت في داخله وكأنها تبحث عن كلماتها.

وبعد طول تردّد قالت: "ذهبت صوفيا إلى بيت نانا عليا". كان صوتها جافاً، في منتهى الجفاف. "جاءت نازيغول تطلبها. إنها وحيدة. ذهبت أمها لا يُعرف إلى أين. لديها عمل كثير، وستعود صوفيا في وقت متأخر". لكن مع ذلك كان قد طلب منها ألاّ تعود إلى هناك. وعادت. بعبارة أخرى، لم تعد لتعليماته أية قيمة لديها. هذا كل ما في الأمر. استدار ليذهب، غير أن أمّ صوفيا أوقفته من دون أن تلتفت: "رسول..." وسكتت، سكتة لا تنبئ بسماع ما يسرّ: "لديّ... أمران أو ثلاثة أقولها لك..." قُضي الأمر. سوف يستمع رسول إلى ما كان يخشاه، فَلْتَبصقْه. "لكن لا أعرف كيف أقولها لك" تمخّطت بهُدْب خِمارها. "لا تأخذها على محمل السوء. أَعلم أننا نتفاهم...". نعم، رسول يفهمك جيداً. منذ بعض الوقت وهو مستعدّ لسماعك تقولين ما يجثم على قلبك. قولي له كل شيء: "حتّام ننتظرك؟ لا سيّما أن حياتك تغيّرت الآن. لديك أمك وأختك اللتان تحتاجان إليك أكثر منّا. يجب أن تعود لتكون قربهما". شعر رسول بأن جسده يفرغ. يفرغ من الدم، ومن الأمل، ومن الحياة. ما عاد سوى قشة من تِبن، جوفاء، جافة، ضئيلة، جديرة بأن تلقى على الأرض، وتذهب بها نسمة ريح. استند إلى الجدار خشية أن يقع عند قدميّ أم صوفيا التي ترهقه: "يجب الآن أن نفكّر في أنفسنا. لا يمكننا انتظارك إلى الأبد. لا شيء لديك. لا عمل، ولا مال. حتّام؟ دَعنا نتولّ أمرَنا بأنفسنا، جِدْ حلاًّ". لكنه يحبّ صوفيا. "عُد إلى أمك

يا رسول! سوف نتدبّر أمرنا. لا تقلق". لكنه يحبّ صوفيا.

نعم، هي تعلم ذلك، ولذلك سكتت، علّقت كلماتها لكي لا تعبّر إلا بنظرتها، المفعمة بالأسف والأسى حيال رسول. نكّس رأسه. وبعد أن مكث طويلاً خائر القوى غادر المطبخ، والرواق. لمح في أحد أركان الباحة داوود الذي كان يعالج على ضوء سراج جُرحَ حمامةٍ جريح. أخرج رسول رزمة الأوراق المالية وأعطاه إيّاها كلّها. "ما هذا؟". ثمن مسدّسك الكولت. أخذ داوود الرزمة فرحاً وناوله السلاح. "كل هذا المال لي؟". نعم. "كلّه؟". كلّه. "كم حمامة يمكن شراؤها بهذا المبلغ؟". تركه رسول يجري حساباً، واختفى في شوارع ده أفغانان، كظل في الغسق، غامض، وفارغ.

نعم، فارغ. فارغ من كل مادّة.

لا، يا رسول، أنت لستَ فارغاً. أنت متحرّر. متحرّر من كل إكراه، من كل مسؤولية. متحرّر لأن صوفيا لم تعد بحاجة إليك. ليس أكثر من أمك وأختك.

نعم، هذا هو الفراغ بعينه: عندما لا يعود أحد بحاجة إليّ، وعندما لا يعود لدي ما أعطيه. سِيّانَ عندهم بقائي والعدم.

تماماً. من دونك، لن يصبح العالم فارغاً، بل مُفرَغ منك، هذا كل شيء.

لا أريد أن أقحم صوفيا في هذا الفراغ.

إذاً، اتركها!

سوف أتركها. لكن قبل ذلك يجب أن أخبرها أنّ نانا عليا لم تعد موجودة، وأنني قتلتها بيدَيّ هاتين.

ستعلم ذلك ذات يوم أو آخر. هذا المساء تكون مع نازلي التي تقدّم "الضيافة" التي كانت تؤمّنها أمّها. عامر سلام ومدعووه، ماذا ستفعل؟

توقف رسول.

في صدره نحيب لا يعرف كيف يتخلّص منه. بحث عن سيجارة في جيبه. لمست يده السلاح. ارتجفت. نضحت دموعه. بكت موته.

سقط جسدٌ على الأرض. فتح رسول عينيه. ميّز جلال من خلال حجاب الدخان، فزحف نحوه حتى قاربه وهزّه. لا أمل. كان جلال يرقد وخيط من الدم ينساب بطيئاً من فمه. "هذا رجل سعيد" تمتم كاكا سَرْوَرْ وهو مُغمض العينين مُنطوٍ على نفسه. "ما عاد يتحرّك" لاحظ شاب يجلس جوار رسول. فتح كاكا سَرْوَرْ عيناً واحدة، وألقى نظرة نحو جلال مردّداً: "هذا رجل سعيد. ولِد في النَّشوة ومات في النشوة".

- ماذا يمكن أن نفعل من أجله؟

"لا شيء" همس مصطفى من موضع آخر، غائص في ركن من الساقي خانه، ويداه مدفونتان تحت إبطَيه.

"أن يموت، تلك هي إرادته. الآن وقد باتت حياتنا بيد الآخرين، اتركْ لنا الحق في أن نموت. دعه هادئاً، أيها الشاب، لا تجعل الموتَ صعباً عليه" قال كاكا سَرْوَرْ، وهو مغمض العينين، وترنَّم بصوتٍ خافت: "يأتي المرء ويذهب، ولا يبقى منه أثر/ يوجد ويحيا، لا تبقى منه رِمَّة. في نار هذه الآلة الجهنّمية تحترق الكائنات البصيرة وتصبح رماداً، من دون دخان".

تراجع رسول وأسند ظهره إلى الجدار، ثم أمعن النظر في جلال، على أمل أن يرى الموت قادماً مرّةً أخرى؛ موتٌ عذبٌ، هادئ، سوف يأخذ جلال بعيداً من هذا الجحيم. موت يمنعه من أن يموت برصاصة طائشة، أو ضربة فأس. موت بلا عذاب. ولن يكون هناك

مَن يُتَّهم، ويُدان، ويُعدم. ما من مُذنب. وما من جريمة ولا عقاب.

أخرج من جيبه سيجارة وأشعلها، ثم نهض وغادر الساقي خانه عائداً إلى غرفته العاجّة بالذباب. توجّه نحو السرير مباشرةً، وسحق عقب سيجارته على الجدار، ثم استلقى. أزعجه شيء في جيبه. إنه المسدّس. ما العمل؟ تساءل. ما العمل؟ ردّد في صمت حنجرته، ثم حاول أن يصرخ آملاً أن ترنّ هذه الكلمات على شفتيه في الغرفة، عند سفح الجبل، فوق المدينة... لكن ما من صوت ولا جواب.

ما العمل، هذه العبارة يجب أن تُقال من دون أي علامة استفهام. ما هذا بسؤال بل حالة. نعم. هذه هي. حالةُ بلادَة. حالةٌ كلُّ سؤال فيها يُدهشنا بدل أن يُسائلنا، يدعونا بدل أن يستَجوِبنا.

ما العمل.

هذه الحالة عرفتها من قبل، رأيتها من قبل، حتى أنني شعرت بها في عينَي حمار.

كنّا في فصل الخريف، وكان عمري أحد عشر عاماً.

كما جرت العادة في ذلك الفصل من كل عام، كنت أرافق أبي في رحلة صيد إلى ضواحي مدينة جلال آباد حيث يملك أجدادي لأمي قلعةً من طين. آنذاك لم يكن السوفيات قد احتلّوا البلاد، ولم تكن الحرب قد بدأت بعد، وكان والدي على أتمّ وفاق مع أهل والدتي الذين كانوا يكرهون الشيوعيين.

وكالمعتاد، أخذنا حماراً لكي يحمل أمتعة الصيد ويهدينا الطريق في الوديان والصحراء الخالية من المعالم. وبعد مسيرٍ طويل وصلنا إلى حقل فسيح من القصب يحيط ببُحَيرة كبيرة، وكان ذلك الموضع

مثالياً لصيد الطيور المهاجرة. هنالك ربطنا الحمار بجذع الشجرة الميتة الوحيدة قرب الحقل.

أقمنا على ضفة البحيرة لكي نكمن فيه وننتظر الطيور. وكان الوقت لا يزال مبكراً، فاستسلم أبي لقيلولةٍ قصيرة.

كانت الريح العليلة تداعب هامات القصب فتتمايل محدثةً صفيراً. وكنت أسمع لحناً متناغماً، هادئاً، منوِّماً، أسلمني إلى سُباتٍ بطيء وطويل. وعندما فتحت عينَيّ كان الغسق قد غمر الحقل بضبابٍ غريب، كئيب ومُقلق.

بدا أبي مُستثاراً وهو يرقب السماء قائلاً إن قدوم الطيور لن يتأخر، وراح يتفقّد بندقيته من وقت إلى آخر.

مرّت الدقائق، وهبط الليل، وما من صوت ولا علامة في السماء.

الصمت.

الفراغ.

فجأةً، اجتاح نهيقُ الحمار الحقلَ؛ بدأ ضعيفاً، وشيئاً فشيئاً أصبح قوياً، خائفاً، مُخيفاً.

أمرني أبي أن أذهب لأرى ما الذي يجري. تردّدت. خفت. فزجرني آمراً أن أذهب لإسكات الحمار وإلاّ فالطيور لن تحطّ. ذهبت وقد تجمّد الدم في عروقي من الهلع. وعند طرف الحقل ارتعتُ لرؤية ذئبين ينخران وهما يدوران حول الحمار قبل أن ينقضّا عليه. ولم يكن بمقدور الحمار المحاصر إلاّ أن ينهق.

لِذتُ بالفرار مذعوراً لأحذّر أبي، فتناول بندقيته واندفع من خلال أجمة القصب غضبان مهتاجاً. في البدء حاول أن يبعد الذئبين بأن

يرميهما بالحجارة. غير أنهما ارتدّا عليه. وكانت عيونهما اللامعة تضفي عليهما مظهراً مخيفاً. تملّكني الهلع فاختبأت خلف أبي الذي صلّى بندقيته في اتجاههما. وحين همّا بالانقضاض علينا دوّت طلقة وسقط أحد الذئبين على الأرض مُحَشْرِجاً. توقف الذئب الآخر لكن أبي سّدد البندقية نحوه، فتراجع الوحش، ثم هرب.

استانف الحمار النهيق.

كان لا بدّ من مغادرة المكان على وجه السرعة، قبل أن يصل رهط الذئاب الآخرين. وبينما عاد أبي إلى أجمة القصب ليجلب أمتعتنا، أسرعت أنا إلى تهدئة الحمار بمداعبته وفكّ رسنه. وأخيراً سكت.

شرع أبي في إسراج الحمار وتحميله الأمتعة، وهو يرقب السماء والجوار معترضاً ولاعناً هذه السماء الرديئة.

ثم انطلقنا.

هبط الليل، وتوهّج القمر، وتقدّم الحمار ونحن من ورائه. ومن وقت إلى آخر كان والدي يُنير الطريق بمصباحه. صعدنا تلاًّ. ولمّا بلغنا القمة توقف الحمار. ضربه أبي على قفاه، لكن الحمار رفض أن يتقدّم، وكان ينظر إلى الطريق مُرتاباً. ضربه والدي ضربةً أخرى، أقوى. وهذه المرّة استأنف الحمار السير ببطء. خشيتُ أن نَضِلَّ الطريقَ، فطمأنني أبي قائلاً إنّ الحمار يعرف طريقه جيّداً، وإنّ القرية يجب ألاّ تكون بعيدة، وسنصلها بعد ساعة تقريباً.

عندما نزلنا من التلّ وجدنا حقلاً آخر، ثم تلاًّ آخر. ولمّا بلغنا القمة حَرَنَ الحمارُ ثانيةً. غير أن الضربات التي انهالت عليه أجبرته على أن يهبط المنحدر رغماً عنه.

عند سفح التلّ، أمامنا، امتدّ حقل فسيح في وسطه شجرة منفردة اتّجه الحمار نحوها من دون تردُّد. وعندما اقتربنا استرعى انتباهنا في الضوء الخافت جثة حيوان يسهر عليها حيوان آخر. أشعل أبي المصباح. كانت تلك جثة ذئب. رفع الذئب الآخر رأسه؛ فتسمّرنا في مكاننا مذعورَين. عمّر أبي بندقيته. اقترب الحمار من الذئبين دونما خشية. تقدّم الذئب نحوه مُصدراً أنيناً. وعندما سدّد أبي نحوه، لاذ بالفرار.

حاذى الحمارُ الجثةَ وتوقّف عند جذع الشجرة. أضاء المصباح أولاً جسد الحيوان، ثم الشجرة، وأخيراً المحيط. في البداية فوجئنا، كلانا، ثم هالنا أن نجدْ نفسينا في المكان ذاته الذي كنّا فيه من قبل، هنالك حيث قتل أبي الذئب. سألته بصوتٍ مرتعش لماذا قادنا الحمار إلى النقطة نفسها؟ لم تكن لديه أدنى فكّرة. ثم توجّه نحو الحمار مذعوراً وضربه على ظهره لكي يتحرّك. غير أنّ الحمار لبث ساكناً، ينظر مُرتاباً. تناول أبي العصا، وناولني الرسن طالباً مني أن أجرّه. ذهب جهدي سُدىً. كان الحمار قد قرّر ألاّ يتقدّم خطوةً بعد. قرأت ذلك في عينيه، الباهتتَيْن، المتعبتَيْن. داعبتُه، رجوتُه. بلا جدوى أيضاً. ثارت أعصاب أبي، فأعطاني العصا، وأمسك بالحبل مجدداً، وصاح بي أن أضرب الحمار، على الرأس، على الظهر.

غير أنّ قلبي لم يطاوعني. وأثارت ضرباتي غير الصادقة حَنَقَ أبي الذي أخذ يزعقُ بي ويشتمني. غصصتُ بالدمع، ورحتُ أضرب الحمار بغيظ العاجز. ثم إنني تخلّيت عن كل شيء، وقد نال مني الإحباط والإرهاق، وانفجرت بالبكاء. ترك أبي رسن الحمار وضرب جمجمته بأخمص البندقية. انهار الحيوان، وبات من المستحيل حملُه

على النهوض بعد الآن. وبدا أن كلّ شيء ذهب سُدى: دموعي، عِواء الذئاب الذي يقترب شيئاً فشيئاً، الأوامر الحانقة التي يصدرها أبي الذي تناول العصا مجدداً لكي يغرز رأسها في لحم الحمار، مقسماً أنه إذا لم يتحرّك سيُدخل سبطانة البندقية في دُبره ويفجّره. غير أن الحمار الذي لم يتأثر، ولم يتحرّك، بقي رابضاً. خرج أبي عن طوره ورفع البندقية ليسدّدها نحوه. لم تبدر من الحيوان أية ردة فعل سوى أنه ثبّت نظره على والدي.

اختنقتْ أصوات نحيبي. ولم يكسر الصمت غير عواء الذئاب. اهتزّت البندقية في يد والدي؛ فأغمضتُ عينَيّ، ولم أسمع سوى دويّ الطلقة، فأصوات الطيور المذعورة التي طارت من وسط حقل القصب. انبجس الدم من جبهة الحيوان، وانفتحت عيناه الخانعتان لحظة قبل أن تنطبقا بهدوء، وكأنهما ارتاحتا. ثم ساد صمتٌ مُطبق. لا رفرفة عصفور ولا عِواء ذئب. وبدا كل شيء مجمّداً على لوحة الليل السوداء.

حالما هدأ غضب والدي وعاد إلى رشده، أدخل رصاصةً في مخزن البندقية، وحمل أمتعتنا على ظهره، وشرع في المسير، وهو يأمرني: "رسول! تعال، تحرّك! يا رسول؟".

هذه القصة العجيبة التي سمّاها رسول "نايستان" (حقل القصب) ما زالت تراوده، تحيا في وِجدانه، بصمت وورع. وكان أبوه يرويها على مراحل حيثما كان، وفي أي وقتٍ كان، ولأيٍّ كان. وفي كل مرّة كان يطلب من رسول أن يذكّره بالتفاصيل التي نسيها. والحق أنّ ذلك ما كان إلاّ لكي يتّخذه شاهداً على شراسة تلك المغامرة التي لا تُصدَّق. غير أنّ رسول كان يرفض أن يلعب هذه اللعبة. وغالباً ما

كان يترك المكان حين يبدأ والده حكايته. لا لأنه سئِم منها. كلاّ. وإنما كان يريد أن تبقى هذه الحكاية سراً بين والده وبينه. لماذا؟ لا فكرة لديه، ولا يجد لذلك جواباً حتى الآن. غير أنه كان يرويها لنفسه من أولها إلى آخرها. وفي كل مرّة كان يضيف تفصيلاً، ويحذف آخر. وبين الفينة والفينة كان يتوقف طويلاً عند لحظة معيّنة أو صورة ملائمة لمزاجه. من أجل ذلك لم يرغب قطّ في كتابتها، وتجميدها على الورق. ولو كتبها لجعلها رواية كاملة، خالية من الشوائب، خالية من التفاصيل، ميتة. ثم إنه ما عاد يعرف أن يميّز بين ما أضافه والده إليها وما أدخله هو فيها. ما الحقيقي فيها وما المزيّف، ما يتعلّق بذكرياته وما ينتمي إلى أحلامه... لا يهمّ. الغريب في هذه اللحظة هو تفكيره في نظرة الحمار. ما الذي كان يخفيه وراء تلك النظرة البلهاء؟ كلّ شيء. هذه النظرة، البريئة، المرتابة، تسائله: "ولكن لماذا لم أهتدِ إلى طريقي؟ أين الطريق؟ أليس هو الطريق الذي كنت أسلكه عادةً؟ ما الذي حدث؟ لماذا ما عدت أعرفه؟ لماذا كان ذلك الدرب غريباً عليّ؟ أبسبب الليل؟ أم لعلّه الخوف؟ أو التعب؟ أو الشكّ؟".

نظراً إلى عدم العثور على جواب تحوّلت هذه الأسئلة إلى حيرة. تبّاً للأسباب. كان الحمار هناك تائهاً، وكان يعلم أنه لن يجد الطريق أبداً بعد الآن. عندئذٍ لم يبقَ له إلا التشكي: "ما العمل" من دون علامة استفهام.

ما العملُ. استوى رسول جالساً. سقط المسدس عن صدره المتصبّب عرقاً. صار قلبه يخفق بسرعة جنونية كما لو أنه يوشك أن ينفجر. يخفق في الخارج، إلى جانب السلاح.

أمسكت يده المرتجفة بالمسدّس وصوّبته نحو أصل أنفه، بين

العينين. ضغط إصبعه على الزناد. لم تكن الرصاصة مُلقّمة، وكان يعلم ذلك؛ إنما أراد أن يتدرّب فحسب، أن يعرف إذا ما كان من السهل أن يطلق رصاصة على رأسه.

نعم، بل إنّ هذا سهل جداً. يكفي أن يغمض عينيه.

أغمض عينيه.

ألاّ يفكّر. ألاّ يفكّر في شيء. ولا في أحد. ألاّ يفكّر حتى في عدوّه، وفي كراهيته، وفي انكساره.

ما عاد يفكّر.

ركّز على المسدّس. روحُه هي الرصاصة؛ جسدُه الزناد. والباقي ليس سوى حركة، بسيطة كلعبة. هذه هي، بسيطة كلعبة. لعبة بلا منافسة، ولا خصم. يجب بكل بساطة الإيمان باللعبة، لعبته الخاصة. وألاّ يفكّر إلاّ في الحركة. ولا شيء آخر. لا في حقيقة اللعبة ولا في بُطلانها. كل ما عليه أن يقوم به هو تنفيذها جيداً، واحترام قوانينها، وعدم الغشّ.

الآن، يجب تلقيم الرصاصة، ووضع المسدس بين العينين.

ثقيل هو المسدّس.

يده هي التي ضعُفت.

أحسّ بالعطش.

يجب ألاّ يفكّر في الماء أيضاً. ليقل إنها لعبة، وعندما تنتهي، ينهض ويشرب الماء.

أغمض عينيه.

أطلق رصاصة.

أنت تموت إذاً؟

نعم، أنا أموت. أموت مع ثقب بين العينين حيث ينبجس خيطٌ من الدم ينساب على الفراش، ثم على البساط، لينتهي في تجويف من الأرض حيث يشكّل بركةً حمراء. دوّى الطلق الناري في الغرفة، وفي الباحة، ثم في المدينة. ولا بدّ أنه أيقظ يرموحمد، فظنّ أن أحدهم أطلق النار في الشارع، أمام المنزل، وعاد إلى سريره. غير أن رونا، القلقة، ألحّت عليه أن يتحقق ما إذا أحدهم أطلق النار في المنزل، عليّ. لم يكترث، يرموحمد. "تخلّصتُ أخيراً" تمتم، محكماً التفافه بالشرشف.

عند الفجر، بعد أن يُصلّي، سوف يأتي خلسةً ليقف خلف الباب.

لماذا سيأتي؟

فعلاً، لماذا سيأتي؟ لن يأتي، ستبقى جثتي هنا. وستتعفّن. وسوف يغطيني الذباب كله. وفي غضون يومين أو ثلاثة أيام ستكون النتانة هي التي تأتي بيرموحمد. لن يلحظ في البدء إلاّ الصمت. وسيقرع الباب مرّة. فلا يسمع جواباً. ثم يدفع الباب الذي سينفتح تلقائياً محدثاً ضجّة بلا صدى. وسوف يتملّكه الرعب عندما يكتشف جثتي الدامية. وينتابه الفزع من فكرة اتّهامه بقتل المستأجر الذي يقيم عنده. وحين يرى المسدّس في يدي سوف يفهم أنني انتحرت، ويسارع إلى إخبار رازمودين.

وماذا بعد؟

لا شيء. سوف يفهمون أن انتحاري هو النفس الأخير الذي لفظته حيال هذا العالم الذي ما عاد يجيبني، ولا يدهشني.

لكن، يا رسول، من يمكنه القبول بأنك أقدمت على مثل هذا العمل؟ لا أحد. لا يرموحمد ولا رازمودين. أنت تعلم جيّداً أن الانتحار لا ينتمي إلى ثقافتك. وأنت تعرف لماذا.

أولاً، لكي ينتحر المرء عليه أن يؤمن بالحياة، بقيمها، ويجب أن يكون الموت جديراً بالحياة. وهنا، في هذه البلاد لا قيمة للحياة اليوم، ونتيجةً لذلك لا قيمة للانتحار أيضاً.

ثم إن الانتحار يُعدّ تمرّداً وكفراً بالنعمة ضدّ إرادة الله. كأنّما ليقال له: "خُذها، ها أنا أردّها إليك قبل أن تطلبها مني، هذه الروح الدنسة التي أدخلتها في جسدي البريء!"، ولإقامة الدليل على أن المقدِم على الانتحار أقوى من الله، وأنه لا يرضى أن يكون عبده. الانتحار هو ردّ الروح من دون عرفان بالجميل.

جثتك، قبل أن تُوارى الثرى، سوف تتلقى ضربات بالسوط. ولهذا السبب لا يقبل أحد بالانتحار. كل انتحار هو قتلٌ مُقنَّع. ولن تكون سوى "شهيد"[١]، شهيد بين شهداء كُثُر. أنت الذي تريد أن تبلغ مرتبة "الإنسان الأسمى".

أكون شهيداً؟ آه، كلاّ! هذا قانون إيمان الجميع اليوم، ولا قيمة له. يجب أن يعلم العالم أجمع أنني انتحرت.

إذاً، إذهب إلى وسط مُلتقى طُرق وألقِ خطابك، ثم أطلقْ

---

١ هكذا في الأصل Shahid (المترجم).

رصاصة على رأسك، أمام شهود. هكذا سيعلم بك العالم. لكن، حتى هناك، لا أحد سيفهم المضمون النظري لعملك. سَيُدلي كلٌّ برواية. سيقول أحدهم: "كان مريضاً"، ويزعم آخر: "كان يُكثِر من تدخين الحشيش"، ويقول غيره: "إنه الندم. لقد أساء التصرّف مع عائلته"، أو "ندِم على كونه عميلاً، شيوعياً، خائناً!"؛ وإذا ما اكتُشف يوماً أنك قاتل نانا عليا سيقال إن شعورك بالذنب دفعك إلى الإقدام على هذا العمل. نعم لن يقول أحد إنك انتحرت لأنك بلغت النهاية ونفد صبرك، وإن أسئلتك ما عاد لها علامات استفهام، وإن كل تساؤلك لم يكن إلاّ دهشتك حيال عبثية الحياة التي تبدّت لك فجأة. لن يقول أحد إنك قتلت مخلوقة مشؤومة، وحشاً مؤذياً، لكي تصبح في مصافّ "الرجال العظماء" ويكون لك مكان في التاريخ. من جهة ثانية، لا تنسَ أن الجميع هنا، في هذه البلاد، يريد اليوم أن يصل إلى هذه المكانة. الجميع يقاتل ليصبح غازياً[1] إذا قتَل، وشهيداً إذا قُتل. أقرباؤك سيجعلون منك غازياً، لأنك أعدمت قوّادة، وشهيداً، لأن عائلتها قتلتك انتقاماً لها. وسيُكتَب على شاهدة قبرك: "الشهيد رسول، ابن إبراهيم" أردت ذلك أم أبيت.

كلاّ. لا أريده.

إذاً، ضع المسدّس.

هكذا، لَا تكون لي حتى حرية أن أنتحر؟

كلاّ.

---

١ هكذا في الأصل ghazi (المترجم).

الله، كما يقول دوستويفسكي، أهو موجود حقاً لكي لا ينتحر الإنسان؟

قُضيَ الأمر، عُدنا! كلاّ يا رسول، هو يفكّر في شيء آخر. إلهك أنت لا يقبل الانتحار إلا ليشهد على وجوده وعظمته. ما عدا ذلك كل انتحار يسلبه اسم المُميت[1].

انزلق المسدّس من يدَيه.

انتهى الأمر إذاً. لن ينتحر، لا يستطيع. لا يتطلّب الانتحار إلا شيئاً واحداً: الحركة، ولا شيء آخر. لا أفكار، ولا كلمات، ولا ندم، ولا أسف، ولا رجاء، ولا يأس...

الفجر، الأكثر جُرأةً من رسول، اجتاح السماء، وراح يقطف النجوم، نجمةً نجمة.

والنوم، الأكثر اجتياحاً من الفجر، استولى على جسد رسول المتعب.

١ هكذا في الأصل Al-moumît (المترجم).

تَمَوَّجَ في الغرفة على مَقرُبة منه حفيفٌ لطيف ورشيق، وارتسمت عبر أجفانه المنفرجة صورةٌ مهتزّة: وجهٌ أثيريٌّ لشابّة ذات عينَين مستديرتين. همست: "رسول؟"، هذا حُلم جميل. "رسول"، اعترى الصوتَ قلقٌ، واشتدّ رنينُه، وأجبر رسول على أن يفتح عينيه على وسعهما. "هل أنتَ بخير؟".

صوفيا؟ منذ مَتى وهي هنا؟ كم الساعة؟ حَدَّق رسول في المُنبِّه الروسي الذي ما زال معطّلاً - وذلك منذ زمنٍ بعيد، وإنما ينظر إليه بدافع العادة، بـ"عبثيّة مُزمِنة" على حدّ تعبيره.

استوى جالساً واستدار نحو النافذة. ما زالت السماء مغطاة بالدخان، مشحونة بالرماد. والشمس لا تدري من أين تمرّ. ولن تمرّ؛ تنتظر أن تدور الأرض.

"ما الذي يحدث؟" سألته صوفيا وهي ترمقه بقلق. قبضت يد رسول على المسدّس ورفعته. "منذ متى تحمل سلاحاً؟" سألته مرتابة. وضع المسدّس على الأرض ليتناول سيجارة أشعلها، متظاهراً بأن لا رغبة لديه في الردّ عليها بغية إخفاء صَمْتَته، وإن فعل ذلك بطريقة تدعو للرثاء. "أخبرتني أمي بوفاة أبيك، رحمه الله. ولكن لِمَ لم تقلْ أنت شيئاً؟" أمسكت بيدَيْ رسول: "الآن فهمت حزنك، وصمتك...". لا يا صوفيا، أنت لا تفهمين شيئاً. تطرحين أسئلة، وأنت تعلمين أنه لا يولي موت أبيه أيّة أهميّة. العلاقة بينهما منقطعة

منذ زمنٍ بعيد. لا أب ولا ابن. قالها لكِ من قبل. غير أنه قلقٌ على أمّه وأخته فحسب. يجب أن ينقذهما. ثم إن رسول لا يفكّر إلاّ في شيء واحد: أين كنتِ هذه الليلة؟ ابحثي في نظرته. أصغي إلى صمته.

"رسول، عدتُ إلى عملي عند نانا عليا". هذا، أمر يعرفه. "أُقسم لك أني أحبّك، غير أنني مضطرة إلى العمل. وإذا لم أعمل، مَن يعمل من أجلي؟ أمي؟ أخي؟ أنت تعرف حياتنا. أُقسم لك، عندما جاءت نازيغول مساء أمس ارتمت أمي على قدميها راجيةً أن تأخذها بدلاً مني. لم تقبل. هم لا يريدونها".

هم لا يريدونها؟

من هم هؤلاء؟

غَصَّت صوفيا بالبكاء لكنها ملكت نفسها وقالت: "عندما قلتَ لي آخر مرة إنّ عليّ ألاّ أعمل هناك لأن الناس سوف يتقوّلون عليّ، لم أطأ ذلك المكان ثانيةً. فما الذي حصل؟ أمضينا أسبوعاً من الجوع، أسبوعاً من البؤس. في ذلك الأسبوع، مَن الذي اهتمّ بنا؟" وأجهشت بالبكاء. "لا يمكن أن نتوقّع منك شيئاً، أنت أيضاً. أضف إلى ذلك أنّ عليك الآن أن تنفق على أمك وأختك. أنت أيضاً تحتاج إلى مساعدة. افهمني إذاً. أعلمُ أن القبول بذلك صعب عليك. لكنْ قُلْ لي، يا رسول، هل لديَّ خيار آخر؟". كلاّ، ليس لديها خيار آخر. وأنت يا رسول، كما قالت لك، لم يعد لديك ما تعطيها إياه. أنت فارغ. أنت لا شيء. عاجز عن الانتحار. عاجز عن إنقاذ نفسك، أو حماية أختك وأمّك؛ وأنت أعجز من أن تفعل شيئاً لصوفيا وعائلتها. أنت لا تخجل من عجزك، من خمولك، لكنك تشعر بالعار، وبالمهانة، ممّا تفعله صوفيا. أمّا هي فأكثر

براءةً، وطهارةً، وكرامةً منك. ارتم على قدميها، وقُلْ بصوتٍ عالٍ: "أنا لا أنحني أمامكِ، وإنما أنحني أمامَ المعاناة الإنسانية جمعاءً". هيّا.

ارتعشَ.

أرأيتَ! إنك عاجز حتى عن النطق بأروع جملة قالها بطلك راسكولينكوف، بينما لا تكفّ عن التظاهر بجُرأته. يا لك من بائس.

تشابكت يداه، وتضامّتا، كما لو أنه يُصلّي. وغاص رأسه بين ركبتيه. وتلوّى. وتكسّر. وأدرك أن الكرامة ليست شرفاً ذكورياً مثيراً للسخرية ولا خُلقاً قبَلياً باطلاً، وإنما تتجلّى ببساطة في إرادة المرء عندما يتقبّل ضعفه، ويفرض احترامه، وأن...

"من أين أتيتَ بهذه النقود؟" سألت صوفيا وهي تمدّ يدها برزمة الأوراق المالية التي كان قد أعطاها لداوود.

هنا، يا رسول، يجب أن تكتب. لا يمكنك أن تلوذ بالصمت، وتترك صوفيا متشككة. سوف تخلص إلى الاعتقاد بأن هذه النقود جزء من الأموال التي سرقتها من نانا عليا، لا شك في ذلك. كان بوسع نازيغول وصوفيا أن تلاحظا أنك تصرّفت بغرابة ذلك اليوم، وجعلت نفسك موضع شبهة.

نعم، سوف أكتب لها بكل شيء. هذه النقود جاءت من بيع دنيا، أختي، على يد أمي إلى أحد القادة. إنها ثمن نذالتي!

أصبح أكثر توتّراً، فاستوى جالساً ليبحث عن ورقة وقلم. تبعته صوفيا بنظرها مُستطلعة: "هذا المال أنت بحاجة إليه من أجل أمك وأختك..." عثر رسول على دفتر صوفيا. "أحبّك يا رسول، غير أنني لا أستطيع أن أعيش معك. أو بالأحرى أنت لا تستطيع أن تعيش معي"

قالت وهي تنهض لالتقاط شادورها والذهاب. لكن قبل أن تجتاز عتبة الباب أوقفها رسول وناولها دفترها. "ما هذا؟ هذا..." تردّدت، "أهذا دفتري؟" نعم. "دفتري!" هتفت فرحة وارتسمت على شفتيها ابتسامة غامضة وخجولة، مترعة بالذكريات. أشار إليها رسول أن تفتحه على الصفحة الأخيرة، فقرأتها، وأعادت قراءتها، مُتمتِمةً، ثم ردّدت بصوتٍ مرتفع: "اليوم، قتلتُ نانا عليا" ثم رفعت رأسها غير واثقة من أنها فهمت، واقتربت من رسول: "ما معنى هذا؟". دلّها بإصبعه على الجملة التالية، "قتلتها من أجلكِ يا صوفيا"، فقرأتها، ثم قرأت التتمة: "صوفيا، أنا لم أعانقك قط من قبل. أتدرين لماذا؟..." ثم أغلقت الدفتر، ونكّست رأسها وكأنها تبحث بعيداً من شفتَيْ رسول عن معنى هذه الكلمات. "أهذا شِعر؟" سألت ببراءة. كلاّ، قتلتُ. وجهد في تصوير الحركة، من دون جدوى. نظر في عينيها مباشرةً، بغيظ، غيظ أخرس من عدم القدرة على النطق بكل شيء. "كُفَّ عن النظر إليّ هكذا! إنك تخيفني. قل لي ما هذا؟". هيّا يا رسول، اكتبْ أنك فقدت صوتك. "لِمَ لا تقول شيئاً؟ هل قرّرت حقاً ألاّ تتكلّم بعد؟".

أومأ بـ"نعم" مرتبكاً، وعاد إلى سريره. تردّدت يده في التقاط القلم والشروع في الكتابة. شيء ما يمنعه. شيء من الصَّلافة. ما زال يجهل من أين تأتّت له هذه الضغينة. الأرجح أنها ثمرة صمته الذي يُغيظ الجميع، ولاسيما منهم أقرباءه. غير أنه يريد أن يروي لصوفيا بأدقّ التفاصيل كيف خطرت له فكرة قتل نانا عليا. كان ذلك يوم تشاجرا، منذ أسبوع. بعد ذلك ذهب إلى صالة الشاي. هنالك استمع إلى اثنين من عناصر الميليشيا وهما يتحدّثان عن نانا عليا، عن تلك

القحبة القذرة التي لم تكن مُرابِية فحسب، بل كانت تشغّل الفتيات، في الخدمة المنزلية كما تزعم، ولكنها تدفعهنّ إلى أحضان زبائنها في الحقيقة. عندئذ أدرك رسول لماذا كانت تريد أن تعمل صوفيا في الليل أيضاً، حتى وقت متأخر. ولم يكن بإمكانه أن يتحمّلها. نعم، في ذلك اليوم خطرت له الفكرة. في الغد...

"لا، لا تستطيع..."، تمتمت، "لا تستطيع أن تقتل" كرّرت القول كما لو أنها سمعت رواية رسول كلّها. لم تصدّقها، ولن تصدّقها أبداً. كلّ ما يمكنه أن يقول، أو يكتب بالأحرى، ما هو إلا أكاذيب.

نعم، روايتك ليست إلاّ محاكاة مضحكة لرواية **الجريمة والعقاب** التي رويتها لي مئة مرّة. ولا شيء آخر.

نظر إلى صوفيا أسْيانَ قانطاً وكان يودّ أن يسألها لِمَ لا تصدّق روايته؟ ولكن كيف تصدّقها؟

لا يوجد أي إثبات. لا أحد يتكلّم عنها. ولم يرَ أحد جِثّة نانا عليا. وإلاّ لكانت صوفيا قد سمعت بها.

الأولى أن تساعدني على اكتشاف السرّ.

هذا سرٌّ بالنسبة إليك، لا إليها. بالنسبة إليها لا أهمية لجريمة القتل هذه.

دنت منه مشغولة البال متفكرة: "رسول، قُلْ لي شيئاً، كلمة! أتوسّل إليك". ما الذي تريد أن تسمعه؟ لم يعد ثمة ما يقال. "أقتلتها حقاً؟" نعم. "وهل قتلت من أجلي حقاً؟".

قَرْفَص على فراشه وأخفى وجهه بين رُكبتَيه. مالت صوفيا عليه ولامست شعره. "أوه يا رسول، أتحبّني إلى هذا الحدّ؟".

نعم، أحبّكِ.

أحاطت رأسه بذراعيها، ورغبت في البكاء.

هل تستطيع أن تعيش مع قاتل؟

كيف تعرف ذلك؟ لم تقل شيئاً، هي أيضاً.

بلى، قالت أشياء كثيرة في صمتها. قالت إنها لم تلتقِ في الآونة الأخيرة عند نانا عليا إلا لصوصاً، ومجرمين، وقتلة، ما رسول إلى جانبهم إلا نملة بريئة. لا شيء.

لا شيء. كرّر القول، متجمّعاً على نفسه أكثر بين ذراعي صوفيا. وانتظر.

انتظر أن تأمره صوفيا: "اذهبْ، فوراً، في الحال، وضع نفسك على مفترق طرق، وانحنِ، قَبِّل أوَّلاً الأرض التي دنّستها، ثم انحنِ أمام العالَم كلّه، في الاتجاهات الأربعة، وقُلْ بصوت مرتفع: لقد قتلت؟".

كان من المستحسن سماع ذلك. لكنْ، يا رسول، لا تنسَ أنها ليست صونيا، حبيبة راسكولنيكوف. صوفيا من عالم آخر. وتعلم أنك لو قمت بهذه الحركة، في هذه المدينة، لحسبوك مجنوناً.

"هيّا، تعال!"، قالت وهي تنفصل عن رسول، وتندفع بحزم نحو شادورها وترتديه، "سوف نذهب إلى مقام الوليّ شاه دو شمشيره".

لكن... لماذا؟ "فلنذهبْ إليه، كلانا، من أجل الصلاة.

استعدْ إيمانك بالله! تُبْ! قُلْ له إنك قتلت باسمه، وسوف يغفر لك. كثيرون هم الذين قتلوا باسمه؛ وما أنت إلا واحد من بينهم".

لكني لم أقتلْ باسم الله. ولست بحاجة إلى أن يغفر الله لي.

إذاً، ما الذي تريده؟

أن تعود إليّ!

إذاً، اذهبْ معها، اتبعْها!

تَبِعَها.

تقدّمته خطوتين ملتفّة بشادورها الأزرق السماوي. اجتازت الشارع الكبير المؤدّي إلى مقام الوليّ شاه دو شمشيره علىِ ضفة نهر كابول. وكانت المدينة لا تزال تتنفّس هواء الحرب المُكَبْرت، وتلهث.

دخلا إلى باحة المقام وسط الزوّار. وأمام مدخل الضريح خلعت صوفيا حذاءها وصفّته إلى جانب الأحذية الأخرى على مرأى من رجلٍ أسمر يقوم بالحراسة. بقي رسول في الخارج وأوى إلى ظل شجرة النذور المزيّنة أغصانها بمئات الخِرق الملوّنة. نهضت امرأة عجوز بكثيرٍ من العناء لتعقد على غصن شَريطاً أخضر. وكان يجلس قربها رجلٌ عجوز أيضاً وهو يراقب الحمامات التي تتنقّل وسط الحبوب من دون أن تبدي أية رغبة في تنقيرها.

بعد أن نجحت المرأة في ربط شريطها جلست منتصرةً إلى جانب الرجُل، "سوف يأتي ابني إليّ، هذا شيء مؤكد". لم يُصغِ إليها الرجل الذي كان لا يزال مشغولاً برؤية الحمام. "لا تُعطِها قَمحاً" قالت المرأة بنبرة مشوبة باللوم. "لا تأكل إلا القمح. الناس لا يفهمون، وهم يقدّمون لها الذرة البيضاء. انظري!" هتف الرجل وهو يلقي بقبضة من القمح إلى الحمامات التي انقضّت عليها. "أرأيتِ؟".

– هذه خطيئة!

– لماذا خطيئة؟
– إعطاء القمح خطيئة.
– من أين أتيتِ بهذا؟
– من القرآن.
– حقاً؟
– نعم، بسبب القمح طُرِد حضرة[1] آدم وبيبي[2] حوّاء من الجنّة.
– ستُرينني الآيات التي تتحدّث عن ذلك.
– قلتها لك، هذه خطيئة.
– خطيئتي أم خطيئة الحمام؟
– خطيئتك، أنت مَن يعطي القمح.

"لا أبالي. ما على الحمائم إلاّ أن تمتنع عن أكل القمح. هي أيضاً لها حرّية الاختيار" تلوّى من الضحك والتفت إلى رسول قائلاً: "مَن يأبه بالخطيئة إذا كان جائعاً! أليس صحيحاً؟" ومال نحوه. "الكلام بيننا، إن لم يكن حضرة آدم وبيبي حوّاء جائعين أكانا يأكلان الثمرة المحرّمة؟ لا".

– لا تقلْ هذا! لا ترتكب خطيئة، لا خطيئة... ألحّت المرأة.
– لِمَ تبقَين هنا لتتحمّلي معي وِزرَ خطيئتي؟ أردتِ أن تنذري نذراً، وقد فعلتِ. سوف يأتي ابنكِ إليك. فلمَ تبقَين؟ عودي إلى البيت.

لم تتحرّك المرأة.

"القمح يُسمّنها، ثم إن الحمامة السمينة أفضل من الهزيلة. أتعلم

١ هذا في الأصل: Hazraté (المترجم).
٢ هكذا في الأصل: Bibi (المترجم).

لماذا؟" سأل العجوزُ رسول؛ وبعد أن صمت برهة، لا ليسمع جواباً بقدر ما أراد التشديد على ما سيقوله: "لا، أنت لا تعلم..." ورمق رسول. "أنت من كابول؟". نعم. "أنت لست من هنا، وإلاّ لفهمتَ ما أعني" أخرج من جيبه قبضة أخرى من القمح ومدّ ذراعه لكي تأكل الحمامات من يده. "تعالَيْ، تعالي؛ تعالي إلى هنا؛ تعالي لتسمني"، وسأل رسول:

"أتأتي كثيراً إلى هذه الزيارة[1]؟". كلاّ. "معك حق. أنا آتي كل يوم. لكن لا لأصلّي، أوْ أنذر نذراً. حاشاي أن أفعل ذلك. أنا لا أبحث عن الله بين القبور. إنه هنا"، وضرب بيده على صدره، "في قلبي!"، ثم اقترب من رسول ليسمعه: "تعلم أن الشيوعيين بذلوا قصارى جهدهم خلال عشر سنوات لكي يصرفوا هذا الشعب عن الله، فلم يُفلحوا. في المقابل أفلح المسلمون في ذلك خلال عام واحد" وضحك ضحكاً ساخراً، وصامتاً. "أترى، كل هؤلاء الملتحين، الذين يصلّون ويتباكون على ضريح الوليّ دو شمشيره طول النهار، يفعلون في المساء ما فعله الكفّار بهذا القدّيس. هل تعرف قصة هذا القدّيس؟" توقّف مجدداً، لكي يشدّد، مرّة أخرى، على ما سيقوله: "كلاّ، أنت لا تعرفها. سأرويها لك: كان يمتّ بصلة القرابة إلى أحد أعمام النبي. وهذا قبره المقدّس. اسمُه لَيث بن غَيث، ولقبُه الملك ذو السيفين. مات هنا شهيداً. جاء لأسلمة بلادنا وقُتِل. عندما كان يقاتل الكفّار قطعوا رأسه. غير أن هذا الوليّ الذي كان يحمل سيفاً بكل يد استمرّ في القتال". توقّف لكيّ يقدّر تأثير هذه

---

[1] هكذا في الأصل: Zyarat (المترجم).

الملحمة في نظرة رسول. أدهشته برودة رسول فدنا منه، وأخفض صوته لكي يكشف له سرّاً ويؤثّر فيه: "اليوم، مَن يصلّون هنا نهاراً هم أنفسهم الذين يقيمون ليلاً طقوساً يسمّونها 'رقصة الأموات'، أتدري ما 'رقصة الأموات'؟" سكت، ونظر إلى رسول، ثم تابع: "كلاّ، أنت لا تعرف. سأقولها لك: يقطعون رأس إنسان ويسكبون على الجرح زيتاً مغليّاً. عندها يضطرب الجسد المسكين المقطوع الرأس، ويُنَطنِط. يسمّون هذا 'رقصة الأموات'. أسمعت بذلك من قبل؟ كلاّ، أنتَ لا تعرف!". بلَى، يا شيخي، رسول لم يسمع إلا تلك القصّة، وسَمِع قصصاً أخرى أسوأ منها.

قطع الرجل الأمل في استجابة رسول فشرد نظره في حبّات القمح التي يمسكها بيده المرتعشة. وخرجت من بين شفتيه الذاويتَين كلمات: "أتعلم... لِمَ يفعلون ذلك؟". كلاّ، أومأ رسول مُستنطقاً الرجل بنظرة ساخرة كما لو أنه يستبقه: "لكنك ستقوله لي". بحث الرجل عن كلماته ثم قال: "ألا يخشَون الله؟". بلى، وهم يفعلون ذلك لأنهم يخشونه. "أنت، هل أنت قادر على ارتكاب هذه الفظاعة؟". نعم. فاجأت حركة رسول الرجل. "أنت قادر على ذلك؟ ألا تخشى الله؟". كلاّ.

اضطربت يد الرجل، وسقطت حبات القمح على الأرض. "لا حول بالله[1]... ألا تخاف الله!" وتلا مجدداً فِعل إيمانه. "هل أنت مسلم؟". نعم.

غاص الرجل مجدّداً في أفكاره وخرج منها بعد لحظات، أكثر

[1] هكذا في الأصل: Lâhawlobillah. وأصل العبارة: لا حول إلا بالله (المترجم).

يأساً. "حقاً، بعد كل ما رويته لك، مِمّن يجب أن تخاف؟ من الإنسان أم من الله؟" وصمت.

فوجئ رسول بطول الوقت الذي أمضته صوفيا في صلواتها، فترك الشيخ لشكوكه ونهض ليمضي ببطء نحو الضريح. ولمّا بلغ المدخل ألقى نظرة على الداخل. رأى نسوة ينتحبن، متمسّكات بالقضبان المحيطة بالضريح؛ وأخريات جالسات يصلّين بصمت. لم تكن صوفيا هناك. عاد إلى حيث الحارس وبحث عن حذائه الذي وجد صعوبة في العثور عليه.

ألقى نظرة أخرى على الداخل. ما من أثر لصوفيا هناك، ولا في الخارج.

ما الذي حدث؟ هذا القلب الذي كان قد انفتح مجدّداً، لِمَ انغلق بهذه السرعة؟ أتكون قد جاءت به إلى هنا لكي تنأى عنه، وتودّعه، من دون كلمة وداع؟

وداعاً يا صوفيا!

أخذ نفساً عميقاً من الحشيش حبسه في رئتَيه أطول وقت ممكن.

وداعاً يا صوفيا! ذهبتِ مع السرّ الوحيد الذي أحتفظ به في نفسي.

وداعاً.

بعد نفسَين، أو ثلاثة أنفاس أخرى، غادر الساقي خانه.

لن أعود إليها أبداً. سوف أعتكف في غرفتي المظلمة كقبر، بلا أبعاد، ولا مخرج. لن آكل بعد الآن. لن أشرب. لن أغادر سريري. وسأستسلم لنوم بلا نهاية؛ بلا صور ولا أفكار. إلى أن لا أعود شيئاً يُذكر. لا شيء في الفراغ، ظلّ في الهاوية، جثة لا تموت.

عندما وصل إلى الباحة وجد داوود جالساً على إحدى درجات السلّم. "صباح الخير يا رسول. أرسلتني أمي إليك. صوفيا ليست على ما يرام. أغلقت على نفسها الغرفة ولا تريد أن ترى أحداً".

هي التي سقطت في هاويتي.

نزل السلّم مسرعاً، واجتاز الباحة بخطى واسعة، واندفع راكضاً في الشوارع إلى أن وصل إلى المنزل وتوقف أمام غرفة صوفيا لاهثاً. "إنها تبكي. لا تقول شيئاً. حبست نفسها..." قالت له الأم، ثم قرعت الباب: "صوفيا! جاء رسول جان". ساد صمت طويل، ثم سُمع صوت مفتاح يتحرّك في القفل. فتحت الأم الباب، وتركت رسول يدخل أولاً.

عادت صوفيا إلى سريرها حيث جلست القرفصاء واضعةً رأسها بين ركبتيها. كان الصمت ثقيلاً. شعرت الأم بأن حضورها يزعج الحبيبين، فغادرت الغرفة وهي تلقي على رسول نظرة أخيرة، نظرة مُتّهِمة. هل أخبرتها صوفيا بكل شيء؟

كلاّ، هذا مستحيل. إنها تحفظ سرّي. تحفظه لا لتحميني فحسب وإنما لكي لا تعذّب أمّها أيضاً. لا تريد أن يشاركها أحد في هاويتي. لكن لا ينبغي لها أن تغوص فيها، وتتعذّب. لسوف أخرجها منها.

ركع قربها، وبعد شيء من التردّد لامس يدها على خجل.

لا تخافي يا صوفيا، أنا لست مجرماً كالآخرين. أنا...

"طردوني من المقام!" قالت بصوت كأنه ينبعث من وراء القبر. ترك رسول يدها مغيظاً. "كانت جارة نانا عليا هناك. عندما رأتني ذهبت إلى الحارس الذي ألقى بي خارجاً...". لماذا... أرعشت الكلمة شفتَي رسول: خرجت من بينهما كهمسة، همسة صامتة، بلا علامة استفهام، كصرخة يأس مخنوقة. بعد الآن، لا ينبغي له أن يدهش لرؤية الناس وهم ينظرون إلى صوفيا شزراً وكأنها عاهرة.

بكت.

شعر رسول بأنه على وشك الانهيار. "غادرتُ خِفيةً. من دون أن أُعلمك. ما كنت أريد أن تُحدث فضيحة"، قالت كما لو أنّ رسول كان قادراً على ذلك.

لا يا صوفيا، لقد تغيّر رسول. انظري إليه. إنه ضائع، مُحوَّط بسُخطه المزري.

لا، مهما بلغ من السقوط يبقى حريصاً على كرامته.

إذاً، تَحرَّكْ يا رسول تَحرَّكْ!

نهض بغتةً وغادر الغرفة. وجد على الشرفة، قرب النافذة، أمَّ صوفيا التي أدارت رأسها ما إن رأته لتخفي عنه دموعها.

في الشارع، ما من ظلّ. كانت أشعة الشمس تخترق حجاب الدخان وتضرب الرؤوس بكل ما في شمس الظهيرة من قوّة.

تقدّم رسول منكّس الرأس. ولم يدرِ كيف وصل إلى منزله. وكانت تنبعث من الغرفة رائحة كريهة فظيعة، هي رائحة الجُبنة المتعفّنة.

لم تكن لديه أية رغبة في التخلّص منها. استولى على المسدّس الذي كان لا يزال ملقياً على الأرض، أمسكه وتفقّد مُشطه. ما زال مملوءاً بالرصاص. وضعه في جيبه وغادر الغرفة.

إلى أين يذهب؟

إلى لا مكان. ومشى. ذهب إلى حيث يقوده المسدّس.

إذاً، فَليكفَّ عن التفكير في أي شيء.

كفَّ عن التفكير. وجهل كل شيء.

لا يرى إلاّ طريقه،

لا يتبعُ إلاّ ظلَّه المنكسر عند قدميه،

لا يُبصر أيَّ وجه،

لا يسمع أيّة صرخة،

لا يتلقّى أيّة ضحكة.

يمشي.

يعدّ خُطاه.

والآن، توقّفْ هنا، أمام مقام الوليّ شاه دو شمشيره.

كل شيء هادئ. ما من زائر ولا سائل. دخل رسول إلى الباحة واقترب من الضريح. طردتْ رائحةُ ماء الزهر رائحةَ الحمام ورائحةَ كبريت الأسلحة. كان الحارس يغفو على مقعد في ظل 'شجرة النُذور'، واضعاً يداً على ذقنه وأخرى على صدره. كانت تبدو عليه براءة طفل نائم. ولحيته التي وخطها الشيب تهتزّ من وقت إلى آخر كلحية ماعز قبل التضحية. دنا رسول منه. أخرج المسدس. تقدّم خطوة أخرى، وصوّب على الحارس. تشنّجت إصبعُه على الزناد. اهتزّت يده. تردّد.

قتلُ امرئٍ في أثناء نومه نذالةٌ مطلقة. ثم إن الموت سيكون سهلاً جداً عليه. لن يشعر بأيّ ألم. ولا ينبغي له أن يموت جاهلاً بما أقدم عليه، وفي براءة نومه.

فليستيقظْ، وليعلمْ لِمَ أقتله. وليتعذّبْ. سوف يتعذّب طبعاً، وذلك لبعض الوقت، لكنه سيحمل معه سبب موته. ولن يتمكّن أحد من أن يزعم أن هذا الحارس قُتل لأنه طرد صوفيا من المقام، وأنه حظر دخولَ بيتِ الله على "بغيّ" جاءت لتصلّي فيه، وتلتمس المغفرة لخطيبها... والحال، يا رسول، أنك سترتكب جريمة قتل أخرى لا أهمية لها مطلقاً. ضربة أخرى غير موفّقة.

كانت الشمس تتسلّل بين أغصان 'شجرة النذور' وأوراقها، مُوَشّيةً بالبقع جسمَ الحارس، وقدمَي رسول وساقيه، وشعره، والمسدّس الكولت الذي يهتز في يديه... وانتهى الأمر برسول الذي كان يتصبّب عرقاً، ويضنيه الشك، إلى الجلوس مقرفصاً قبالة الحارس. وبعد لحظات من الشلل الكلي، أخرج من جيبه سيجارة. لم يتأثر

نوم العجوز بأيٍّ من الأصوات التي أحدثتها حركات رسول هذه. أهو ثقيل السمع؟ أم أن رسول غير موجود؟

تراجع، لكن ضجة خامدة تناهت إليه فجأةً من ورائه سمّرته في مكانه. استدار بغتة، فأبصر هرّاً.

أهرٌّ في المقام؟ بدا حضوره غريباً لرسول الذي راح يراقبه وهو يقترب منه ويمسّ رجله بذيله المنتصب، وينسلّ بصمت إلى ظلّ الحارس الذي أخذ يستفيق بهدوء. وثب رسول. رمى سيجارته، وصوّب نحوه مجدداً، وعيناه تطرفان. لم تعبّر نظرة الرجل الناعسة عن أي أثر للذعر. حتى إنه لم يتحرّك. ربما خال أنه يحلم. دنا منه رسول وأمره بالوقوف. غير أن الرجل دسّ يده بتراخٍ تحت السجّادة التي تغطي المقعد، وأخرج منها قصعة مملوءة بالنقود ومدّها نحوه.

هذا الرجل لم يفهم شيئاً. أنا لست لصّاً. أنا هنا لأقتله.

تقدّم نحوه، وحرّك شفتيه بالكلمات الخرساء: "أوَتعلم لِمَ أقتلك؟".

كلاّ، يا رسول، لا يعلم، ولن يعلم أبداً.

ارتجفت يد رسول من شدّة الغضب.

لبث الحارس على جموده، وجسارته، ثم أعاد القصعة إلى مكانها، وابتسم، وأغمض عينيه في انتظار رصاصة. دفعه رسول برأس المسدّس. فتح الرجل عينيه ببطء مرّةً أخرى. ما زال هادئ الأعصاب مع أن المسدّس كان الآن مصوّباً إلى صُدغه. ونظرته الشبيهة بنظرة حمار نايستان تقول لرسول: "ماذا تنتظر؟ أطلق! إن لم تكن أنت قاتلي، فسوف يقتلني صاروخ ذات يوم. أفضّل أن أموت

على يديك، لأنني حافظت على طهارة هذا المكان المقدّس ومجده. وسأموت شهيداً".

دخلت الباحة امرأةٌ مُستَتِرة بشادورها الأزرق السماوي. ولمّا رأت رسول ومسدّسه المصوّب إلى صُدغ الحارس، تراجعت، ولاذت بالفرار.

أمّا هو فما زال لا يجرؤ على إطلاق النار.

لا، لا أريد لهذا الرجل أن يموت شهيداً.

رمى السلاح.

وذهب.

"اذهب من هنا! لم يبق شيء في هذا المكان".

ارتفع صوتٌ أجشّ زاجراً. غير أن رسول ألحّ قارعاً باب الساقي خانه، الذي ما لبث أن انفرج على توجُّس. "هذا أنت يا رسول؟ لكن يجب أن تعلن ذلك!" هتف حكيم. "أيهما هذا، القدّيس أم الحشاش؟" سأل، كالمعتاد، كاكا سَرْوَرْ الذي أفلتَ صوتُه مع رائحة الحشيش ودخانه.

دخل رسول، ووجد لنفسه مكاناً بين الرجال الجالسين في حلقة، وهم روّاد الساقي خانه المعتادون، وقد خيّم عليهم صمتٌ مهيب، وشخصت أنظارهم إلى لحية كاكا سَرْوَرْ الذي كان يدخّن بشراهة. بحث رسول عن جلال. لم يعد هناك ليسأل: هل بدأت الحرب؟ وكان مصطفى هو الذي يسأله، مكدّراً خدر الحلقة، فترتفع الأصوات مؤنّبة: "صَه، صَه". ثم عمّ الصمت ثانيةً، مهيباً دائماً، قبالة كاكا سَرْوَرْ. وكان الجميع ينتظر أن يمرّر الغليون ويتابع حكايته التي قطعها وصول رسول.

- يجب أن أبدأ من جديد؟

- لا، أكملْ! ارتفعت الأصوات معاً.

- لكنّ هذا الشاب لم يسمع شيئاً!

- سوف نروي له البداية.

- حسناً. - ومرّر الغليون إلى الآخرين. - أين كنت؟ أضعتُ

مجرى الأحداث.

– وجدتَ نفسَك في قرية.

– أي نعم! ويا لها من قرية! بيوتها من خشب محفور، بلا نوافذ، ولا أبواب، ولا أسوار. كنت أسمع أصواتاً، لكن لا أرى أحداً. كانت البيوت خالية، أو بالأحرى كانت الظلمة تمنعني من أن أتبيَّن أحداً أو شيئاً. كنت أسمع أصواتاً، ولا شيء غير أصوات، مجوّقة، متناغمة، هادئة. كانت تأتي من كهف، نصف خراب، يقع في مدخل القرية، أسفل رابية جرداء، وعرة، كثيرة الحجارة. كان القرويون كلهم هناك. يرقصون ويتمايلون. رجال ونساء. شبّان وشيوخ وأطفال. كان الرجال يكلّلون رؤوسهم بأوارق الكرمة، والنساء بالعُمرة المسمّاة 'شوشوت'، المزيّنة بأصداف ولآلئ حُمر. وكانوا يوزّعون المشروبات على الجميع.

– أما كانوا كفاراً[1]؟

– لا علم لي. كانوا يشربون، كلهم؛ ويغنّون، كلهم. لم يزعجهم وجودي. كما لو أنني لست موجوداً. حتى أنهم قدّموا لي شراباً، من دون أن يسألوني شيئاً؛ في البدء أعطوني سائلاً أصفر لهبيّاً يسمّونه 'مِنشار الحجر'؛ ثم قدّموا لي شراباً آخر أحمر نارياً، هو 'مِبرد الحجر'. الأول كان حامضاً، والآخر حامزاً[2]. – توقّف مجدّداً ليدخّن. – شربت في ذلك المساء! ولم يعبأ أحد بمعرفة لمَ كنت هناك. بحثت عن زعيمهم فتبيّن لي أنه امرأة، فذهبت لرؤيتها. وما

١ هكذا في الأصل: Kafirs (المترجم).

٢ حامز: فيه لذعة وحرافة وحموضة، كطعم الخردل.

إن قلت لها "صباح الخير" حتى حيّتني وقالت: "أأنت تائه أيها الشاب؟". أجبتها بحياء أنني تائه فعلاً. قالت لي بابتسامة مرحبة: "أهلاً وسهلاً بك في وادي 'الكلمات الضائعة'. وسألتني إلى أين أريد الذهاب، ومن أين أتيت. ولمّا رويت لها كل ما حدث لي هزّت رأسها. وعرضت عليّ كأساً أخيرة من 'مبرد الحجر' ثم نادت رجلاً مُسنّاً وطلبت منه أن يرافقني حتى القرية المجاورة. أعطاني الشيخ مصباحاً، ومضينا في طريقنا. كان يمشي سريعاً واثق الخُطى. وكنت أركض لأنير الدرب أمامه، لكنه أبلغني أن أحتفظ بالمصباح لنفسي لأنه لا يحتاج إليه. سألته وأنا ألهث كيف حدث أن تزعّمتهم امرأة، فروى لي ونحن نسير قصّة لا تُصدّق سوف أرويها لكم غداً.

– آه، لا! اعترضوا، كلهم. والتفت كاكا سَرْوَرْ نحو حكيم قائلاً: لكنني جائع.

– سوف نشتري لك كباباً وشاياً. مَن يحمل نقوداً؟

لم يتحرّك أحد، ما عدا رسول الذي أخرج من جيبه ورقة مالية كبيرة وأعطاها لحكيم.

"لن تفتقر أبداً!" قال له كاكا سَرْوَرْ. "في هذه الحال سأروي لك التتمة، لك أنت. لكن عليّ بالغليون أولاً!". أعطوه إياه؛ دخّن ومرّره إلى رسول. "تلك المرأة، زعيمة القرية، كانت حفيدة حكيم كبير بين الحكماء، كان يعيش في مملكة نائية، منذ زمنٍ بعيد. كان أعمى، لكنه قادر على قراءة المخطوطات بمجرّد أن يلمس الحروف بطرف إصبعه. حاقت به المصائب يوم تبيّن أن الكلمات التي كان يقرأها تنمحي من الكتاب ببطء" توقّف وحدّق في الوجوه المبهورة.

وبعد أن أخذ نفساً عميقاً، تناول الغليون ثانيةً، وحمل الدخان صوته: "ثم إن الشعراء، والعلماء، والقضاة كلّهم تملّكهم الرعب، وأخفى الجميع مخطوطاتهم خشية أن يقرأها هذا الحكيم الأعمى. وهكذا أجبروا الملك على إبعاده عن المملكة. ذهب الحكيم مع أسرته كلها إلى المنفى طوعاً أو كرهاً، وأقام في ذلك الوادي الذي حدّثتكم عنه، وأنشأ هناك بلدة يتعلّم فيها الجميع كل شيء عن ظهر قلب. لم يكن عندهم أي كتاب، أو كتابة، لأنهم كانوا يعرفون كل شيء. لم تُصنع الكتب إلاّ للأغبياء!" انفجر ضاحكاً، ثم دخّن، وسعل، وأكمل: "اخترعوا لغة أخرى يستحيل نسيانها. ومنذ ذلك الحين أخذ الرواة والشعراء والعلماء يتقاطرون على تلك البلدة من أرجاء المعمورة لكي ينقل أهلها مؤلفاتهم إلى لغتهم، ويجعلوها حيّة بأصواتهم، ويخلّدوها في ذاكرتهم. حتى ليبدو أن الرويات المنسية - الحقيقية منها والملفّقة، المعروفة والمجهولة - كانت تعود إلى الذاكرة، وتكتسب شكلاً، وتستعيد في تلك البلدة أصوات الرواة... وكان هذا يخيف، طبعاً، مزوّري التواريخ، وملفّقي الحكايات، ومُشَعوذي الأسرار، ودجّالي العلوم، والسياسيين الأشرار... وذات يوم جاؤوا كلهم إلى البلدة. اجتاحوها، ودمّروها. دمّروا كل شيء. جعلوا الأطفال طُرشاً، وقطعوا ألسنة الكبار، لكن..." وقفة، فنفسٌ عميق من الحشيش، ثم التتمّة: "لكن، لم يدركوا أن في ذلك الوادي مخلوقات وأشياء أخرى غير الكائنات البشرية. البيوت، والأشجار، والصخور، والماء، والريح، والهواء، والطيور، والأفاعي، كلها، في ذلك الوادي، تستطيع أن تتذكّر هذا الشعب، وتاريخه، وحكمته،

وبوسعها أيضاً أن تتذكر همجية الطُغاة!" احتدم صوته، وارتعش، "نعم، يمكن تدمير كل شيء، لكن لا يمكن أبداً تدمير الذاكرة، أبداً لا يمكن تدمير الذكريات، أبداً!" سكت وانسحب من الحلقة ليستند إلى الجدار.

– وماذا بعد؟ سأل مصطفى، مبهوراً.

– بعد، ماذا؟

– قصتك أنت؟

"قصّتي أنا؟ آه، نعم!" هتف كاكا سَرْوَرْ، مبتعداً عن الجدار، وتابع مستعيداً هدوءه: "أنهى دليلي قصة زعيمته عند مدخل القرية المجاورة، وتركني في معبدٍ سرّيٍّ جداً لكي أقضي الليل هناك. وعندما كنت أعيد إليه المصباح، وأصافحه شاكراً، تبيَّن لي أن دليلي كان... أعمى".

– هذا، إذاً! صاح مصطفى، مذهولاً.

واعترض شابٌّ آخر:

– كاكا سَرْوَرْ، هذه القصة، أنت اخترعتها كلّياً. أنت لم تعشها قط. وهي ليست قصة حقيقية!

– الآن بَلى، كما كان يقول حكيم بين حكماء بلاد المغرب، لأنني رويتها لكم، أجاب كاكا سَرْوَرْ بابتسامة ماكرة.

– من أين تأتي بكل هذه القصص يا كاكا سَرْوَرْ؟

– من وادي الكلمات الضائعة يا بُنيّ.

– إذاً، هذا موجود حقاً! هتف مصطفى.

بضعة أنفاس أخرى؛ واللسان الذي يجفّ، وسعلة ممزّقة تُلهب

الصدر، والدم الذي يتخثّر في الأوردة، والقلب الذي يخفق ببطء، ثم الجسد كله الذي يحوِّم.

عندئذٍ، نهض رسول، مستنداً إلى الجدار، وغادر الساقي خانه.

في الخارج، كانت المدينة أتوناً من جمر. كل شيء يتموّج في القيظ: الجبل، البيوت، الحجارة، الأشجار، الشمس... كلها ترتجف خوفاً. ما عدا رسول. كان خفيفاً، هادئاً. وكما لو أنه الرجل الوحيد على وجه الأرض، كان يذرع الشوارع، من دون أن يتمكن من ملاقاة نظرة واحدة، ومداعبة روح واحدة، وسماع كلمة واحدة. كانت تراوده الرغبة في الإعلان بملء الصوت أنه الرجل الأخير، وأن الآخرين أموات كلهم، أموات من أجله؛ ثم أخذ يركض، ويضحك... حتى وصل إلى جسر لارزاناك.

هزّ انفجار غير بعيد الجسر، غير أن رسول لم يتحرّك. لم يرتمِ على الأرض. هوذا هنا واقف، كما لو أنه يحضّ الرُّماة على أن يرموه بالصواريخ. هيّا، إرموا! أنا هنا. وسأبقى هنا، أمامكم. أنتم، الصُّمُّ، العُميُ، البُكمُ!

اكتسحَ الغبارُ النهرَ، والجسرَ، والجسدَ، والبصرَ، والصوتَ...

مضى في سبيله. مرّ أمامَ فندق متروبول. في الداخل أيضاً تعمّ الفوضى. الصحافيون الأجانب، وموظّفو الفندق، والملتحون المسلّحون، كلهم يركضون في جمع الاتجاهات. ربما عاد رازمودين. دخل رسول إلى البهو.

كان موظف شاب – ذاك الذي كان قد حضر إلى الساقي خانه في طلب رسول – يمسك بأسنانه بضعة دولارات، فيما يحاول نقل

جريح، صحافي. حالما لمح رسول انتزع الدولارات من فمه وقال: "رازمودين ليس هنا، لقد اختفى. غادر البارحة، ولم يُرَ ثانية. الكل يهرب. سوف يحدث..." هزّ انفجار عنيف المبنى. بكى الصحافي الجريح. أعطى الموظف الشاب دولاراً آخر فنقله على عجل إلى الطابق السفلي.

في الخارج، كان الجميع يطلقون النار من دون أن يعرفوا لماذا ولا ضدّ مَن.

يُطلقون.

يُطلقون...

لسوف تجد الرصاصةُ هدفَها.

مضى رسول متسكعاً في الخارج من دون هدف محدّد، غير مبالٍ بالفوضى التي تعمّ المدينة. لم يشعر بأي رغبة في العودة إلى بيت صوفيا، ولا الذهاب إلى عمّته بحثاً عن رازمودين – ثم إنه لا بد من أن يكون الآن في مزار، قرب دُنيا. تقدّم نحو وزارة الإعلام والثقافة. صاح به أحدهم من خلف حاجز: "اهربْ يا خاركوس[1]!".

اتجه رسول نحو مصدر الصوت. أمسك به رجل وجرّه إلى الملجأ، وهو يؤنّبه: "أيها الأبله المسكين! إن كنت قد مللت العيش مُت في مكان آخر، هنا لا وقت لالتقاط جثتك. إلى أين تذهب هكذا؟". كان الرجل صديق جانو، وكان قد جاء إلى غرفته لينهال عليه ضرباً. "إن كنت تريد أن ترى القائد برويز فهو غير موجود هنا. ذهب يبحث عن جانو الذي اختفى".

اختفى جانو؟ لا بد أنه هرب. لا بد أنه ضاق ذرعاً بهذه الحرب. نهض رسول وغادر الحاجز. تقدم وسط الرمايات، والصيحات، والدبّابات...

لم يُصب بأذى. وصل إلى منتزه زارنغار. كان يتطاير دخان من بين الأشجار. استلقى على العشب في ركن من الحديقة. دخّن مضيفاً بلا مبالاة دخان سيجارته إلى دخان الأسلحة. ثم أغمض برفق عينيه وبقي ممدّداً وقتاً لا بأس به. ورويداً رويداً تلاشت الضوضاء إلى أن

---

١ هكذا في الأصل: Kharkoss (المترجم).

حلّ صمت مطبق، وطويل.

فجأةً تناهى إليه وقع خطوات تقترب، وتحاذي رأسه، وتخرق وهنَه. فتح عينيه. مرّت قربه امرأة متدثرة بشادور أزرق سماوي. وحالما رآها استوى جالساً.

صوفيا؟

نهض، ومضى في إثرها بخطى متردّدة.

عندما لاحظت أنّ ثمة مَن يتبعها تباطأت، ثم توقفت وأدارت رأسها بتوجّس نحو رسول الذي اقترب. ابتعدت قليلاً عن الممر لكي تدعه يمرّ، لكنه توقف هو أيضاً، فاستأنفت السير متحيّرة.

دَعْها يا رسول، هذه ليست صوفيا.

لكن مَن هي؟

امرأة، بين كثيرات مثيلاتها.

لكن ماذا تفعل هنا؟ لماذا جاءت إلى المنتزه، خصوصاً، في هذه اللحظة، بينما يهرب الجميع؟

مثلك، لجأت إلى المنتزه، تحتمي بين أشجاره.

لا، جاءت لتراني. بلا أدنى شك.

وصلت المرأة إلى طرف المنتزه وسلكت الطريق الكبير الذي يؤدي إلى تقاطع مالك أصغر.

حَثّ رسولُ الخُطى، فتجاوزها وسدّ عليها الممر.

توقفت، مرعوبة؛ أدارت رأسها في جميع الاتجاهات. ما من أحد. بلغ منها الذعر مبلغاً، فالتفّت حول رسول لتتابع سيرها، من دون أن تنبس بكلمة. تبعها رسول. وعندما اقترب منها دقق النظر

إليها ليرى إن كان لها قوام صوفيا. لا. قوام ابنة نانا عليا؟ غير مؤكد.
إذاً، لِمَ تتبعها؟

لا أدري. قدومها إلى هنا غريب. لا بد أنها تبحث عن أحد ما.

لكن ليس عنك!

مَن يعلم؟

وصلا إلى تقاطع الطرق. اجتازته بخطى متسارعة. انظرْ إليها. ألها مظهر من يبحث عنك؟ الأَولى أن يقال إنها تفرّ منك.

كفّ عن مطاردتها، خائباً؛ ودخّن سيجارة.

لكنّ المرأة، حين وصلت إلى الجانب الآخر من التقاطع، توقّفت، واستدارت لكي تلحظ رسول.

تلعبُ معي. تتوقّع أن تراني خلفها.

واندفع ليلحق بها. فرّت مجدّداً. "قفي!".

توقّف رسول.

من أين خرج هذا الصوت؟

منك!

"قفي!" نعم، يخرج الصوت من حنجرتي!

صاح: "قفي!" هذا صوته، واهناً، تالفاً، مبطّناً، لكنه مسموع. "قفي!" لحِق بها. صاح: "قفي" لاهثاً، "... لقد استعدتُ صوتي!". حاول أن يتبيّن ملامح المرأة من خلال شبكة شادورها، "يمكنني أن أتكلّم!". اقترب خطوة منها، "أريد أن أكلّمكِ". أصغتْ إليه. بحث عن كلماته. "مَن أنتِ؟" لبثت صامتة. "مَن أرسلكِ؟" امتدّت يده، الأكثر تردّداً من صوته، لترفع حجابها. تراجعت المرأة مرتاعة. "أياً

تكونين، يجب أن تعرفيني. جئتِ تبحثين عني. جئتِ لكي تجعليني أتكلّم. أليس كذلك؟" أدارت المرأة رأسها. "أنتِ التي حملتِ إليّ، في حلمي، جوزة عنقي، تفاحة آدم". لمسها؛ ارتعشت، وفرّت إلى الوراء. "كنت أعرفكِ، كنت أبحث عنكِ. أنت المرأة ذات الشادور الأزرق السماوي. عرفت مشيتكِ. أنتَ التي رأيت جثة نانا عليا، وأنت التي أخفيتِها. ذهبتِ ومعكِ علبة مجوهراتها ونقودها. نِعمَ ما فعلتِ. أنت ذكيّة وماكرة. أحسنتِ!". تردّدت في اجتياز الشارع، والانتقال إلى الرصيف الآخر. "يجب أن تعلمي شيئاً: كان بإمكاني أن أقتلك، أنت أيضاً، لكنني لم أُرد ذلك... أنت تدينين لي بحياتك، أتعلمين؟". ترنّحت – من الخوف، أو من التعب – ملكت نفسها، وحثت خطاها. "اسمعيني! إبقي لحظة. عندي أشياء أودّ أن أقولها لك". تركت الرصيف، وقفت وسط الطريق على أمل أن يظهر لها شخص، سيارة، دبّابة... لا شيء بدا، ولا أحد. تبعها رسول. "لا تهربي مني. لن أؤذيك. لست قادراً على ذلك". التقط شادورها الذي انزلق من بين أصابعه. "ما عدتِ قادرة على الإفلات مني. انتهى الأمر. لقد تلاقينا. نحن متماثلان. كلانا يداه ملطّختان بالجريمة ذاتها. أنا قتلت، وأنت سرقت. أنا قاتل؛ وأنت خائنة...". توقّفت، واستدارت لكي تُنعم فيه النظر مجدداً، ثم انطلقت. فوجئ رسول بهذا التوقّف غير المتوقّع، فاستطرد بهدوء: "غير أن هذا الجُرم الذي نتقاسمه يثقل على ضميري وحده. وليس من الإنصاف أن أعاني منه وحدي. أنا الذي أردت بهذه الجريمة أن أحرّر خطيبتي من قبضة تلك المومس، وأنقذ بنقودها عائلتينا... الآن، أنا آسف على تلك النقود، وتلك المجوهرات،

لكن الندم ينخرني. ساعديني! لا أحد سواك يمكنه أن يساعدني. ينبغي أن نكون شريكين، وأن نحتفظ بهذا السرّ طوال حياتنا، وأن نكون سعيدين". أبطأت المرأة خطاها مجدداً – وقت للتفكير، للشك، أو بالأحرى للراحة –، ثم تابعت سيرها نحو "ولاية[1]" كابول، مقرّ الحكومة. "قولي لي ماذا فعلت بعلبة المجوهرات والنقود. إنها لي. يجب أن أستعيدها. بكل هذه الأموال يمكنني أن أُسعد عائلتين، بل ثلاثاً مع عائلتك، الآن. لا أُبالي إن اعتقلوني، لا أبالي إن شنقوني؛ على أي حال، سيخفف هذا عن كاهلي عبء جريمتي، وسأتخلّص من كل هذا العذاب". حاذت المرأة التي بقيت صامتة أسوار ولاية كابول. ولم يجرؤ رسول على التقدّم. حدّق في المرأة: "خذيني معك، وإلاّ أبلغت عنك العدالة، لدى الحاكم. أيتها الصمّاء الخرساء، هل تسمعينني؟". الصمت دائماً. "قولي لي، على الأقل، من أنت. قولي لي إن كانت جريمتي قد أسعدتك". أصبحت المرأة أمام بوّابة الولاية، فتوقفت والتفتت نحو رسول، كما لو أنها تدعوه للعبور إلى الداخل. أمّا هو فتقدّم بخطى مترددة ملامساً الجدار: "كلاّ، لا يمكنك أن تكوني سعيدة من دوني. أنت بحاجة إليّ، كما أنني محتاج إليك. نحن مثل آدم وحوّاء. طُرّة ونقشة. كلانا مطرودان لنعيش على هذه الأرض المعذّبة. لا يستطيع أحدنا أن يعيش من دون الآخر. نحن محكومان بتقاسم جريمتنا وعقابنا. سوف نؤسّس أسرة. سوف نمضي بعيداً، بعيداً جداً، في وديان يتعذّر بلوغها. سوف نبني حاضرة نسمّيها... وادي 'الخطايا الضائعة'. سوف نخترع قوانينا الخاصة، وأخلاقنا الخاصة. وسننجب

---

[1] هكذا في الأصل: Kaboul Wellayat (المترجم).

أطفالاً، لا يشبهون قايين وهابيل، وإلاّ لقتلت قايين. نعم، سأقتله لعِلمي بما هو قادر على فعله. وسأقتله لحظة ولادته!". فتحت المرأة البوّابة، وبعد أن ألقت نظرة أخيرة على رسول، دخلت إلى الباحة.

أما هو فلبث مدهوشاً. نظر حواليه؛ ما زال الشارع مهجوراً؛ والصمت أعمق؛ والسماء منخفضة وثقيلة. تقدّم حتى بوّابة الولاية. لم يميز من خلال القضبان إلا خرائب، وما من أثر للمرأة. مَن كانت؟

"من هذا؟" سمّر صوتٌ مزماريّ النغم رسولٌ في مكانه. من أين يخرج الصوت؟ "هل ثمة أحد؟" تمتم رسول بنبرة واهنة وخامدة. "نعم، جِنّ!" انبعث صوت آخر انتزع الضحك الساخر من مَرْقَب مشيّد بحجارة منحوتة، يقع إلى جانب بوّابة ولاية كابول. لمح رسول داخل المرقب أجساداً ممدّدة على الأرض.

– أما رأيتم امرأة تدخل؟

– امرأة؟ هنا؟ ليت أنّا حظينا بهذه الفرصة! – واهتزّت الأجساد مقهقهة.

– هل في الولاية مِن أحد؟

– عمّن تبحث؟

– عن النائب العام.

– أيّ جنيّ، هذا؟ – وسأل رفيقه: – أتعرفه، أنت؟

– كلاّ. اطلب منه سيجارة.

أخرج رسول سيجارتين ومدّ يده بهما إلى الداخل. "ألقِهما!" فألقاهما.

– مع ذلك، يوجد أحد ما هنا؟ حاكم، أو قاضٍ، أو...

– إذهبْ وانظرْ بنفسك! لِمَ تسألنا عنه؟

لم يرَ رسول رأسَي الجنديّين. شقّ طريقه في الباحة المخرّبة والمغطّاة أرضها بالأوراق والدفاتر المحروقة. كانت الجدران مخرّقة بالرصاص. وكان مقرّ الحاكم مهجوراً، غارقاً في صمتٍ كئيب وكثيف. ولا أثر للمرأة ذات الشادور الأزرق السماوي.

ظهور غريب!

اختفاء غريب!

امرأة أثيريّة جاءت من لا مكان. كما لو أنها جاءت لتعيد له صوته، وتدلّه على الطريق، وتسلمه للعدالة، وتقوده إلى هنا، إلى ولاية كابول حيث يعمّ الخراب: قصر العدل، ومبنى الحراسة، والسجن...

توقف أمام المبنى الوحيد الذي لم يطاوله الخراب. صعد الدرج، ودخل. ثمة رواق طويل بجدران قذرة. سار ترنّ خطاه جاعلةً الصمت أشدّ كثافةً وإقلاقاً. تسمّر في مكانه. اعتراه إحساس غريب. تردّد، ثم تقدّم، كارهاً. كانت أبواب المكاتب على جانبَي الرواق مفتوحة، والنور ينفذ من فُرجاتها، مضيئاً ممرّاً مظلماً ومُنفّراً. وكانت الغرف كلّها، على الرغم مما فيها من أثاث – كراسٍ، طاولات، قرطاسية –، بلا روح، ما عدا واحدة، حيث عُلِّقت بعضُ الثياب النسائية والولاّدية التي لا تزال مبلّلة على حبل غسيل تحت أشعة الشمس. إذاً، توجد حياة هنا. ولا بد أن المرأة ذات الشادور الأزرق السماوي تقيم في هذا المكان. سوف أعرفها أخيراً.

عندما وصل إلى منتصف الرواق سمع وقْع خُطى، ثم لمح صبياً

صغيراً يصعد السلّم قادماً من الطابق السُّفلي. وحالما رأى رسول عاد أدراجه راكضاً. تبعه رسول على السلّم نزولاً حتى الطابق السفلي حيث عُلِّقت لوحة مكتوب عليها: "محفوظات القضاء". كان ينبعث من رواق طويل نور ضئيل قاده إلى غرفة تناهت إليه منها همسات خامدة شائخة "يو... يونس... يوس... يوسف...". دخل رسول إلى الحجرة. كانت قاعة فيها خزائن ورفوف مصفوفة مملوءة كلها بملفّات عتيقة، مُصفرّة بمرّ الزمن. كان الصوت لا يزال يرنّ من مكان لا يستطيع رسول أن يراه. "هل يوجد أحد؟" هتف متوجّساً. لا جواب، غير أن ذلك الصوت الشائخ ما انفكّ يهذي: يوسف...

"هل يوجد أحد؟" كرّر بصوت مرتفع. بعد برهة من الصمت ردّ عليه الصوت ذاته: "بل يوجد اثنان!" وتابع من دون انتظار: "يوسف، يوسف، يوسف كا..."، كما لو أنه يتلو رُقية. بحث رسول عن ممرّ ليصل إلى الرجل. هو ذا هنا، في عمق الحجرة، أمام كوّة، خلف مكتب ضخم، يدقّق في الملفّات، على ضوء قنديل يحمله صبّي.

بسبب الضوضاء التي أحدثها رسول رفع الاثنان عيونهما نحوه. هزّ الشيخ رأسه كما لو أنه يحيّيه ثم أكبّ على عمله تلقائياً. سأل رسول وهو يقترب من المكتب: "أبحث عن السيّد... النائب العام". بدا أن الشيخ لم يسمعه لانهماكه في تصفّح دفتر ضخم أخرجه من إحدى الإضبارات. قلّب عدة صفحات وتوقفت إصبعه على لائحة أسماء. "يوسف... كا، يوسف كابـ... يوسف كابولي! أليس هذا يا ولد؟". كان الصبي الذي يحمل القنديل شارد الذهن جرّاء حضور رسول. "أنا أكلّمك يا ولد، انظرْ إن كان هذا هو اسم أبيك. أين شرد

عقلك؟". انحنى الصبي على الدفتر مرتبكاً. تقدّم رسول خطوة، وسأل ثانيةً نافد الصبر: أين يمكنني أن أجد السيد النائب العام؟

"سمعت جيّداً يا محترم[1]، وفهمت جيداً ما سألتني عنه. لم تطرح عليَّ أُحجية على حدّ علمي!" سكت برهة، كما لو أنه يريد أن يحصل على موافقة رسول، ثم سأله: "الأمر عاجل؟" بلهجة تأنيب جعلت رسول يتردّد قبل أن يدمدم: نعم.

"دعني أُنهي هذه القضية أولاً، بعدها أهتمّ بقضيتك"، قال العجوز؛ ثم التفت إلى الصبي عابساً: ماذا بعد، أتعرف أن تقرأ أم لا؟

– بلى، أعرف القراءة، لكنّ إصبعك...

– ما بها إصبعي؟

– فوق الاسم!

– قلت لك أن تقرأ الاسم الذي فوق إصبعي يا غبي!

نكّس الصبي رأسه وتَعْتع:

– يو... يوسـ... يوسف... كا... كابولي، نعم هذا هو، أعتقد.

– تعتقد؟! منذ أسبوع وأنت تصمّ أُذنيّ بهذا الاسم؛ والآن لديك شكوك! هذا أمر خطير يا ولد، خطير جداً.

– لم أقل إنني أشك. قلت أعتقد.

– بِمَ تهذي؟ طيّب. إذاً، ما رقم الملفّ؟

– رقم الملفّ؟

– نعم، الأرقام!

– الأرقام؟... لا توجد أرقام. انظرْ بنفسك!

---

١ هكذا في الأصل: mohtaram (المترجم).

– كيف لا توجد أرقام؟ ارفع القنديل!

رفع الصبي القنديل. ثارت أعصاب العجوز:

– في هذه الحال، كيف سأجد الملف اللعين؟

دقّق النظر في كومة الأوراق. اغتاظ رسول:

– قبل أن تتابع بحثك، ربّما أمكنك أن تجيبني إذا ما كان النائب العام...

– اسمعْ أيها الشابّ، قضية هذا الصبي أهمّ من حضور السيد النائب العام أو غيابه. مصير عائلة على المحكّ. منذ أسبوع وأنا أُرهق نفسي لأضع يدي على هذا الملف؛ والآن يجب أن أتخلّى عن كل شيء لكي أبحث عن السيد النائب العام! أولاً، ما عاد في هذا المكان نائب عام. ثانياً، هنا، أنت لست في مكتب استقبال. نحن في مكتب محفوظات القضاء. وما أنا إلا كاتب محكمة متواضع يعتني الآن، على نحو بائس، بهذا المكان! – توقّف لحظة، ثم أحنى رأسه مجدداً على لائحة الأسماء وغمغم: – ما الذي تريده منه، من هذا السيد النائب العام؟

– جئت لكي أسلّم نفسي للعدالة.

– آه، آسف، لا يوجد أحد لاستقبالك.

دنا رسول منه وقد اعترته دهشة وثارت أعصابه، وحاول أن يتكلّم بصوته المنكسر: "لم آتِ لكي يتمّ استقبالي، جئت..." ورفع صوته مشدّداً على كل كلمة: "... لكي أسلّم نفسي للعدالة!".

– فهمتُ جيداً. أنا أيضاً أستسلم للعدالة كل يوم، وهذا الشاب أيضاً.

– لكنْ أنا، جئت لكي يتمّ اعتقالي. أنا مجرم.

– إذاً، عُدْ غداً. لا يوجد أحد اليوم.

واستغرق مجدداً في تقليب الدفتر الضخم. استشاط رسول غضباً؛ وضع يده فوق الأوراق، وصاح من حنجرته الناحلة مُنهكاً رئتيه: أسمعتَ ما قلته لك؟ أفهمتَ ما أريد؟

– باه، نعم! جئتَ لتسلّم نفسك للعدالة، لأنك مجرم. لا؟

حدّق فيه رسول منذهلاً. هزّ الشيخ رأسه، مومئاً: وإذاً؟

– إذاً، يجب اعتقالي.

– لكن لا يسعني أن أفعل لك شيئاً. كما قلتُ لك، أنا كاتب المحكمة، وهذا كل شيء.

"بابا[1]، أعطني نقوداً، سأذهب لأشتري خبزاً"، كان هذا صوت طفل، هو الذي رأى رسول في الرواق منذ قليل، وقد انبعث من خلف الرفوف، لافتاً انتباه الثلاثة. "سأذهب إليه..." قال الشاب، ابن يوسف كابولي. "لا، أنت تبقى هنا، إننا نبحث عن أبيك" أمره كاتب المحكمة الذي ذهب ليعطي الطفل نقوداً، ثم عاد، متذمّراً، نحو الدفتر الضخم. "يقال إنني كاتب المحكمة، لكن في الواقع أنا أقوم بكل شيء هنا. لم تعد لدينا قضايا... عليّ إذاً أن أهتمّ بالمحفوظات..." وتابع تصفّح الدفتر. "لو لم أكن هنا، قَسَماً، لكانت الجرذان قرضت كل هذه الملفات؛ أو لدمّرتها القذائف".

"نعم، هذا صحيح، المكان هنا يعجّ بالجرذان"، أكّد الشاب الذي شرع في ترتيب الملفات بناءً على أمر كاتب المحكمة.

---

١ هكذا في الأصل: Bâba (المترجم).

أخرج رسول سيجارة وأشعلها، ممتعضاً من موقف كاتب المحكمة. قال بصوت مبحوح قانط: "قتلتُ أحدهم". لم يأبه أيٌّ منهما لإقراره بالذنب. ربّما لم يسمعا. إذاً، فليقل بصوت أقوى قليلاً: "قتلتُ أحدهم" ليسمعاه. التفتَ الإثنان نحوه، لكن سرعان ما استأنفا بحثهما، من دون أن ينبسا ببنت شفة.

ربّما سمعا، لكن لم يفهما.

أجد صعوبةً في النطق. ما زال صوتي خامداً، لا يكاد يُسمع.

رفع صوته، وصاح: "ولكن هل تفهمانني؟". حدجه كاتب المحكمة بنظرة حانقة، ولم يقل شيئاً. حلّ الصمت مجدّداً، وعاد الرأسان منكبّين على الملفات، والأسماء، والأرقام، والشكوك... وتابع رسول كما لو أنه يكلّم نفسه: "أعلمُ أنني لم أصنع مأثُرة. لم أرتكب سوى جريمة عاديّة. لا يهمّ. لقد قتلت، وأنا أستسلم للعدالة"، ثم جلس قرب خزانة.

أصبح حضور رسول أشدّ وطأةً على كاتب المحكمة العجوز وأكثر إقلاقاً وانتهى به الأمر بأن أغلق الدفتر الكبير. "فَرزان، سوف نستأنف البحث عن أبيك غداً. اِذهب وأعدّ الشاي"، قال للشاب الذي وضع القنديل على الطاولة في الحال، وسأل مُحتدّاً: "أخضر أم أسود؟".

"أخضر أم أسود؟"، أعاد كاتب المحكمة السؤال موجّهاً إلى رسول الذي أجاب مُتعباً: "أسود".

ذهب فَرزان. أخذ الشيخ القنديل واتجه نحو الرفوف. "هذا المسكين فَرزان، كان أبوه خبير محاسبة في النظام الملكي، من عائلة

محترمة. لكن في عهد الشيوعيين، جاؤوا إلى منزله فاعتقلوه واقتادوه إلى السجن، من دون أن يقولوا شيئاً. فيمَ كان متّهماً؟ لم يعلم أحد قط، ومثل جميع المسجونين آنذاك لم تجرِ محاكمته أبداً. ثم فُقدَ أثره. قيل إنه شُنق أو نُفي إلى سيبيريا. ولا يدري أحد ما حلّ به. الآن، لا هَمّ لابنه إلاّ أن يجد أثر والده. يريد أن يعرف فيمَ كان متّهماً. أعلمُ أنه لن يحصل على جواب مطلقاً". عاد إلى مقعده وراء المكتب: "أعتقد أن أمراً خطيراً حدث لأسرته يوم اعتقاله وحاول أن يعرفه، ويكتشفه. وهذا ما يعنيني، أنا أيضاً، وليس البقية: العدل، الظلم، إلخ. ما هذه إلا خيارات، لا مفاهيم"، وسكت لحظات لكي يستقرئ على وجه رسول أثر قوله المأثور، وتابع: "منذ مجيئه إلى هنا أصبح مساعدي..." وقهقه: "لطالما أحببتُ تجميع القصص المتعلّقة بالعدالة. من خلالها نفهم على نحو أفضل تاريخ بلد، وروح شعب. أعرف منها آلاف القصص، ويلزمني وقت لكي أعيد كتابتها، ولكنهم لا يتيحونه لي!"، وأشار إلى كومة من الملفات مكدّسة في إحدى الزوايا، "القاضي الأعلى طلب مني لائحة بأسماء جميع المجاهدين المسجونين في عهد الشيوعيين، ولكنه طلب أيضاً لوائح الشهداء. يقولون إن وزارة الشهداء تطلبها. وزارة الشهداء!"، وأغرب في الضحك ثانيةً، ساخراً هذه المرة، وناظراً إلى رسول الذي كان مستغرقاً بحزن في تأمّل مصيدة الجرذان الموضوعة تحت المكتب.

– وإذاً، أيها الشاب، مَن قتلت؟

– امرأة.

– أكنت مُغرماً بها؟ استعلم من دون أن يكفّ عن ترتيب الملفات.

- قتلُ قوّادة ليس جريمة في عُرف عدالتنا المبجّلة. إذاً، أنت... لا بدّ أنك تتعذّب من شيء آخر.

استوى كاتب المحكمة في كرسيّه وأنعم النظر في رسول. ازدرد هذا بصعوبة قطعة من الخبز وهو منكّس الرأس. كان الثلاثة جلوساً حول المكتب الذي تحوّل إلى طاولة لتناول وجبة خفيفة.

- فَلْنُلخّص: أنت تتعذّب، وتشعر بأنك مُنهك، لأنك لم تتوصّل إلى معرفة لِمَ كل هذه الأسرار المحيطة بجريمتك. أهذا ما تشعر به؟

- نعم، ولكن...

- دعني أكمل. بناءً على أقوالك، في البداية اعتقدت أنك تعاني لأن فعلتك باءت بالفشل، لأنك لم تختلس المال والمجوهرات... التي كان من شأنها أن تمكّنك من إنقاذ عائلتك. ثم أدركت أنك لو أخذت مال ومجوهرات نانا... ماذا؟ نعم، نانا عليا، لكنت أشدّ ندماً وأكثر ألماً... بعد ذلك تأكّدت أن المال والمجوهرات لم تكن إلاّ ذريعة: الواقع أنك قتلت تلك القوّادة لكي تمحو عن وجه الأرض إحدى بنات وَرْدان، ولكي تنتقم لخطيبتك بوجه خاص... لكن تبيّن لك أن هذا لم يغيّر في الأمر شيئاً. لم تخفّف جريمة القتل من تعطّشك للثأر. لم تُسْليك. بالعكس، خلقتْ هاوية رحت تنحدر فيها يوماً بعد يوم... وما يضنيك اليوم ليس فشل مجازفتك، ولا إحساسك بالخطأ؛ أنت تتعذّب بالأحرى من عبثية ولا جدوى ما أقدمت عليه.

باختصار أنت ضحيّة ما اقترفت يداك من جريمة. أمعي حق؟

– نعم، هذا هو الحاصل، أنا ضحيّة جريمتي. وأسوأ ما في هذه القصة هو أن جريمتي ليست عادية وباطلة فحسب، بل لا وجود لها. لا أحد يتحدث عنها. اختفت الجثّة على نحو غامض. والكل يعتقد أن نانا عليا ذهبت إلى الريف، حاملةً معها مجوهراتها وثروتها. هل صادفت في محفوظاتك القضائية كلها حالة لا معقولة كهذه؟

– أوه، أيها الشابّ، رأيت جرائم أكثر لا معقولية من حالتك. وتأكّدت أن قتل قوّادة لا يمحو الشر عن وجه الأرض، خصوصاً في هذه الأيام. وكما قلتَ أنت، القتل هو أكثر الأعمال خلوّاً من المعنى في هذه البلاد.

– لهذا السبب جئت مستسلماً للعدالة. أريد أن أضفي معنى على جريمتي.

– هل سبق لك أن أضفيت معنى على حياتك، حتى تتمكّن من أن تضفي معنى على جريمتك؟

– بالضبط، خِلتُ أنني أفعل ذلك بهذه الجريمة.

– مثل كل هؤلاء الناس الذين يقتلون باسم الله لينسوا خطاياهم! هذا من قبيل البديل أيها الشاب، البديل! أتفهم؟

"نعم"، أومأ برأسه، ثم سأل كاتب المحكمة: هل تعرف دوستويفسكي؟

– كلاّ، أهو روسي؟

– نعم، كاتب روسي، لكنه ليس شيوعياً. لا يهمّ. كان يقول لو لم يكن الله موجوداً...

– توبة، نعوذ بالله.[1]

– لو لم يكن الله موجوداً... لكان الإنسان قادراً على كل شيء.

بعد صمت تأمّليّ، قال كاتب المحكمة: "ليس مخطئاً!" وهمس في أذن رسول:

– إذاً، عزيزك الروسي، كيف كان بإمكانه أن يُفسّر إباحة كل الفظاعات التي تُرتكب اليوم، هنا، في بلادك العزيزة، حيث يؤمن الجميع بالله، الغفور الرحيم؟

– تريد أن تقول إن هؤلاء الناس... تدخّل فَرزان، ضائعاً وسط هذه المناقشة.

– أنت، يا ولد، اذهب وائتنا بالماء! – أمره كاتب المحكمة لكي يتخلّص منه، وتابع: – تعلمُ أن الخطيئة إذا ما وجِدت، كما يقال، فلأن الله موجود.

– نعم، لكن، اليوم، لديّ انطباع معاكس. أستغفر الله! إن كان موجوداً فليس لمنع الخطايا، بل لتبريرها.

– أي نعم، وأسفاه، نحن ندأب على الاستعانة به، أو بالتاريخ، أو الضمير، أو الوعي، أو العقائد... لتبرير جرائمنا، وخياناتنا... قِلّة هم أولئك الذين أقدموا، مثلك، على ارتكاب جريمة، ثم ندموا.

– آه، كلاّ. أنا لا أشعر بأيّ ندم.

– لا ندم، اتفقنا. لكنك تعي ما أقدمت عليه. انظرْ حواليك: مَنْ لم يَقتل؟ كم مِن المجرمين وصلوا مثلك إلى هذا المستوى من الوعي؟ لا أحد.

---

١ هكذا في الأصل: tobah na'ouzofellah (المترجم).

– بالضبط، إن وعيي هو الذي يجعلني مذنباً.

– إذاً، ما الحاجة إلى قضية، إلى محاكمة؟ كل ذلك، نظرياً، هو لأولئك الذين لا يعترفون بجريمتهم، وذنبهم. ثم، من يمكنه اليوم أن يحاكمك؟ لا يوجد أحد هنا، لا قاضٍ ولا نائب عام. الكلّ في حالة حرب. الكلّ يلهث وراء السلطة. لا وقت لديهم ولا مصلحة في المجيء للاهتمام بدعواك. بل هم يخشون الدعاوى. ذلك أن دعوى البعض قد تصبح دعوى الآخرين. هل تفهمني؟

بدا رسول متحيّراً. تابع كاتب المحكمة:

– ماذا تريد؟ السجن؟ روحك سجينة جسدك، وجسدك سجين هذه المدينة.

– إذاً، إن كنتُ هنا أم في الخارج، لا شيء يتغيّر.

– لا شيء يتغيّر.

– في هذه الحالة، سأبقى هنا.

نفد صبر كاتب المحكمة. تناول ملفاً ورماه أرضاً. "لكن هنا، لا يوجد أحد. وأنا لا أستطيع الاهتمام بك" صاح. "ما من سجن، ولا حراسة... لا شيء. لا يوجد شيء بعد. بل لا يوجد قانون. بدأوا بتغيير القانون الجزائي. وسيعتمد كل شيء على الفقه، والشريعة[١]".

رنا إلى رسول، مغضباً، وسط صمت مرهق. وقبل أن يلتقط الملف الملقى عند قدمي رسول، مدّ له يده: "سُررت بلقائك أيها الشاب. حان وقت صلاتي. سلام!" ثم وضع الملف على المكتب وانسحب إلى الغرفة الأخرى.

١ هكذا في الأصل: charia و fiqh (المترجم).

لبث رسول ذاهلاً، بلا كلمات، ولا صوت، وأكثر صمتاً من السابق.

أين أنا؟

في نَكُودا آباد[1]، بلاد اللا أين!

عاد فَرزان: إذاً، بقيت؟ معك حق. هنا، المكان جيّد. هذا ملجأ آمن... السيد كاتب المحكمة يقيم هنا مع أسرته كلها. الجو لطيف هنا. زوجته رائعة. وبارعة الجمال أيضاً، وتُحسن الطبخ...

- تلك التي دخلت منذ قليل قبل وصولي؟ امرأة في شادور أزرق سماوي؟

- آه كلاّ! هي لا تخرج من هنا أبداً. تخاف من القنابل. تخشى أن تكون وحيدة. وهي...

إذاً، هي ليست المرأة الشيطانية. لكن في هذه الحال، لِمَ يُلحّ كاتب المحكمة كل هذا الإلحاح لكي أذهب؟

"أيها الأخ!" صوت خفيض، يتلوه وَقعُ خُطى تبحث عن طريقها، منع رسول من الاستمرار في مراكمة شكوكه. هرب فَرزان إلى الغرفة المجاورة وأشار إلى رسول أن يتبعه، غير أنه لم يحرّك ساكناً. وظهر أربعة رجال مسلّحين.

- كاتب المحكمة ليس هنا؟

- إنه يصلّي، أجاب رسول.

- وأنت، ماذا تفعل هنا؟ سأله أحد الأربعة.

- اسمي رسول، وجئت لكي أسلّم نفسي للعدالة.

---

١ هكذا في الأصل: Nâkodja âbâd (المترجم).

– ماذا تعمل؟ استعلم أحدهم.

– أنت تعمل هنا؟ تابع الآخر.

– كلاّ، جئت لكي أسلّم نفسي للعدالة. ردّ رسول، مندهشاً أمام هؤلاء الرجال الأربعة الذي ينظر بعضهم إلى بعض، مرتابين.

– هنا لا يوظّفون أحداً!

– لم آتِ لكي أعمل. أتيت لكي أُحاكَم.

حدّق فيه أحدهم وهو يُمسّد لحيته:

– تريد أن تحاكم؟ لماذا؟

– قتلتُ شخصاً.

تبادلوا النظر في ما بينهم مجدداً متشكّكين. لم يبقَ لديهم ما يقولونه. أخيراً، تقدّم أحدهم نحو رسول وقال:

– سوف نرى ذلك مع حضرة القاضي[١]. هيّا، تعال!

لدى خروجهم من المبنى لحق بهم كاتب المحكمة يتبعه فَرزان:

– أتبحثون عني؟

– نعم، يريد القاضي أن يعرف هل أنجزتَ لائحة الشهداء؟

– ليس بعد!

– إذاً عُدْ إلى عملك وائتِ بها في أقرب وقت ممكن!

لكنّ كاتب المحكمة لبث مسمّراً في مكانه، مصعوقاً بحماقة رسول.

عندما وصلوا إلى مبنى، دُمّرت بعض أجزائه، دخلوا حجرةً مهيبة، فيها مكتب كبير يجلس وراءه القاضي الذي لم يُعرهم اهتماماً

---

١ في الأصل: Qhazi sahib (المترجم).

لانشغاله بالتهام قطعة كبيرة من البطيخ. كان يعتمر طاقية بيضاء تغطي رأسه الضخم الحليق؛ وتُطيل لحيةٌ مُسترسلة وجهه اللحيم. انتظروا حتى فرغ من الأكل. وبعد أن تخلّص من قشور البطيخ بطرحها في صينية، أخرج محرمة كبيرة مسح بها فمه ولحيته ويديه، ثم تجشّأ وأشار إلى رجل عجوز أن يرفع الصينية. ثم تناول مسبحته ونظر إلى رسول سائلاً الآخرين:

– أين المشكلة؟

– أتيناك بمجرم.

تحوّلت نظرة القاضي عن رسول وحطّت على رجاله، نظرة خالية من التعبير، ما عدا عبارة "وماذا بعد؟" التي لم ينطق بها. سأل:

– أين اعتقلتموه؟

– لم يُعتقل. استسلم من تلقاء نفسه.

هي ذي المفاجأة إذاً. حدّق القاضي في رسول مجدّداً: "مَن قتل؟". لا جواب. همس أحدهم في أذن رسول:

– مَن قتلتَ؟

– امرأة.

قضية عائلية أخرى. بلا أهمية، إذاً. تضايق القاضي من بزرة بطيخ علقت بين أسنانه فحاول أن يزيلها بطرف لسانه. لم يُفلح. تابع بنبرة متجرّدة:

– لأيّ سبب؟

ران الصمت مرّة أخرى. عاود الحارس نقل السؤال إلى رسول، فهزّ كتفيه ليقول إنه لا يعرف.

– أكانت زوجته؟

– أكانت زوجتك؟

– كلاّ، ردّ رسول أخيراً، ضجراً من هذه الأسئلة غير المباشرة، وهذه النظرات المحتقِرة.

أخذ القاضي استراحة لا لكي يفكّر بل ليهتمّ ببزرة البطيخ، بالإصبع السبّابة هذه المرّة. مستحيل. أقلعَ.

– مَن كانت إذاً؟

– سيّدة تدعى نانا عليا، من ده أفغانان، أجاب رسول قبل أن يعيد الحارس السؤال:

– لسرقتها؟

– كلاّ.

– لاغتصابها؟

– كلاّ.

توقّف الاستجواب مجدّداً، وقام القاضي بمحاولة أخرى ضدّ البزرة. أدخل في فمه السبّابة والإبهام معاً. لن يتمكّن من انتزاعها، بالتأكيد. ودّ رسول أن يساعده. سبّابته نحيلة، عظمية، ذات ظفر مُسنّن. ويُحسِنُ العمل: يجب دفع البزرة بطرف الظفر وامتصاصها في الوقت عينه.

– أين الشهود؟

– لا يوجد أيّ شاهد.

استشاط القاضي غيظاً من بزرة البطيخ الشنيعة فمزّق بعصبيّة زاوية ورقة ملفّ، وطواها، ثم دسّها بين أسنانه – جهد ضائع – تبللت الوُرَيقة ولانت. احتدّ: "هل مع أحدكم عود ثقاب؟" وألقى بالوريقة

على المكتب. سارع رسول لإعطائه علبة كبريته. أخذ القاضي منها عوداً، ونزع عنه الكبريت، وشقّه بأظفاره، وانهمك في إخراج البزرة الشيطانية. ولمّا تخلّص منها أخيراً تأمّل بارتياح هذه القُلامة الكثيرة الإزعاج، وأمر الحرّاس:

– أطلقوا سراحه! لا وقت لديّ للنظر في هذه الحالة.

"تعال!" أمسكه أحد الحراس من ذراعه. غير أنه بقي مُسمّراً أمام مكتب القاضي. لن يتحرك. لا! ولسوف ينقضّ على القاضي، ويأخذ بلحيته، ويصرخ: "انظرْ إلى نفسك فيّ! أنا قاتل، مثلك! لماذا، أنت، لا تُعاني من ذلك؟". تقدّم خطوة، غير أن قبضة الحارس أوقفته. "أيها القاضي، يجب عليك أن تحاكمني" ألحّ في الطلب. فكّر القاضي في الأمر مَلِيّاً وهو يلامس جبهته، ثم تكلّم موقّعاً كلماته على إيقاع مرور حبّات مسبحته بين أصابعه:

– حالتك قضيّة قِصاص[١]. اعثرْ على أسرة المرأة، وادفع دِيّتها. هذا كل شيء. والآن، غادر مكتبي.

هذا كل شيء؟

نعم يا رسول، هذا كل شيء. كنت تعرف ذلك، أخطرك به كاتب المحكمة.

"نعم، لقد أخطرتني" قال رسول موافقاً، وهو جالس أمام مكتب كاتب المحكمة الذي كان يستخرج من ملفّ أسماء الشهداء الذين قضوا في سجون الشيوعيين. "لكن أعتقد أنني أقنعته بالنظر في

١ هكذا في الأصل qisâs (المترجم).

قضيّتي... ومن ثم قضايا الآخرين، مجرمي الحرب كافّة". رفع كاتب المحكمة رأسه وألقى على رسول نظرة ساخرة:

– أين تظنّ نفسك؟

– الآن، ليس في أي مكان.

"قدوم ميمون" تمنّى له كاتب المحكمة، وانكبّ مجدّداً على عمله.

– وهذا أيضاً يُتعبني. هذا العجز عن إفهامي، وعن فهم العالم.

– هل تفهم أنت نفسك؟

– كلاّ، أشعر أنني ضائع.

مرّت فترة من الصمت، طويلة، لكي ينطلق بعيداً في ليل صحراوي، ثم يعود ويقول:

– أشعر أنني ضائع في ليل صحراء لا يوجد فيها إلا مَعلَم واحد: شجرة ميتة. حيثما ذهبتُ أجدني عائداً دوماً إلى المكان ذاته، قرب هذه الشجرة. أنا متعب لكثرة ما سلكت هذه الطريق التي لا تنتهي جيئةً وذهاباً، بصورة مثيرة للشفقة.

– أيها الشاب، كان لي أخ. وكان يمثّل على خشبة مسرح نندراي. كان دائم الفرح والمرح. علّمني شيئاً مهمّاً: أن أتقبّل الحياة كعرض مسرحي. وكان يقول لي إن على الممثل أن يفكّر في كل عرض بأنّ المسرحية تُمثَّل لأول مرّة. هكذا يُضفي معنىً جديداً على كل حركة من حركاته.

– لكنني متعب من الدور الذي ألعبه. أريد دوراً آخر.

– تغيير الدور لا يُغيّر شيئاً في حياتك. تبقى دائماً في المشهد ذاته، من التمثيلية ذاتها، في الرواية ذاتها. تخيّل القضية مسرحاً – وهي

مسرح فعلاً – وأيّ مسرح! يمكنني أن أحدّثك عنه أنا. باختصار، على هذا المسرح ينبغي لك في كل عرض أن تمثّل شخصية مختلفة: أولاً، المتّهم؛ ثم الشاهد؛ فالقاضي... لا فرق في الحقيقة... أنت تعرف الكل. أنت...

– لكن عندما ألعب دور القاضي يمكنني أن أغيّر مجرى القضية.

– لا، أنت مُلزم باحترام قواعد اللعبة. سوف تردّد الجمل ذاتها التي ردّدها قاضٍ آخر قبلك...

– إذاً، يجب تغيير المسرحية، المسرح، الرواية...

– سوف تُطرَد! – رفع صوته: "نحن دُمى تُحرَّك بخيوط، والسماء هي محرّكة الدُّمى/ هذه ليست استعارة، بل الحقيقة/ نحن نلعب، ونعاود اللعب، على مسرح الوجود/ ثم نسقط، الواحد تلو الآخر، في عُلبة العدم". لست أنا مَن يقول ذلك، بل الخيّام. فكّرْ في هذا!".

قبل أن يندفع رسول على مسرح العدالة، دفع كاتب المحكمة ملف الشهداء الضخم نحوه:

– خُذ، الآن يمكنك أن تساعدني، أنت أيضاً. أملِ عليّ الأسماء!

"يُرعبني الشهداء!" هزّ هذا التصريح كاتب المحكمة. رمق رسول طويلاً، ثم سحب الملف، غير أن رسول منعه: "سوف أساعدك على كل حال"، وشرع في قراءة الأسماء. وما كاد يذكر زهاء عشرة أسماء حتى ظهر الحرّاس مجدّداً. "ها هو، ما زال هنا!" قال أحدهم مشيراً إلى رسول. "نقّبنا عنك السموات. تعال معنا!"، واقتادوه إلى القاضي الذي طلب أن يُتركا وحدهما. كان لا يزال وراء مكتبه، وعليه مسبحته ومحرمته وسط الأوراق. سأل بغتةً:

– هل تعرف عامر سلام؟

– عامر سلام؟... أظنّ أن نعم.

– هل قابلته؟

– نعم.

– أين؟

– عند نانا عليا، أظنّ.

– متى كان ذلك؟ سأل القاضي الذي انحنى على المكتب لكي يقترب من رسول، مستعداً لسماع سرّ.

– غداة جريمة القتل.

– ماذا كنت تفعل هناك؟

– كانت خطيبتي تعمل عند نانا عليا. جاء عامر سلام...

– أين المجوهرات التي سرقتها من منزلها؟

قُضي الأمر، أصبح للقضية شكل. سيجري الاهتمام بها أخيراً.

نعم، بالتأكيد، لكن ما يهمّ القاضي في المقام الأول هو المجوهرات، لا جريمة القتل، ولا ضميرك، ولا ذنبك، ولا قضيّتك...

لا يهمّ، إذا ما استطعت أن أكسر باب العدالة بهذه المجوهرات. ثم إن إشراك عامر سلام في هذه القضية أثر يجب اقتفاؤه للقبض على المرأة ذات الشادور الأزرق السماوي.

– أصبحت أطرش أم ماذا؟

عطّلت حدّة القاضي تفكير رسول:

– قُلتها لك. لم أسرق شيئاً. قتلتها، وهذا كل ما في الأمر.

– أنت تكذب! كان عامر سلام قد ترك بعض المجوهرات رهناً عندها. أعِدها إليه، وإلاّ سوف يجبرك على أن تتقيّأها! أنت لا تعرفه جيداً.

– قلت لك إنني لم أسرق شيئاً.

خلع القاضي طاقيّته وجفّف بمحرمة قطرات العرق التي تتلألأ على رأسه الحليق.

– هيّا، اعترفْ! لا وقت لديّ أضيّعه على هذه القضية.

– لكن، يا حضرة القاضي، أُقسم لك أنني لم أتمكّن من سرقتها.

– إذاً أين ذهبت المجوهرات؟

– هذا لُغز كبير...

– لا تحسبني غبيّاً! أَعِدْ المجوهرات والزمْ بيتك!

– عليك أن تسمعني. لم يكن عبثاً مجيئي إلى هنا مستسلماً للعدالة.

– حقاً، لِمَ تستسلم للعدالة؟ – سأل القاضي، وقد لاحظ أخيراً عبثيّة هذا الاستسلام المُلغَز. – لكن من أين أتيت؟

– هذه قصة طويلة.

– لا أبالي بقصّتك. قُلْ لي من أيّ فصيل أنت؟

– لستُ من أي فصيل.

– لستَ من أي فصيل! – دهش القاضي. موقف كهذا، على هذه الأرض الممزّقة، لِذهنٍ كذهنه، لا معنى له البتّة، طبعاً.

– أنت مُسلم؟

– وُلِدتُ مُسلماً.

– ماذا يعمل والدك؟

– كان عسكرياً. قُتل.

– كان شيوعياً؟

تمّ الأمر، عدنا مجدّداً. أيضاً ودائماً الأسئلة ذاتها، والشكوك ذاتها، والأحكام عينها. سئمتُ كل ذلك!

تريد أن تروي له قصتك، حياتك، أليس كذلك؟ إذاً، إلعبْ اللعبة. إذهب إلى النهاية. "كان شيوعياً، أبوك. هيه؟" أهذا سؤال، أم حُكم؟ "هيه؟".

– عفواً؟

– أبوك، كان شيوعياً؟

– آه، كان هذا سؤالاً.

استشاط القاضي غضباً:

– أنت أيضاً، كنت شيوعياً!

– حضرة القاضي، جئت إلى هنا لأعترف بجريمة قتل: قتلتُ امرأة. هذه جريمتي الوحيدة.

– لا. في هذه القضية ما يُريب. ينبغي أن تكون مُذنباً بأكثر من ذلك...

– حضرة القاضي، هل من جريمة أخطر من جريمة قتل كائن بشري؟

أسقط السؤالُ المحرمة من يد القاضي.

– أنا مَن يطرح الأسئلة! ماذا كنت تعمل في عهد الشيوعيين؟

– كنت أعمل في مكتبة بوهانتون العامة.

– أدّيتَ إذاً خدمتك العسكرية تحت العلم السوفياتي – والتقط

مسبحته. – قلْ لي، كم قتلتَ من المسلمين؟

لحسن الحظ أنه لا يعلم بأنك كنت في الاتحاد السوفياتي، وإلاّ لانتهى كل شيء.

– لم أؤدِّ خدمتي العسكرية.

– إذاً كنتَ عضواً في الشبيبة الشيوعية.

– كلاّ، مطلقاً.

– لم تكن شيوعياً، لم تؤدِّ الخدمة العسكرية، وما زلت حيّاً.

لزم رسول الصمت. ما من صوت. إلا رنين حبّات المسبحة بين أصابع القاضي. وفجأةً ثارت أعصابه مجدّداً: "أنت تكذب! أيها الشيوعي المُلحد!"، كفّت حبّات المسبحة عن الانزلاق، وبصوت يجيش بحنق سوداوي نادى الحارسين: "أبعدا هذا الخنزير! احبساه في زنزانة مُنفردة! غداً تسوّدان وجهه قبل أن تعاقباه أمام الملأ: تقطعان يده اليمنى عقاباً على السرقة؛ ثم تشنقانه. ثم تضربان جثته بالسياط ليكون عِبرةً للجميع: هذا هو العقاب المنتظر للناجين من النظام البائد الذين يزرعون الشرّ والفساد".

انقضّ الرجلان المسلّحان على رسول ليقبضا عليه. صُعِق.

انقطع النفَس.

تغشّى القلب.

انهارت القاعة.

عادت حبّات المسبحة إلى الانزلاق حبّةً حبّة.

اجتاحت القاعة صيحاتُ غضبٍ ضارٍ.

خدشت الآذانَ صلصلةُ السلاسل.

من أين تأتي صلصلة السلاسل هذه؟

من رِجلَيك، من يدَيك.

تحرّكَ. رجلاه ثقيلتان، يداه ثقيلتان. وثقيلة أيضاً جفونه التي فتحها.

كلّ شيء مُعتم. وهو مُستلقٍ على حصير، في غرفةٍ ضيّقة. وشيئاً فشيئاً اكتشف السماء، بعيدة، بنفسجية، تتجزّأ من وراء نافذة مشبّكة بقضبان الحديد، في أعلى الجدار. نهض. رنّت السلاسل في الحجرة، خلف الباب، في الرواق المُقفِر. اقترب رسول من الباب وحاول أن يفتحه بيديه المقيّدتين. كان الباب بلا مقبض. دفعه، فلم يفتح. ضرب. صرخ. لا جواب. لا شيء سوى صلصلة السلاسل في سكون الليل. كفَّ، خائباً. أتكون هذه هي النهاية؟

هنا؟

قرفص. تحسَّس السلسلة حول عُرقوبَيه.

ما كدت أسترجع صوتي.

الآن، أنا مُدان.

الآن، أموت.

أموت، من دون أن أقول كلِمة، الكلمة الأخيرة؟

دسّ رأسه بين ركبتيه.

لم يبكِ.

فجأةً سمع ضجّة بلا صدى لبابٍ يُفتح، وخُطى تجرجر في الرواق. هبّ واقفاً، وألصق أذنه بالباب. اقتربت الخُطى وتوقّفت. طقطقت حُزمة مفاتيح، وانفتح الباب. بدّد الظلمة الخفيفة نور مشعل ساطع، بهر رسول. صوّب ملتحٍ شابّ سلاحه نحوه وأشار إلى شخص، بقي في الرواق، أن يقترب. أطلّ رأس كاتب المحكمة. تقدّم حاملاً بيدٍ صينية صغيرة، وبالأخرى مصباحاً متهالكاً. اندفع رسول للقائه. "لا تتحرّك!" صرخ الحارس. استدار كاتب المحكمة نحو الرجل: "باسم الله، أخفضْ صوتك!" ودخل إلى الزِنزانة لكي يعطي رسول الصينية. "قلنا لك أن تبقى وتأكل معنا، لم تقبل. يبدو أنك كنت مستعجلاً للمجيء إلى هنا... هل أنت مسرور الآن؟".

– كلاّ.

– لكن هذا ما كنت تريده، لا؟

– بلى، لكن ليس على هذا النحو.

– إذاً كيف؟ أظننتَ أنك ستؤخذ إلى فندق أنتركوتننتال، بسيّارة مزيّنة بالزهور، مصحوبة بجوقة؟!

– لا أتكلّم عن الاستقبال، بل عن الحُكم. هذا الحكم من دون محاكمة. لا أريد أن أغادر هذا العالم من دون أن تكون لي الكلمة الأخيرة.

– مَن تحسب نفسك؟ النبيّ؟ ألأنّ اسمك يعني النبي المرسل؟ – وضع المصباح على الأرض. – إجلسْ وكلْ قليلاً!

– أين القائد برويز؟

– من هذا؟

– إنه المسؤول عن أمن المدينة، ومقرّه في وزارة الإعلام والثقافة.
– وإذاً؟
– أريد أن أراه.
– نحن في الليل الآن. هذا المساء أُعلِن منع التجوال. يدور قتال في الخارج. حتى الذبابة لا تجروً على الطيران. سوف أبقى معك بعض الوقت – وخاطب الحارس: – نريد أن نبقى وحدنا لدقائق. هل بإمكانك أن تنزع قيوده؟ أقسِم لك أنه لن يهرب. لا تقلق. جاء إلى هنا من تلقاء نفسه.
– وسيذهب أيضاً من تلقاء نفسه!
– أنا أضمنه. أنت تعرفني. هو مُسلم أيضاً. لقد ارتكب خطأ. دعه يُفضي بمكنون نفسه.
فكّر الحارس، ثم أذعن طالباً تبغاً. أعطاه رسول علبة سجائره. "أوه، مدهش، يدخّن سجائر مارلبورو!" أخذ منها اثنتين وأعاد العلبة، وذهب. جلس كاتب المحكمة. "هيّا، كُلْ قليلاً"، ودفع الصينية نحو رسول، الذي لم يكن جائعاً، أو الذي لا يرغب في الأكل.
– كُلْ! الشهيّة تأتي مع الأكل. غذّ نفسك قليلاً حتى يروي الدم دماغك، لعلّك تفهم ما يُقال لك. لماذا تريد أن تمزح مع هؤلاء الناس؟
– أنا لا أمزح. أريد أن أُحاكَم لأنني قاتل، وليس لأنني ابن شيوعي.
– إمّا أنك ساذج، وإمّا أنك لم تعش أبداً في هذه البلاد، أو أنك

لا تعرف شيئاً عن الإسلام وعن فقهه[1]. أنت تعلم أن قتلَ إنسان هو بمقتضى الشريعة[2] جُنحة تستوجب القصاص[3]: العينُ بالعين، والسِنّ بالسِنّ. وهذا كل ما في الأمر. هذا حكم يتعلّق بحقوق الإنسان. وعائلة الضحية هي التي تبتّ في الأمر. في المقابل، أنت، بصفتك شيوعياً، أنت فِتْنة[4]، مُرتدّ، وعلى ذلك تحاكم وفقاً لقانون الحدود[5]، جزاءً وِفاقاً، عقوبة نصّ عليها القانون الإلهي. أتفهم هذا؟ آمل ألاّ يكون أُحجيةً بالنسبة إليك.

– أفهمك جيّداً. لكن، أولاً، أبي كان شيوعياً، وليس أنا! و...

– لا، أنت لا تفهم شيئاً. في هذه البلاد، منذ متى يُحاكَم المرء بصفته فرداً؟ أبداً! أنت لست ما أنت عليه. ما أنت إلا ما كان عليه أهلك، وعشيرتك. هذا، لعلّه معقّد بعض الشيء بالنسبة إليك. هيّا كُلْ قليلاً!

– حتى أنت لا تأخذني على محمل الجِدّ.

– بَلى، آخذك جِدّياً، لكنني لا أفهك، لأنك أنت نفسك لا تعرف حقاً ما الذي يتأكّلك من الداخل. أهو الجُرم الذي اقترفته؟ أم عبثية جريمتك؟

– لا هذا ولا ذاك. إنه نكدُ العيش.

---

١ هكذا في الأصل: Fiqh (المترجم).

٢ هكذا في الأصل: charia (المترجم).

٣ هكذا في الأصل: qisâs (المترجم).

٤ هكذا في الأصل: fitna (المترجم).

٥ هكذا في الأصل: Al-hudûd (المترجم).

– لا تخلط الأمور. ذلك لأنك تعاني من جريمتك، من جُرمك...

– أعاني من جريمتي، لأنها لا تُدهش أحداً، ولا أحد يفهمها. أنا مُتعب. مُتعب وضائع...

مُتعب وضائع، مع هاتين الكلمتين العالقتين في ذهنه: ما العمل. كان المكان معتماً، ولا يستطيع كاتب المحكمة أن يرى هاتين الكلمتين في عينَيْ رسول، مثلما رآهما رسول في عينَي الحمار.

يجب أن يروي للعجوز قصّة نايستان، لعلّه يفهمها.

ورواها.

هذه المرّة، ركّز على لحظتين في سرده: أولاً على الشعور الغريب الذي راوده في حقل القصب آخر النهار، عندما استيقظ من قيلولة عميقة:

– جزع – مبهم في البداية، ثم جلِيّ – اجتاحني. كان مصحوباً، على نحو غريب، بإحساس غير مألوف بالانفصال. انفصال لا يتأتّى مني. كان هناك، في السماء، في حقل القصب، في الريح، بعيداً مني... كل شيء ينفصل عن جسدي، عن روحي، باختصار عن "جاني"[1]. كل شيء يبتعد عني. من أين جاءني هذا الشعور؟ من السماء الفارغة؟ من عصف الريح في القصب؟ من انتظار أبي الذي لا جدوى منه؟... لا أدري حتى الآن.

بعد ذلك، طبعاً، وصف بكثير من التفاصيل نظرة الحمار. هذه المرّة قرأ في تلك النظرة شعوراً آخر:

– ما كانت تعبّر عن دهشته فقط، ما العمل، بل عن سأمه أيضاً،

---

١ في الأصل djan، ومعناها "الروح". (المترجم)

وهو يتوسّل: "أجهزوا عليّ!" هذا ما كان الحمار يستجديه. كان لا يدري ما الذي جرى له. كان يشعر بأنه محكوم بأن يسلك الطريق ذاته ذهاباً وإياباً، بلا انقطاع. إذاً، كان يريد أن يتخلّص من هذا الوضع. ولأنه يعجز عن التخلّص منه بنفسه كان يطلب منا، نحن، أن نقوم بذلك من أجله. وهكذا، بفرضه علينا أن نقضي عليه كان يحثّنا على التفكير في وضعنا الخاص، في مصيرنا الخاص.

ناول كاتب المحكمة رسول قطعة من الخبز وتناول هو قطعة أخرى:

– ما أجملها قصة. تذكّرني بقصة الملاّ نصر الدين. ذات يوم عاد إلى منزله هاشاً باشاً. سألته زوجته عن سبب ابتهاجه، فأجاب الملاّ: "أضعتُ حماري". ردّت الزوجة: "وهذا ما يجعلك سعيداً؟". قال: "أي نعم! أنا مسرور لأنني لم أكن على ظهر الحمار، وإلا لضعتُ أنا أيضاً!"... أعلم أن الوقت غير مناسب لرواية قصص مضحكة، لكنّ روايتك جعلتني أفكّر فيها. أنت ضائع لأن الحمار كان ضائعاً. واليوم، تريد أن يُحكم عليك بالموت لأن الحمار علّمك ذلك. هذا جيّد. وجيّد جداً. تعلُّمُ كل شيء، من الكل. حتى إرادة الموت، حتى من دابّة. – نهض – غداً منذ الفجر، ساعة الصلاة، سأذهب لرؤية قائدك. الآن، كُلْ ونَمْ.

حمل المصباح وغادر، منشداً في سكون الرواق: "أولئك الذين انضمّوا إلى حلقة الصفوة والأخلاق/ والذين أصبحوا، وسط المعلّمين، الشمعة/ ولم يعرفوا السفر حتى آخر الليل/ روَوا قصة ثم ناموا"، واختفى في سواد الليل الحالك.

عاد رسول إلى مكانه. اجتاحت رائحة الطعام الغرفة، مثيرة للتقيّؤ. خرج ثانيةً حاملاً الصينية. كان ينبعث من عمق الرواق بصيص ضوء يخرق الظلمة، قاد رسول نحو باب منفرج. وجد الحارس الشابّ وهو يدخن لُفافة. ناوله الصينية، فشكره عارضاً عليه أن يأخذ نفساً من سيجارة الحشيش.

– أنا هنا منذ ثمانية أشهر. أنت سجيني الأول والوحيد. أما كان لديك عمل تقوم به أفضل من أن تأتي لتسلّم نفسك وتزعجنا؟!... ماذا فعلت؟ – سأل وهو يأكل قطعة كبيرة من الخبز.

– قتلتُ.

– قتلتَ أباك؟

– لا.

– أمّك؟

– لا.

– أخاك؟

– لا.

– أختك؟

– لا. لا أحد من عائلتي. قتلت امرأةً عجوزاً.

– ثأراً؟

– لا أدري.

سكتا، ناعسَين، وشردت نظراتهما في نفثات الدخان الملتفة التي ترتفع بأجنحة فراشة ليلية محترقة، جاءت لتحتفي بلهب المصباح.

انسلّ شعاع من نور عبر النافذة، مضيئاً جزءاً من الحائط الملطّخ بالرطوبة، والمشوّه بفعل الزمن، والمغطّى بكتابات السجناء ورسومهم. أحدهم، فيلسوف، خطّ على عجل: "كل شيء ينتهي بأن يمرّ". وآخر، عاشق حتماً: "الحبّ ليس خطيئة". وآخر، شاعر:

أنا متبلّد الذهن
مسكون بالأحلام.
العالم كلّه غارق في سُبات عميق.
أنا، عاجز عن تعبيرها؛ وهم، عاجزون عن الإصغاء.

يعرف رسول هذه الكتابات، سمعها من قبل، وقرأها. غير أن الكتابة الأخيرة هي أكثر ما حيّره. مَن الذي كتبها؟ متى؟ لمن؟

لي أنا.

اقترب من الحائط، تلمّس الكتابة. غير أن صدى الخُطى الذي تناهى إليه من الرواق جمّد أصابعه على الحروف. فتح أحدهم الباب، ودخل الزنزانة رجال مسلّحون، تحجب وجوههم الظُلمة. انطوى رسول على نفسه، غير أنه ما لبث أن نهض لدى سماعه صوتاً مألوفاً: "كيف حال مواطننا؟". كان هذا برويز، يرافقه رجلان، وكاتب المحكمة. وثب رسول. "سلام". فوجئ برويز بسماعه:

– عجباً! هل استعدت صوتك؟

– نعم، منذ يومين.

– أخيراً، يمكنك إذاً أن تحكي كل شيء. أريد أن أسمع كل شيء من فمك.

– جئت لكي أسلّم نفسي للعدالة.

– أخبرني بذلك كاتب المحكمة. قال برويز.

تابع رسول عرضه:

– ليلة جيء بي إليك كنت قد ارتكبت جريمة قتل.

بينما كان القائد يغادر الزنزانة أشار إلى رسول أن يتبعه:

– الأحداث لا تتطابق مصادفة! لماذا قتلت؟

– لماذا؟ لا أدري.

توقّف برويز، وأنعم النظر فيه:

– مثلنا جميعاً!

– ممكن. لكن... قطع كلامه. انتهز كاتب المحكمة الفرصة لكي يتدخّل:

– حضرة القائد، قتل ليُنقذ خطيبته.

– ماذا فعلتْ لخطيبتك؟ سأل القائد رسول، الذي شقّ عليه الكلام في الموضوع. خجِل. لاذ بصمت بليغ.

– أرادت أن تُغرّر بها...؟

– نعم.

– حسناً فعلتَ إذاً، قال برويز بلهجة المقتنع كل الاقتناع، ما صعق رسول وأضحك من ورائه كاتب المحكمة. سكت رسول. فكّر،

حسناً فعلتُ؟ هو أيضاً لا يحمل كلامي على محمل الجِدّ، هو، رئيس الأمن، مجاهد، رجل عدالة. ثم قال: "كيف، حسناً فعلت؟ ارتكبت جريمة قتل، قتل مُتعمّد..."، وإذ لزم برويز الصمت، سكت مجدداً.

دخلوا إلى المبنى الذي يوجد فيه مكتب محفوظات القضاء. وعلى عتبة حجرة كبيرة، غادرهما كاتب المحكمة هازّاً رأسه نحو رسول لا ليقول له إلى اللقاء، بل: يا لك من أحمق!

ارتمى برويز على أريكة، متهالكة، رثّة، ودعا رسول إلى الجلوس قُبالته، واستأنف كلامه كما لو أنه لم يكفّ عن الكلام من قبل:

– لو كنتُ مكانك لفعلت الشيء نفسه.

– لكن ما فائدة ذلك. لم أتمكّن من تغيير شيء، لا في حياتي ولا في حياة خطيبتي. لم أفعل خيراً لأحد.

– فعل الخير، يجب أن تسبقه معاناة...

– الأسوأ، أن حياتي أضحت جحيماً. خسرت خطيبتي والمال... جريمة من أجل لا شيء... حتى الجثة اختفت. والكل يظنّ أن نانا عليا سافرت. قُل لي هل من جريمة أدعى للسخرية من هذه؟

– أولاً، قُلْ لي لماذا لم تمضِ في مجازفتك حتى النهاية؟

– تماماً، أطرح على نفسي هذا السؤال. ربّما لأني لم أتمكّن...

– أو لأنك لم تُرد. لأنك لست لصّاً. أنت رجل عادل.

– كان ذلك خطأ دوستويفسكي أيضاً.

– خطأ دوستويفسكي؟ ماذا فعل أيضاً، كاتبك الكبير؟

– منعني من أن أُكمل عملي.

– كيف؟

– ما كدتُ أرفع الفأس لأهوي بها على رأس السيدة العجوز حتى خطرت على بالي **الجريمة والعقاب**. صعقتني... دوستويفسكي، نعم، هذا هو! منعني من أن أتبع مصير راسكولينكوف، أن أصبح ضحية ندمي، وأتردّى في هاوية الشعور بالذنب، وأنتهي في السجن...

– وأين أنت الآن؟

نكّس رسول رأسه، وتمتم: لا أدري... في لا مكان.

– رسول جان، أنت تقرأ كثيراً. هذا حسن. لكن اِعلمْ هذا: مصيرك ليس مكتوباً إلاّ في كتاب واحد، هو اللّوح المحفوظ[1]، الكتاب المستور، الذي كتبه... – وصوّب سبّابته نحو السقف حيث ترفرف بضع ذبابات. – الكتب الأخرى لا تستطيع أن تغيّر شيئاً لا في هذا العالم، ولا في حياة أحد. انظرْ. هل استطاع دوستويفسكي أن يغيّر شيئاً في بلاده؟ هل تمكّن من التأثير في ستالين؟

– كلاّ. لكن لو لم يكتب هذا الكتاب لربّما ارتكب هو جريمة. وقد أعطاني أنا هذا الوعي، هذه القدرة على أن أحاكم نفسي، وأحاكم ستالين. هذا إنجاز ضخم في ذاته. لا؟

– "نعم، هذا ضخم". أومأ برويز، لائذاً بصمت طويل. ثم قال: "من أجل ذلك أهنّئك على حُكمك وعلى عملك!"، ابتسم، "استطعتَ أن تُزيل عُنصراً مشؤوماً من المجتمع. موت هذه المرأة لا بد من أن يريح عدداً لا بأس به من الناس. ثم إن هذا هو سبب اختفاء جثتها. لعلّ أسرتها هي التي أخفتها. ولو لم تقتلها أنت لربّما قتلها شخص آخر؛ لربما أماتها الله. أو لربما سقط صاروخ على رأسها...

---

١ هكذا في الأصل Lawhé Mahfouz (المترجم).

مَن يدري! إذاً ينبغي لك أن تُقرّ بأنك فعلت خيراً لكثير من الناس...".

– وأنا؟

– ماذا، أنت؟

– ماذا أفدتُ من ذلك، أنا؟

– عليك أن تعترف بأنك قمت بعمل مهمّ: حكمت بالعدل.

– العدل! لكن أي عدل؟ من أنا حتى أحكم بحياة أحد أو موته؟ القتل جريمة، أبشع ما يمكن أن يرتكبه كائن بشري.

– أيها المواطن، القتل جريمة إذا كانت الضحيّة بريئة. تلك المرأة كان يجب أن تُعاقَب. أخطأتْ في حقّ أُسرتِك، ناموسِك[1]. لوّثت شرفك. ما فعلته أنت يُسمّى ثأراً. لا يحقّ لأحد أن يعاملك كمجرم. هذا كل ما في الأمر.

– أيها القائد، مشكلتي ليست أن أعرف لماذا يحاكمني الآخرون؛ مشكلتي هي أنا. هذه المعاناة التي تمزّقني من الداخل، كجُرح، جُرح مفتوح، لا يَشفى.

– في هذه الحالة، أمامك حلاّن لا غير: إمّا أن تقطع العضو الجريح، وإمّا أن تعتاد على الألم. – نزع قبّعته[2]، وأدار رأسه، ودلّه على موضع خلف جُمجمته، وقال: – انظرْ هنا.

انحنى رسول إلى الأمام، ونظر.

– تلمّسْ.

---

١ هكذا في الأصل: nâmous (المترجم).

٢ في الأصل: Pakol، باكول، وهي قبعة تقليدية من صوف بنيّة بلون التراب يلبسها الأفغانيون (المترجم).

قرّب رسول يده، متوجّساً؛ لامست إصبعه جمجمة برويز.

– هل تحسّ شيئاً؟

تردّد رسول قبل أن يجيب، ثم سحب يده فجأة.

– أتدري ما هذه؟ هذه شظية قذيفة. – ردّ برويز القبعة إلى مكانها، وقال: –أحملها منذ سنوات منغرزة في رأسي. حصل ذلك أيام الجهاد. كنتُ قد عدت إلى البيت لأرى زوجتي وابني. وقد علم الروس بقدومنا إلى القرية فقصفوها. سقط صاروخ على منزلنا. أصابت شظية كبيرة زوجتي فقضت شهيدة. وبقيت قطعة صغيرة في جمجمتي. لم أُرد يوماً أن أنزعها. كنت أريد أن أعيش معها، لكي يمنعني الألم من نسيان موت أهلي. أعادت لي تلك القذيفة القوة والأمل في الجهاد. قال لي طبيب فرنسي إن انتزاعها ضروري، ولا يمكنني أن أعيش معها أكثر من عشر سنوات. وأنا على كل حال لا أريد أن أعيش أكثر من عشر سنوات.

– أطلق ضحكة رنّانة ليضفي مسحةً من المرح على مرارته. – أنت أيضاً لديك قذيفة، قذيفة داخلية، جُرح داخلي، جُرح يمنحك القوّة.

– قوّة ماذا؟

– قوّة العيش، وإقامة العدل.

أتاهما شابّ بطعام الفطور. سأله القائد عن أخبار جانو.

– لا خبر. لم يجدوه حتى الآن...

– كيف ذلك؟ لم يختفِ في الطبيعة. فليبحثوا عنه في كل مكان.

– التقيته منذ أربعة أو خمسة أيام. تدخّل رسول.

– أين؟

– دعاني لاحتساء الشاي في شاي خانه الصوفي. التقى هناك

مجاهدين كنتم قد نفّذتهم معهم عملية ضد قاعدة سوفياتية في مرحلة الجهاد.

– هل تتذكّر أسماءهم؟

– كانوا رجال القائد... نوروز، على ما أظن!

تزايد قلق برويز. وطلب من الشاب أن يذهب إلى شاي خانه الصوفي مُستطلعاً. وبعد برهة من التفكير، تابع:

– لنأخذ حالة جانو. هذا ابني بالتبنّي. دمّر الروس قريته، وذبحوا عائلته. لكنه يملك للعيش بأس أسد. وهذا، بالضبط، يعود إلى عزمه على الثأر، – وترك لرسول أن يتأمّل في كلماته.

– جراحكم أنتم أحدثها الآخرون. أما جرحي فأنا الذي أحدثته لنفسي. وبدلاً من أن يضاعف قوّتي أوهنني، ولا يقودني إلى أيّ مكان. أحياناً، أفكّر في أنني ما أردت أن أقتل تلك العجوز إلاّ لمعرفة ما إذا كنت قادراً على القتل، مثل الآخرين... – نكّس رأسه. وفيما كان برويز يسكب لنفسه الشاي، تابع كما لو كان يكلّم نفسه: – رأيت أنني لم أُخلق لذلك. في يوم آخر أردت أن أقتل شخصاً آخر فلم أُفلح...

– لربّما كان بريئاً؟

– بريئاً؟ لا أدري؟ لكنه أهان خطيبتي. طردها من مقام الوليّ شاه دو شمشيره.

– أهذا كل ما في الأمر؟ – وضع برويز كوب الشاي أمام رسول:

– لا يمكنك أن تقتل من دون سبب.

– ربّما أردت أن أقتله لأتخلّص من جريمتي الفاشلة.

– ولكانت جريمة القتل هذه فاشلة أيضاً، لأنك كنت لتقترفها دونما سبب.

– أعتقد أن الأمر هو كذلك دائماً. يكرّر أحدنا العمل على أمل أن يتمكن من نسيان العمل السابق الذي اعتُبر فاشلاً... هكذا تدوم الجرائم، في حركة لولبيّة جهنميّة. من أجل ذلك سلّمت نفسي للعدالة، لكي تضع المحاكمة حدّاً لكل ذلك.

– أيها المواطن، تعلم جيّداً أن المحاكمة لا معنى لها إن لم يوجد قانون، ذاك الذي يفرض احترام الحقوق. ماذا عندنا الآن من القانون ومن السلطة؟

– أنت أيضاً تبحث عن الثأر؟

– ربّما.

– "العَين بالعَين، وينتهي العالم أعمى"، كان يقول غاندي.

– معه حق. لكن مهما فعلنا يبقى الثأر متأصّلاً فينا. كل شيء ثأر، حتى المحاكمة.

– إذاً لن تنتهي الحرب أبداً.

– بَلى. تنتهي يوم يقرّر معسكر أن يقبل التضحية، وأن يُقلع عن المطالبة بالثأر. من هنا ضرورة أن يضرب المرء صفحاً عمّا، وعن جريمته، وثأره، وحتى عن التضحية. لكن من يستطيع أن يفعل ذلك؟ لا أحد. ولا أنا حتى.

يدرك برويز كل شيء. وهو قادر على فعل أي شيء. لا تتركه بعد الآن. عليك أن تهزّه، أن تعيده إلى مهمّته. لا ينقصه إلا تضحية، إلا متواطئ. ستكونه أنت.

– أريد من العدالة أن تحاكمني، أن يُضحّى بي.

صمت مجدّداً. كانت نظرة برويز هي التي تُلزمه الصمت، نظرة إعجاب واستنطاق. تابع رسول:

– بهذه المحاكمة أتخلّص من معاناتي... سوف تُتيح لي الفرصة لعرض روحي على كل أولئك الذين اقترفوا جرائم، مثلي.

– كُفَّ عن اعتبار نفسك بطل دوستويفسكي، إذا سمحت. العمل الذي قام به له معنى في مجتمعه، في دينه.

– تعلمُ أنّ ما أيقظ الغرب من سُباته هو حِسّ المسؤولية الذي ولد من الشعور بالذنب.

– "ما شاء الله!"[1] تحرّك رسول مسقطاً كوب شايه. "حمداً لله أن أعطاهم هذا الشعور بالذنب، وإلاّ إلامَ كان مآل العالم!" وأغرب في الضحك ساخراً. "حقاً إنك تريد أن تضحّي بنفسك على مذبح أوهامك؟".

– أفضّل أن أضحّي بنفسي من أجل أوهامي على أن أضحّي بالآخرين. أريد أن يكون مع موتي...

قطعت عليه كلامه طلقات نارية غير بعيد من ولاية كابول. انتظر برويز التتمة وهو يسكب لنفسه الشاي.

– أريد لموتي أن يكون تضحية...

– البلاد لم تعد بحاجة إلى موتى؛ شهداء...

– آه، كلاّ. لا أريد أن أكون شهيداً...

توقّف هنا يا رسول. لقد ذهبتَ بعيداً جداً حتى الآن.

---

١ هكذا في الأصل: Mashâllah (المترجم).

ما زالت لدي أشياء أودّ أن أقولها له.

أشياء سُمعت ألف مرّة.

نعم، ولكن لم يسمعها هو. بإمكانه هو أن يسمعني. يعلم أنّ وجود الله لا يحتاج إلى شهود، إلى شهداء.

إن كان يعلم ذلك فلا جدوى من الحديث عنه. أكملْ موعظتك:

– أريد من محاكمتي، والحكم عليّ، أن يشهدا على زمن الجَور هذا، زمن الكذب، والنفاق...

– أيها المواطن، في هذه البلاد يجب محاكمة الأمّة كلّها.

– لِمَ لا؟ ستكون محاكمتي مناسبة لمحاكمة مجرمي الحرب كافّة: الشيوعيين، أمراء الحرب، المرتزقة...

خيّم صمت طويل. كفّ برويز عن احتساء شايه. أصبح في مكان آخر، هنالك حيث شردت نظرته، بعيداً، بعيداً جداً، في ما وراء النهار الذي أطلّ عبر النافذة. ثم نهض بغتةً:

– أيها المواطن، استأنفْ حياتك، التحقْ بعائلتك. اذهبْ إلى مكان آخر! هنا، هذه الحرب القذرة، مثل كل الحروب، لها قوانينها، وقواعدها.

نهض رسول أيضاً.

– لكن أنت، يمكنك أن تغيّر القواعد.

نظر إليه برويز مليّاً، ثم مدّ له يده.

– سأتصل بك عندما يحصل ذلك. بأمان الله[1]. عُدْ إلى بيتك!

---

١ هكذا في الأصل: Ba amâné khodâ (المترجم)

لم يجرؤ على دخول غرفته من حيث كانت تنبعث صيحات قصيرة وضحكات. لم يجرؤ على تكدير هذا الفرح الذي يعمّ الغرفة. شقّ الباب بصمت. كانت ابنتا يرموحمد وطفلتان أُخريان يلهَون بكُتبته ويبنَينَ منها بيوتاً بعضها فوق بعض. وكانت عرائسهن التي بين أيديهنّ البريئة تنتقل من رفّ إلى آخر:

– خالة، خالة[1]، أعطيني قبساً من نار!

– ما عندي نار، اصعدي إلى فوق!

– خالة، خالة، أعطيني قبساً من نار!

– ما عندي نار، اصعدي إلى فوق!

– خالة، خالة...

أراحت هذه البهجة رسول الذي بقي على العتبة، رافضاً أن يدمّر هذا العالم الذي لا يملك فيه أحد ناراً. وترك الأطفال يلعبون أحلامهم.

هبط السلّم ثانيةً. لا أثر ليرموحمد ولا لرونا. وألفى نفسه في الشارع، المُقفر من أي نَسمة. كانت أشعة الشمس الفظّة تخترق الجلد وتغلي الدم، مثيرةً أحاسيس غريبة، مشاعر أسى داخلية.

كلُّ جسدٍ خرابٌ عظيم.
كلُّ جسدٍ يحتاج إلى أثير.

١ هكذا في الأصل: Khâla, khâla (المترجم).

لا بدّ من قُنّبٍ، المزيد منه وفي كلّ حين.

لا أحد في الساقي خانه سوى مصطفى، محنيّ الظهر في زاوية، قرب نارجيلة مطفأة. "سلام" حيّاه رسول. استوى مصطفى جالساً بعض الشيء، نعسان، محرّكاً رأسه بمثابة ردّ، وسأل، كما لو أنه يُكرم ذكرى صديقه جلال: "هل بدأت الحرب؟".

"كلا" أومأ رسول. دعاه الآخر إلى الجلوس.

- هل معك تعميرة حشيش؟

- لو كان معي لما جئت إلى هنا.

نهض مصطفى بكثير من العناء قائلاً: "ذهب الجميع" ثم مضى نحو الركن الآخر من الغرفة.

- بعد موت كاكا سَرْوَرْ...

- مات؟

"نعم، قُتِل. ذات يوم ذهب إلى المسجد سكران مطفأ، وصعد المِنبر واستلم مكبّر الصوت ليتلو السورة الثامنة عشرة من القرآن. تعرف تلك السورة التي كان يحبّ تلاوتها، قصة 'ياجوج وماجوج'"، انتزع لَبِنَة من الجدار، "نحن، كنا هنا. ننتظره. سُمعت طلقَات نارية تُطلق عليه". أدخل يده في فجوة الجدار وفتّش؛ ثم سحبها متأوّهاً. كان يمسك عقرباً من ذيلها. وضعها على محرقة النارجيلة. "لم يبقَ لنا إلا هذه للتدخين"، قال ساخراً أسيان. قدح عود ثقاب وأشعل الحشرة. أغمض عينيه وتنشّق الدخان الذي أبقاه في رئتيه طويلاً، ثم مرّر طرف النارجيلة إلى رسول، قبل أن يقبع مجدداً في رُكنه. سحب رسول بعد تردّد نفساً، ثم آخرَ، أطول. أحس بحريق كما لو أنه ابتلع

العقرب بسمّها. انعقدت حنجرته، واضطربت عروقه كأفاعٍ صغيرة جريحة تحاول أن تخرق الجلد لتفلت. ترك النارجيلة، واعتمد على الحائط ونهض. كل شيء يدور، ويغرق في الظلام. الباب على بُعد خُطوَتَين، لكنه أمضى دهراً لبلوغه.

في الخارج، ما زالت الشمس هناك، جاثمة على الأعصاب، قاسية، مُكدِّرة. غادر رسول، يترنّح ثملاً.

أين الظلّ؟

أين العذوبة؟

أين صوفيا؟

ما زلتَ لا تفكّر فيها إلاّ في حالة السُكر.

لا، في هاويتي الشاعرية.

أو في عذاباتك المقيتة. أنتَ لا تحبّها إلا من أجل ذلك.

وصل إلى أمام مسكنها. أراد أن يقرع الباب، لكن يده ظلّت معلّقة، مثل تفكيره.

ماذا تريد منها؟

لا شيء.

تراجَعْ.

لكن، لا أريد إلاّ تكلّيمها.

ماذا بقي لديك ممّا لم تقله لها؟ ماذا قلت لها حتى الآن؟ لا شيء. مع صوت أو من دون صوت، لا شيء عندك تقوله لها، لا شيء تفعله، غير اجترار أفكارك المهترئة.

كلاّ، لن أثرثر معها هذه المرّة. أعِد بذلك. سآخذها، كما فعلتُ من

قبل، إلى تلّ بغيبالا، بين كروم العنب، لكي يشرف حبّنا على كابول. سأقول لها إنها جميلة حقاً. وستحمرّ خجلاً. سأرتمي على قدمَيها، وسأقول لها أخيراً إنني أركع أمامها لا لجمالها البريء فحسب، بل من أجل مُعاناتها أيضاً. وستقول لي إنني لم أقل مثل هذه الكلمات الحنونة منذ زمنٍ بعيد. وسأقول لها أنْ كانت لديّ أشياء كثيرة كنت أريد أن أقولها لها بيد أن الحرب لم تترك لنا متسعاً من الوقت لذلك. وسأعانقها. وستمدّ يدها لتمسك يدي. وسأطلب منها أن تذهب معي إلى مكان بعيد جداً؛ إلى وادٍ جميلٍ جداً، حيث لم يتعلّم الكلام أحد، وبالتالي حيث لم يتدرّب أحد على الشرّ. وادٍ يدعى وادي "الأطفال غير المتكلمين المُستعادين".

تناهت إلى رسول أصداء خُطى في باحة المنزل، فتراجع عن الباب. خرجت امرأتان مستترتان بشادوريهما من دون أن تعيراه أيّ اهتمام واختفتا في زُقاق آخر.

مَن كانتا؟

صوفيا وأمّها؟

لم ترياني. أو بالأحرى لم تعرفاني. أنا غير موجود. أنا ما عدت شيئاً.

"صوفيا!"، ما عادت الصرخة مسموعة، ضاعت في حبائله الصوتية، كالسابق. كان مُسنداً ظهره إلى الحائط فانزلق أرضاً. مدّ ساقيه المطويتين. أراح رأسه. أغمض عينيه. ولبث على هذه الحال لحظات، كانت أبديّة.

هنا سيبقى.

هنا سيموت.

هنا.

منذ سنوات طويلة، بل منذ الأزل، وهو مقيم هنا، عند هذا الجدار.

منذ سنوات طويلة، بل منذ الأزل، وهو ينتظر صوفيا.

وصوفيا لا تراه مطلقاً، ولا تتعرّف إليه مطلقاً...

"رسول"، جعله صوت داوود يرفع رأسه. كان الصبي يقف أمامه وبيده صفيحة نفط: "صباح الخير، يا رسول".

- يا للمفاجأة! ألستَ على السطح؟

- أتظنّ أن أمي تدعني أعمل ناعم البال! صوفيا غالباً ما تكون غائبة.

- هل تعمل؟

- نعم. ما زالت تعمل عند نانا عليا التي اختفت. ونازيغول تخاف أن تبقى وحدها. تبقى صوفيا معها طول الوقت، حتى في الليل. لكنها تأتي لرؤيتنا من حين إلى آخر. - وضع صفيحة النفط على الأرض: - إنها ثقيلة. وأنت ألن تأتي لترانا أبداً؟

- كما ترى أنا هنا.

فرك الصبي راحتيه، وحمل الصفيحة ثانيةً، "يجب أن أذهب، أمي تنتظرني"، وتوقّع أن ينهض رسول، "هل تأتي؟".

- كنت أريد أن أرى صوفيا.

- إنها هنا.

- أظنّ أنها خرجت.

- ربّما. تعالِ اشرب الشاي.

- لا، في يوم آخر.

ما إن دخل داوود البيت حتى قرع رسول الباب بعد أن تردّد لحظات. فتح له داوود: "لا تقل لصوفيا ولا لأمك إنني أتيت". هزّ الصبي رأسه، وقد أخفض عينيه، وكأنه يصبّ تعاسته على قدميه، على الأرض. ثم أغلق الباب وتوارى حاملاً معه يأس رسول.

مضى رسول في سبيله، لكن بعد أن خطا ثلاث خُطوات توقّف وأخرج النقود من جيبه.

- لا أحتاج إليها أبداً.

عاد أدراجه وقرع الباب مجدّداً. فتح له داوود مجدداً. أعطاه رسول رزمة الأوراق المالية كلّها. "وعن هذه أيضاً، لا تقل شيئاً. أعطها صوفيا. قل لها إنك ربحتها من بيع حماماتك!". ذُهل الصبي لرؤية هذا المبلغ الكبير مرّة ثانية، ولبث مسمّراً في فُتحة الباب إلى أن اختفى رسول في الغبار الذي أثارته شاحنة صغيرة.

عندما رجع رسول إلى مسكنه لم يصادف لا يرموحمد ولا زوجته.

كما كان يرجو.

دخل غرفته. كان الأطفال قد ذهبوا، وما عاد هناك إلا الذباب حول طبق الجبن والزبيب، وقد أصبحت المنشفة التي تغطيه سوداء كلّياً، سوداء من العفونة. هذه المبالاة انسحبت على الكتب المبعثرة في أنحاء الغرفة؛ وعلى الملابس الوسخة المكدّسة في إحدى الزوايا؛ وعلى الإبريق الفارغ الملقى على الأرض...

لِمَ الكلّ غير مُبالٍ بعودتي؟

تناول كتاباً.

الكلّ يُنكرني.

رمى الكأس على فراشه. نظر عبر النافذة إلى الباحة الخالية، الخالية من الصياح ومن الأطفال.

لا شيء يتعرّف إليّ.

عبرت الغرفة فأرة لامبالية.

كيف يمكنني أن أعيش مع هذه اللامبالاة التي تطالعني بها أشيائي؟

نحّى مخدّته برجله، ولبث واقفاً في وسط الغرفة مدّة طويلة.

لا شيء أسوأ على المرء من أن يفقد الشعور بالانتماء إلى عالمه الخاص. لا شيء يريد أن يمتلكني.

لا أحد يريد أن يحاكمني.

هذه التبرئة، التي تغسل ضمير الكل، تجرّدني من جريمتي، من بادرتي، من وجودي.

وهذه الحال سوف تستمرّ ما استمرّ الغموض يكتنف صنيعي. يجب أن أعثر على جثة نانا عليا.

"القتل من أجل الوجود، هذا مبدأ كل المجازر، يا عزيزي رسول"، قال كاتب المحكمة وهو يدسّ ملفّاته تحت إبطه، ويمضي نحو مخرج مكتب المحفوظات بخطى متسارعة. تبعه رسول:

– لا أريد نظريات، طلبت منك أن تساعدني على اكتشاف هذا اللغز.

توقف كاتب المحكمة فوراً:

- أتحسبني تحرّياً؟ لستَ في فيلم بوليسي ولا في رواية لـ... أغاتا... كريستي! اذهب لرؤية حاميك، القائد برويز.

- ذهبت لأراه، لَكنه كان مشغولاً جداً ومتأثراً باختفاء ابنه بالتبنّي. يقال إنه قُتل، قُطع رأسه...

- رقصة الأموات!

سكتا. ولدى خروجهما من المبنى توقّف رسول:

- لا أحد غيرك يمكنه أن يساعدني. أنت تعرف أشياء كثيرة، وعالجت كثيراً من الحالات، وسمعت قصصاً عديدة...

- هذا، نعم! لكني لم أسمع قط قصة مثل قصتك! في حالتك، لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

- بَلى. ساعدني على إيجاد جثة نانا عليا.

- لكن ما فائدة هذه الجثة اللعينة؟

- إقامة الدليل على أنني قتلت.

- ما من حاجة إلى دليل. الكل يعلم بأنك قتلت. وإذا كنت تريد أن تحمل جثة وتطوف بها في الشوارع، إذاً تحرّكْ! هذا الصباح اكتُشفت في مقبرة دَه أفغانان ثلاث جثث مقطوعة الرؤوس، ومشوّهة كلّياً، كانت قد أُخفيت في قبر. اِذهب، قل إنك أنت قاتلها!

لم يقل رسول شيئاً.

لدى وصولهما إلى باحة الولاية استوقفهما أحد الحرّاس التابعين للقاضي، وما إن رأى رسول حتى سأله:

- ماذا تفعل هنا؟

- البارحة، تكلّم القائد برويز بشأنه مع حضرة القاضي، وسُوّي

الأمر – أجاب كاتب المحكمة، ثم خاطب رسول قائلاً: – سوف نناقش طلبك في يوم آخر. اِذهب الآن.

– نعم، لكن... لا أدري أين أذهب.

– عد إلى بيتك، أيها الشاب!

تدخّل الحارس:

– لا، انتظر! إنه مسجون هنا.

– لم يعد مسجوناً الآن.

– كيف ذلك؟ القاضي يبحث عنه. كيف أمكنه الخروج من دون إذنه؟ – ودفع رسول بسلاحه: – هيّا، تحرّك من هنا.

اقترب كاتب المحكمة من رسول ذاهلاً، وهمس في أذنه:

– لكنك مجنون تماماً. كان عليك أن تبقى أخرس، فيبقى العالم هادئاً.

– كنت قد عدتُ إلى بيتي، لكن كل شيء هناك أبى أن يتعرّف إليّ، الكل تبرّأ مني وانفصل عني، كتبي، سريري، ملابسي. رفضني الجميع. ذهبت إلى خطيبتي فلم تعرفني هي أيضاً...

– لا تقلق! هنا الجميع يعرفونك. – قال الحارس الذي أمسك بذراع رسول متشبّثاً بها، ثم جرّه ومضى به حاثّاً الخطى إلى غرفة القاضي.

أفزع دخولهما حمامة كانت تنقر على مكتب القاضي. اضطربت، رفرفت، طارت في كل اتجاه، مذعورة، واصطدمت بزجاج النوافذ، ثم اندفعت نحو الباب. صرخ القاضي: "أغلقْ هذا الباب!"، ثم قال مشيراً إلى الحمامة: "امنعوا وثيقة الإثبات من الهرب". أسرع

الحارس لإغلاق الباب. ولمّا لمح القاضي رسول احتدّ وسأل الحارس وكاتب المحكمة: أين كان؟

– حضرة القاضي، غادر زنزانته! – قال الحارس؛ فازداد حنق القاضي:

– كيف غادر الزنزانة؟ من أذِن له بذلك؟

غمغم كاتب المحكمة:

– استدعاه القائد برويز...

– مَن القاضي هنا؟ هو أم أنا؟ أخفوه، ليعُد إلى زنزانته! قيّدوه!

التفت إلى رسول رجلان كانا جالسين أمام مكتب القاضي، أحدهما حارس مقام الوليّ شاه دو شمشيره؛ والآخر، عجوز، هو الذي كان يعطي حمام المقام قمحاً. وعندما شاهدا رسول هبّا واقفين. أسرع العجوز نحو رسول:

– لا، يا حضرة القاضي، لا، هذا الشاب هو شاهدي. كان في المقام، ورآني...

فوجئ القاضي فأشار إلى الحارس أن يُبقي رسول؛ ثم قال لكاتب المحكمة وهو يدلّه على العجوز الذي أصبح إلى جانب رسول:

– أولاً، يجب تكوين مِلفّ لهذا.

– بأيّ جُنحة؟

"سرقة حمام، حمام المقام"، أجاب القاضي، وأيّده حارس المقام: "كان يأتي كل يوم ليغذّيها... بالقمح"، والتفت نحو القاضي: "تعلمون، بالقمح!"، ثم نحو كاتب المحكمة، "إعطاء القمح خطيئة. بعد ذلك، كان يسرق الحمام. أتعلمون لماذا؟"، وتوجّه مجدّداً نحو

القاضي، "لكي يشويها ويأكلها. أخبرني بذلك جيرانه. قالوا لي إن رائحة الشواء كانت تنبعث من منزله، كل يوم...".

"أنا، لم آكل يوماً حماماً مشويّاً. لا حول إلا بالله![1] حمام مقام الولي شاه دو شمشيره؟ لا حول إلا بالله! إنه يكذب!" صاح العجوز وهو يندفع نحو حارس المقام: "أتعلم أن الافتراء من أكبر الخطايا؟".

"إذاً ماذا كانت تفعل تلك الحمامة في جيبك؟" سأله حارس المقام، ثم قال للقاضي: "وجدتها بنفسي في جيبه". طارت الحمامة في الغرفة. اقترب العجوز من القاضي مرتبكاً: "كانت تأكل الحبّ في جيبي. حمائم مقام الولي شاه دو شمشيره تحبّني، تثق بي، انظروا!" صفّر، فطارت الحمامة نحوه وحطّت على كتفه، "لها ثقة بي". ثم استحلف الحارس: "لا تكذب، أيها الأخ، أنت حارس المقام، ألا تستحي، أمام حضرة القاضي، وأمام الله، أن تتّهم زوراً أخاً مسلماً؟"، وتوسّل إلى رسول: "رأيتني، أنت، في ذلك اليوم. قل لهم ماذا كنت أفعل هناك...".

"هذا الشاب متورّط هو أيضاً في هذه القضية؟"، سأل القاضي. تقدّم رسول خطوة ليقول: "لم أره إلا مرّة واحدة، منذ يومين أو ثلاثة أيام. ذهبنا، أنا وخطيبتي إلى هناك للصلاة. و...".

"حضرة القاضي، معك حق"، تدخّل حارس المقام، "هما شريكان. هذا الرجل جاء مسلّحاً لاختلاس مال الصدقات، وأراد أن يقتلني أيضاً...".

"لِمَ تكذب؟" صاج رسول، مقترباً منه. منعه الحارس من التقدّم.

---

[1] هكذا في الأصل: Lâhawlabellah (المترجم).

"نعم، ذهبت إلى هناك لأقتله، لا لأسرق. ذهبت لكي أثأر فحسب، لكنني لم أستطع...".

"أنت في كل مكان! مَن أنت، ماذا أنت؟" قال القاضي وهو ينحني على مكتبه.

"حضرة القاضي، اسمح لي أن أجيبك"، تدخّل حارس المقام وهو يقف: "هذا... اعذرني، حضرة القاضي - وليملأ الله فمي تراباً - هذا الرجل قوّاد. نعم، جاء أمس إلى المقام مع، اعذرني، حضرة القاضي، - وليملأ الله فمي تراباً - عاهرة، طردتُها؛ أمّا هو فأراد أن يستولي على مال المقام. لم يأتيا للصلاة، لم يكونا هناك إلاّ للسرقة!". طارت الحمامة أمامه. احتدّ القاضي على رسول: "مع امرأة نجسة؟ فتْنة! أتعلم أن الوليّ شاه دو شمشيره، الذي لا يزال ضريحه المقدّس في المقام، مات بسبب امرأة نجسة؟"، والتفت نحو الآخرين: "يقال إن الولي، حتى بعد أن قطع الأعداء رأسه، ظل يقاتل ببأس، حاملاً سيفاً بكل يد. وعندما وصل إلى كابول أصابته بالعين امرأة نجسة، فخرّ الوليّ على الفور، وأسلم الروح. جاء في الحديث: "لا تُدخلوا امرأة نجسة إلى حرم مكان مقدّس"! وهو يأتي بامرأة نجسة إلى هذا المكان المقدّس! والآخر يسرق فيه الحمام! ماذا فعلتم بالإسلام؟"، والتفت إلى كاتب المحكمة: "اكتبْ! اكتبْ أن يقام عليه حدّ السارق" مشيراً إلى العجوز، "متّهم بسرقة حمام حرم المقام المقدّس. تُقطع يداه الاثنتان". فغر العجوز فاه مرتعباً، عاجزاً عن النطق. تركت الحمامة كتفه، رفرفت، دارت في الغرفة وعادت لتحطّ على مكتب القاضي. اقترب كاتب المحكمة من

القاضي وهمس في أذنه:

– حضرة القاضي، أسمح لنفسي بتذكيرك أن الحكم بقطع يد شخص سرق متاعاً من دون مالك، في مكان عام، مخالف للشرع.

– لأي سبب؟

– حضرة القاضي، سُئل الإمام علي إن كان حدّ القطع يقع على سارق حيوانات ليس لها مالك، وفي مكان عام، فأجاب الوليّ بالنفي.

– تريد أن تُعطيني درساً في الشريعة؟

– أستغفر الله[1]، كان هذا مجرّد تذكير، يا حضرة القاضي المبجّل.

– إذاً أذكّرك، أنا أيضاً، ببعض الأشياء. هنا، أنا القاضي. وأنا آمر بقطع يدَيْ هذا الرجل.

قدّم كاتب المحكمة ورقة وقلماً إلى القاضي قائلاً:

– إذاً، أطلب منك، يا حضرة القاضي، أن تتفضّل بكتابة الحكم بيدك.

– أنت أيضاً تتمرّد عليّ؟ بل إنك لا تحترمني أيضاً؟

– ما أبعدني عن كل تفكير يقلّل من احترامك، يا حضرة القاضي المبجّل. أخشى يوم لا تعود أنت هنا – حفظك الله سليماً معافى في هذه الدنيا – أن أُتّهم أنا بكتابة أمر مخالف للشريعة.

– مخالف للشريعة؟ أمري مخالف للشريعة؟ اخرجْ! اجمعْ أمتعتك وانصرف من هنا، بأسرع من رصاصة!

أراد كاتب المحكمة أن يتكلّم، غير أن القاضي أشار إلى الحارس أن يلقي به خارجاً. انتهز العجوز هذه الفرصة لكي يركع مُتضرّعاً

---

١ هكذا في الأصل: Astaghfrollah (المترجم).

إلى القاضي. لكنّ هذا قاطعه على الفور: "إخرسْ، إخرسْ! لا يجوز الحكم في حالة الغضب". ثم قال لأحد الحراس: "ضعوه في السجن، وائتوني به غداً!".

خرج الحارس مع العجوز، يتبعهما حارس المقام. وبقي رسول.

"هل أتيت بالمجوهرات؟" سأله القاضي. "لا" أجاب رسول وهو يقترب من القاضي ببطء.

– كيف لا! لماذا غادرت السجن إذاً؟

– لأنهم قالوا لي إنه لم يبقَ لي ما أعمله هناك.

– مَنْ؟ صرخ القاضي؛ ثم نادى الحارس وأمره أن يضع رسول في السجن: في زنزانة منفردة! وغداً أرسلوه للقطع، ثم للشنق!

وراء القضبان، يتردّد الفجر صامتاً، ما بين شروق وغروب. وفيما كان المؤذنون يدعون المؤمنين إلى الصلاة، وتستيقظ أسلحة الثأر، وتعانق صوفيا براءتها في سريرها، وينقذ رازمودين شرف العائلة في مزار شريف... كان رسول قد نسي العالم الذي جرّده من كل شيء. كان جالساً في ركن من الزنزانة. لا ينتظر أحداً. وما عاد ينتظر شيئاً. قرّر أن يعود أبكم، وأصمّ أيضاً.

نعم، لن أسمع بعد الآن. ولن أتكلّم.

"لسنا مؤهّلين للكلام،

ليت أنّا نستطيع أن نسمع فحسب.

يجب أن نقول كلَّ شيء!

ونسمع كلَّ شيء!

لكن

آذاننا مختومة،

شفاهنا مختومة،

قلوبنا مختومة."

يجب أن تُكتب هذه القصيدة هنا، في هذه الزنزانة، أن تُحفر على الحائط. بحث عن حصاة على الأرض، عن قطعة خشب. لم يجد شيئاً. الأظفار إذاً. شرع في رسم الكلمات على الدِهان المقشّر. وجد مشقّة، شعر بالألم. نزف. وما زال يكتب. كتبَ إلى أن سمع

وقع خُطى تقترب وتتوقّف أمام زنزانته، وحتّى رنّت طقطقة مفاتيح في الرواق، وحتى فُتح الباب، وارتفع صوت أجشّ آمراً: "اُخرجا"، عندئذ كفّ عن الكتابة ولبث جامداً، هادئاً، رانياً إلى الكلمات.

دخل الحُجرة رجلان مسلّحان، أمسكاه من ذراعيه، وأنهضاه، ومن دون أن ينبسا ببنت شفة قاداه إلى قاعة المحكمة. تناهت إليه من وراء الباب ضوضاء، "قاتل"، "شيوعي"، "مال"، "ثأر"... الكلمات ذاتها المسموعة ألف مرّة ومرّة، والتي كانت تُفزعه من قبل، أو تسلّيه، لكنها اليوم تجعله أصمّ. ما عاد يسمعها.

فُتح الباب.

دخل رسول.

وسكتت القاعة.

كان الجميع هنا، جلوساً على كراسٍ خشبية في كل جهة من القاعة. كلّهم ملتحون؛ كلهم معتمرونَ بعمائم سود، أو بيض؛ وطاقيات تشارماه، كراكول، باكول... وكلهم ينظرون إلى رسول. أجال نظره في القاعة ليرسو على فرزان الذي كان يوزّع أقداح الشاي بابتسامته الحزينة الأبدية. برويز أيضاً كان حاضراً، وحيداً في زاوية، كئيباً، أسِفاً، متوتّراً؛ غاضّاً من بصره. إلى جانب القاضي جلس عامر سلام، منتفخ الصدر، مسنداً يديه البدينتين إلى عصا، تُساقطُ أصابعُه حبّات مسبحته. وكان يقيس رسول بالنظر، محرّكاً رأسه على نحو يستحيل معه معرفة إذا ما كان ذلك ليقول له: "ها قد التقينا أخيراً!" أو ليؤدّي صلاة.

تجرّع القاضي شايه، فحذا حذوه الآخرون، صاخبين. غادر

فرزان القاعة ملقياً نظرة أخيرة، حزينة دائماً، على رسول. وضع القاضي كأسه، وأشار إلى كاتب محكمة جديد، جالس إلى جانبه، أن الجلسة يمكن أن تبدأ. نهض الكاتب، وأغمض عينيه، وتلا سورة من القرآن. وعندما انتهت التلاوة طلب القاضي من رسول أن يتقدّم: "عَرِّف بنفسك!". ألقى رسول نظرة قلقة نحو برويز ولبث صامتاً.

قال القاضي نافد الصبر: "قلت لك أن تعرِّف بنفسك!". صمت. نهض برويز: "هذا الصبي مريض... فقد صوته". ثار القاضي: "كيف، فقد صوته؟ البارحة كان بحالة جيّدة، واليوم عاجز عن الكلام!"، وخاطب الحضور: "أيها الإخوة المسلمون، لقد هزمنا الشيوعية بفضل جهادنا". فجأةً علت الأصوات: "الله أكبر"[1] ثلاث مرّات. وتابع القاضي: "غير أن جماعة من المُلحدين، الناجين من ذلك النظام، ما زالوا يتحركون بين ظهرانَي شعبنا، ناشرين الفساد. هذا الشخص الذي ترونه هو واحد منهم. منذ أيام قتل بوحشية أرملة بلا دفاع لكي يسلبها مالها ومجوهراتها. من حسن الحظّ أن المسؤولين عن الأمن في حكومتنا المجاهدة، وبناءً على أوامر الأخ القائد برويز، الحاضر هنا، نجحوا في إلقاء القبض عليه". فوجئ برويز؛ بحثت نظرته القلقة عن رسول الذي كان منكّس الرأس يحدّق في الأرض. تقدّم برويز لكي يتكلم، غير أن القاضي أشار إلى الكاتب أن يتلو سورة أخرى من القرآن. سكت الجميع. وما إن انتهت التلاوة حتى تكلّم القاضي: "هل فهم المتّهم معنى

---

١ هكذا في الأصل: Allah-o Akbar (المترجم).

الآية الثالثة والثلاثين من السورة؟"[1]. نظر إليه رسول من دون أن يجيب: "بدلاً من أن تتعلّم اللغة الروسية كان عليك أن تتعلّم لغة الله أيها الكافر. قال الله: ﴿إنّما جَزاءُ الذينَ يُحارِبونَ اللهَ ورَسُولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأرضِ فَساداً أنْ يُقَتَّلوا أوْ يُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِم وأَرْجُلُهُم مِنْ خِلافٍ أوْ يُنْفَوْا مِنَ الأرضِ﴾".

أنهك الرجال رئاتهم بالصياح: "الله أكبر!" ثلاث مرّات دائماً.

ابتلع القاضي جرعةً أخرى من الشاي: "رسول، ابن... ما كان اسم أبيك؟" انتظر عبثاً، ثم: "غير مهمّ، رسول ابن... راشد متمتع بقواه العقلية، اعترف بأنه قتل أرملة، في السادس من شهر أسد عام ١٣٧٢ هجري شمسي، واختلس مالها ومجوهراتها. وجدته المحكمة مذنباً بتهمة السرقة والقتل، وحكمت عليه وفقاً للشرع الإسلامي بالعقوبة القُصوى أي القطع ثم الشنق...".

وفيما كان الرجال يردّدون ثلاث مرّات "الله أكبر" وقف رجل معترضاً: "هذا ليس عدلاً!"، وردّاً عليه صاح آخرون: "هذا عدل!"؛ "هذا حكم الشريعة!"؛ "هذا مُبرَّر، مُبَرَّرا!"؛ "إذاً هذا عدل!"... حاول المعترض إسماع صوته: "هذا عدل، قطع اليدين، هذا عدل..." وتلا آية من القرآن، ما أسكت الغوغاء، وتابع: "حضرة القاضي، اليوم، كما قلتَ بفضل الله..."؛ ضجّت القاعة: "الله أكبر..."؛ استطرد الرجل: "... يسود في بلادنا قانون الشريعة الذي هو جوهر دولتنا الإسلامية. أتريدون أن نتبع هذا القانون؟ إذاً يجب أن

---

١ سورة المائدة (المترجم).

يكون كل شيء مستنداً إلى الفقه[1]. أولاً، هذا الرجل لا صوت له...".

"بلى، هذا 'الفتنة'[2] له صوت، لكنه يتظاهر" قال القاضي، ثم توجّه إلى الحرّاس: "البارحة، كان هذا الفتنة يتكلم. كنتم حاضرين".

– نعم، حضرة القاضي، نحن شهود أن هذا الفتنة كان يتكلّم حقاً.

التفت القاضي إلى الرجل وسأله:

– إذاً، لا تدخلْ في لعبته. أكملْ!

– اتفقنا، لننسَ صَمْتَه. لكنْ لمّا كانت الضحية امرأة، قتلها رجل، فهذا الرجل يجب ألاّ يشنق بحكم قانونا الأقدس، لأن دِيَّة المرأة نصف دِيَّة الرجل.

نهض رجل آخر محتجاً:

– هذا غير ممكن.

– يمكن إعدام القاتل إذا دفع أهل الضحية نصف الدِيَّة إلى عائلة المتّهم.

– أو أن يُعفى عن القاتل إذا قدّم فتاة إلى عائلة الضحية...

ارتفعت صيحات مجدّداً: أين أهل الضحية؟

– يجب الأخذ بثأرها!

– إن لم يؤخذ بثأرها يقع دمها المهدور علينا.

– العين بالعين.

– لحظة، إذا سمحتم! – طلب القاضي، الذي استأنف الكلام مسبّحاً بمسبحته: – هناك تُهم أخرى، أخطر. منذ أيام كشف رجل

---

١ هكذا في الأصل: fiqh (المترجم).

٢ هكذا في الأصل: fitna (المترجم).

مسلم، هو حارس مقام الولي شاه دو شمشيره، أمام المتّهم وبعض الشهود، أن هذا الفتنة كان قد ذهب إلى المكان المقدّس برفقة بَغِيّ. وعلاوةً على ذلك، هدّد الحارس بمسدّس لكي يسلبه مال الصدقات. وقد اعترف المتّهم أمام الشهود بأنه كان يريد أن يقتل الحارس.

"هذا الرجل يستحقّ الموت" صاح أحدهم. "تهديد بريء؟!" هتف آخر. "هذه خطيئة!" وافق الحضور. "قتلُ حارس مقام الوليّ شاه دو شمشيره؟ لا حول إلا بالله!".

– هذه جريمة!

– هذا تحدٍّ لله وللأولياء!

إزاء كل هذه الضوضاء، ما عاد رسول يشعر بشيء. لا شيء يؤثر فيه. وحدها نظرته رَسَتْ على برويز الذي كان يراقب الحضور صامتاً. تمكّن زعيق القاضي من تهدئة القاعة:

– في بداية الجلسة لم يكن قولي لكم إن القاتل هو من رجال العهد القديم بلا داع. هذا الرجل اعترف، من تلقاء نفسه، بأنه انحرف عن الدين المقدّس.

أصبحت الصيحات مسعورة:

– الشيطان!

– الكافر!

– المرتدّ!

– يستحق الشنق!

سيطر صوت القاضي الصارخ على القاعة مجدّداً:

– نعم، أيها الإخوة، أمامكم رجل هو، وفقاً للقرآن، 'فتنة'، تجسيد

للفساد على الأرض. وإذاً، العقوبة التي يفرضها الشرع على السرّاق والمرتدّين يجب أن تُطبّق عليه. وبناءً على ذلك، صباح يوم الجمعة، بعد الأذان، في منتزه زرنغار، وأمام الملأ، سوف تُقطع يده اليمنى ورجله اليسرى؛ ويُعلَّق العُضوان على رمحين قصيرين على مرأى من الجمهور. بعد ذلك، يُشنق هذا 'الفتنة' ويُعرض للعموم مدة ثلاثة أيام ليكون عِبرةً للجميع. أما البغيّ التي رافقته لتدنيس ضريح الوليّ شاه دو شمشيره فسوف تُرجَم. بذلك نقضي على الشر في مدينتنا الوادعة...

"الله أكبر!" ثلاث مرّات.

تلك هي محاكمتك يا رسول، هل أنت راضٍ؟

لا أسمع شيئاً. ماذا يقولون؟

لا شيء.

اقترب برويز من رسول، حزيناً، وكاسفاً. وقال مُخاطباً الحضور:

– أيها الإخوة المسلمون، أعترف بأن الأقوال السديدة التي أدلى بها حضرة القاضي كانت مقنعة. لكنني أسمح لنفسي بتسجيل بعض الملاحظات. نحن لم نعتقل هذا الرجل، لا أنا ولا قوى الأمن. لقد جاء بملء إرادته، معترفاً بذنبه.

– لماذا جاء من تلقاء نفسه؟ هناك سبب! هتف القاضي، منتفخ الصدر تغطرساً.

– نعم، حضرة القاضي، هناك سبب. سأشرحه لكم: التقيت هذا الرجل عدّة مرّات. في المرّة الأولى كان رجالي هم الذين جاؤوا به إلى مكتبي. كان صاحب مسكنه قد اتّهمه بعدم دفع الإيجار. في

ذلك المساء كان فاقد الصوت حقاً، وكان ذلك مَرئيّاً. وفي المرّة الأخيرة، عندما استعاد صوته، جاء ليعترف لي بأنه قتل امرأة. قتل قوّادة لينقذ خطيبته من مخالبها القذرة. بالنظر إلى هذه الشخصية، بدا لي أنّ من الضروري إجراء تحقيق، وتبيَّن لي أن جريمة القتل هذه ليس فيها ضحية، ولا شهود، ولا دليل. لا يوجد لها أي أثر.

– مثل جميع القتلة، هذا الفاجر أتلف كل الأدلّة. قال القاضي.

عاد برويز نحو رسول:

– لو كانت لديه مثل هذه النيّة لما جاء إلى هنا من تلقاء نفسه. حضرة القاضي! نظراً إلى جرائم القتل التي تُرتكب اليوم في هذه المدينة، حتى الطفل قادر على إزالة كل آثار جريمته. هل تمكنّا من اعتقال قاتل فتياتنا الصغيرات؟ هل عثرنا على أثر لذلك القاتل الذي كان يسمّم نساءنا وأطفالنا بلا رحمة؟

سكت تاركاً للآخرين متّسعاً من الوقت لكي يتساءلوا ويعوا فظاعة الواقع الذي يعيشونه. هل هم قادرون على فهم ما يقوله برويز؟

– الآن، لنفرض أن هناك ضحية. لست أنا مَن يُعلمكم أن جريمة قتل إنسان لا تثبت في فقهنا إلا إذا كانت الضحية معصومة الدم[1]، بريئة ومصونة. وهذه ليست هي الحالة في هذه القضية. الضحيّة قوّادة، إذاً يقع عليها حدُّ الرجم. – لا اعتراض. – حالة هذا الشاب، الذي سلّم نفسه إلى العدالة لكي يحاكم في إطار قضية عامة، تبدو لي مثالية. إنها أُمثولة بيِّنة. لو أن كل واحد منا قام، على غرار هذا الرجل، بإعادة النظر في أفعاله لكان بوسعنا أن نتغلّب على فوضى

---

١ هكذا: ma'sûm ad-dam (المترجم).

الاقتتال الأخوي التي تعمّ البلاد حالياً.

– ماذا تعني بذلك؟

– تقارن المجاهدين بهذا 'الفتنة'؟

– حتى أنت يا برويز؟

– مَن أنت؟ مجاهد، محرِّر، قائد شعبك، أم محامي هذا المرتدّ والقاتل؟

– إلى الجحيم، الشيطان!

– اللعنة عليك، يا برويز!

انتقل برويز إلى وسط القاعة:

– لا توجد جريمة قتل! اسمعوني، هذه جريمة قتل خيالية، جريمة قتل مُتوهّمة، لا لشيء إلاّ لوضع أعمالنا موضع المساءلة.

– هذا مجنون؟

– كلاّ، يا إخواني الأعزّاء، ليس مجنوناً، لا بل هو صافي الذهن، واعٍ، مدرك حتى لأوهامه. نحن المجانين، نحن الذين لا نملك أيّ إدراك لجرائمنا! – نهض الجميع مزمجرين. – اسمعوني! هذا الشاب يطلب منكم أن تحاكموه بسبب وهْم... – بقدر ما كان برويز يرفع صوته منهكاً رئتيه كان الرجال يزدادون هياجاً. وأخيراً انقضّوا عليه وأحاطوا به. إنها الفوضى العارمة.

ضحك رسول.

لا تضحكْ، سيضعونك في مستشفى علي آباد، بين المجانين.

لكن أين أنا، إذاً؟

في زنزانته، كل شيء مظلم.

حطّت ذُبابة على يده. نفخ. اضطربت، طارت.

القذرة!

لِمَ كل هذا الحقد والضراوة ضد حشرة بمثل هذا الصِغر؟

لأنها لا تفعل شيئاً سوى اقتحام هذا العالم.

إنها لا تقتحم. إنها تعيش في عالمها، لأنها من عالمها. أنتَ مَن يأتي مِن مكانٍ آخر. أنت مَن يقتحم عالماً لم يعد عالمه. انظرْ إليها، انظرْ بأيّ خفّةٍ تعيش عالمها.

لأنها لا تملك وعياً.

لا وعي لديها لأنها لا تحتاج إليه. إنها تعيش خِفّتها، موتها... بكل بساطة.

وعادت لتحطّ على يده. حاول أن يتحرّك، لا أثر لأيّ حركة في ذراعيه. أتكون السلسلة التي تقيّد يديه هي التي تمنعه من رفع يده، أم الذبابة؟ إنها هي، الذبابة، لا ريب، تشلّه. تشوّش عليه العالم.

مطّ عنقه ليقترب من الحشرة، ونفخ ثانيةً. مستحيل. جسده متصلّب، ثقيل، مثل حجر. تناظرا. بدا له أن الذبابة تريد أن تقول له شيئاً، بلغة غير مفهومة. كلمات موزونة، أشبه بغناء: تات، تات، تات... تفام، تفام... أزي... ثم تحرّكت، طارت وحطّت على الحائط. عندئذٍ أمكن لرسول أن يرفع يده، بعدما أصبحت خفيفة. انفكّت القيود من

دون ضجة. نهض ليمسك بالذبابة. لم يرَ على الحائط إلا صورته، كرسم جداريّ. لمسها. كان الحائط سائلاً تقريباً، قابلاً للاختراق. نفذت فيه يده. لم يقاوم. امتصّه الحائط. الآن دخل فيه جسده كلّه. ولمّا أصبح في الداخل، تجمّد رسول. صورة على وجه الحائط، شبيهة بالذبابة التي يخرق غناؤها الحائط. تات، تات، تات... تفام، تفام... أزي...

"الله أكبر"، هزّ الأذان رسول، انتزعه من حائط النوم. هوذا هنا، على الأرض، يداه ورجلاه ترسفان بالقيود.

سكت صوت المؤذن الأجشّ، وغرق كل شيء في الصمت، إلاّ غناء الذبابة الذي ما زال يتردد في رأس رسول، تقَوياً، تات، تات، تات... تفام، تفام... أزي... هادئاً. ما عادت الذبابة تُغيظه.

ما عاد شيء يغيظه، لا ضجة الخطى التي يتردّد صداها قوياً في الرواق، والتي توقّفت الآن خلف الباب، ولا هذا الباب الذي لن ينفتح لأحد بعد الآن، إلا للموت.

فُتحت كُوّة الباب: "اِنهضْ، لديك زيارة"، قال الحارس. لم يتحرّك رسول. "رسول!"، هذا صوت رازمودين. نهض رسول متمهّلاً ورأى من الكوّة عينَي قريبه القلقتين. اقترب من الباب. "ماذا فعلتَ أيضاً؟". رفع رسول كتفيه ليقول: لا شيء خطيراً. لكنّ رازمودين كان يتوقع أن يسمع كلمة منه، صوته. لم يسمع شيئاً كالمعتاد. اغتاظ. "قُلْ لي شيئاً، تبّاً!" رنّت كلماته في الرواق. "إيه، على مهل!" هتف الحارس. "كنتُ في مزار شريف. جئتُ بدُنيا وأمّك. ذهبنا إلى مسكنك مباشرةً فلم نجدك. أخذتُ دُنيا وعمّتي إلى الفندق. فتّشت المدينة بحثاً عنك. لا أحد يعرف أين كنتَ.

لا صوفيا، ولا يرموحمد... كان الجميع قلقين. في نهاية المطاف دلّني على مكان وجودك رجال برويز..." قطع كلامه، آملاً أن يسمع رسول، لمرّة وحيدة. عبثاً. تابع: "لماذا اخترعت مثل هذه القصة؟ أفقدت عقلك؟". بقي رسول ساكناً. "إفعل شيئاً، قبل فوات الأوان، من أجل أمكّ وأختك، من أجل صوفيا..."، ابتعد عن الباب لكي يتحدّث مع الحارس: "دعني، أيها الأخ، أدخل زنزانته".

– لا، ممنوع.

– إذا سمحت. ستنال مكافأة. خُذْ!

– لا... لكن... إذاً لدقيقة فقط.

– أعدك.

فُتح الباب، ودخل رازمودين. "لم أستطع أن أقول شيئاً لأمك. تعرف ما الذي ستعانيه إن علمت باعتقالك..." أخذ بكتفيْ رسول وهزّه: "كيف أخبرهما؟ أتريد أن تصاب أمك بسكتة قلبية؟ أتريد لدنيا وصوفيا أن تجنّا غمّاً؟ لِمَ أنت أنانيّ إلى هذا الحد؟". انتهى كل شيء يا رازمودين، كل شيء. أصبح رسول بلا أنانية ولا كبرياء. هو التخلّي بعينه. "غداً ستُشنق!". كلّما كان ذلك أسرع كان أفضل، بوسع رسول أن ينتقل إلى أشياء أخرى! "لِمَ تسخر مني؟". لا يسخر منك، هو يضحك، بكل بساطة. يضحك لملائكة الموت. "لِمَ لا تريد أن تنظر إلى الحياة بجدية؟ لكأنّك هارب من مستشفى علي آباد للمجانين!". بجدية أكثر؟ غداً سيكون أجمل يوم في حياته، صدِّق، سيحضره الجميع، الجميع، يا له من موت جميل!

نعم، أخيراً سأعيش موتي، بخفّة.

نهض رازمودين، محبطاً بنظرة رسول الساخرة وصمته المرح.
"سآتيك بأمّك وأختك لعلّهما تقنعانك بتغيير رأيك".
وقف رسول مانعاً إياه من المغادرة. أومأ برأسه رافضاً. حدّق في رازمودين متوسّلاً وكأنه يقول: "لا يا رازمودين، لا تشغل بالهما!".
تجابها، وجهاً لوجه. "إن كانتا لا تعلمان اليوم فستعلمان غداً".
بعد موتي، لا أبالي.
"لكنْ لماذا؟ كل ذلك لأنك قتلت قوّادة خسيسة؟" قال رازمودين مائلاً نحوه: "انظرْ حواليك، لا يوجد إلاّ جرائم قتل! كان رجال برويز يتلوّون ضحكاً وهم يخبرونني بذلك".
مرحى لي أن أضحكتُ الناس أخيراً، حتى بجريمتي.
ركع رازمودين: "أما زلت تعتقد أنّ من شأن المحاكمة أن تغيّر هذه البلاد اللعينة؟ أنت تحلُم يا قريبي. أنت تحلُم..." وغصّ بالدموع، ثم نهض ليمسك رسول من كتفيه ويهزّه: "عُدْ إلى نفسك، هذا يكفي حتى الآن، عُدْ إلى نفسك. كُفّ عن الإغراق في أوهامك!". أغمض رسول عينيه. تحرّكت يداه المقيّدتان، تردّدتا، ثم تشبّثتا بقريبه.
عدتُ إلى نفسي يا رازمودين.
لبثا وقتاً طويلاً، أحدهما لصق الآخر، حتى أقبل الحارس: "أيها الأخ، يجب أن تغادر. حان موعد عشائه".
ابتعد رازمودين عن رسول. تبادلا النظر للمرة الأخيرة: "لن أتخلّى عنك. سأرى القاضي. لن أدعك تدمّر حياتك".
وغادر الزنزانة، مصمّماً وقلقاً في آن. أغلق الحارس الباب، ثم الكوّة.
على الحائط، ذبابة تتسكّع.

تات، تات، تات... تفان، تفان... أزي...

من أين تخرج هذه الكلمات الخالية من المعنى؟ لا ريب في أنه سمعها من قبل في مكان ما. ربّما في فيلم هندي. لا يهمّ. كم هي مريحة، وتُجمِّل هذه الذبابة السفيهة.

صفّر رسول لحن الأغنية حتى يكفّ عن سماع العالم.

ولم يسمع شيئاً. لا محرّك سيارة تتوقّف قرب النافذة، ولا وقْع خطى رجال يدخلون إلى الرواق ويقتربون من الزنزانة؛ ولا جلبة المفتاح في القُفل ولا الباب الذي انفتح؛ ولا الصوت الفظّ الذي يأمره: "قِفْ!".

لبِث جالساً.

دخل الضوء، مع وجه عامر سلام العابس الذي طلب أن يُتركا وحدهما لدقائق. وما إن أصبحا وحدهما حتى أمسك عامر سلام برسول من ياقته وانهال عليه بالشتائم، قبل أن يسأله أين النقود والمجوهرات التي سرقها.

دفع رسول كتفيه معلناً بلامبالاة أنه لا يعرف. ألحّ الآخر، مُقسِماً أنه سينتزعها من أحشاء أمّه. وضع مسدّسه على بطن رسول، الذي ظل ينظر إليه دونما وجل، ويشير إلى حنجرته ويئنّ ليُفهمه أنه لا يستطيع أن يتكلّم. خرج عامر سلام عن طوره، وأمر أن يؤتى إليه بورقة وقلم، ومنح رسول مهلة خمس دقائق ليكتب له أين توجد

المجوهرات والنقود. "إن لم أجد أي كتابة على الورقة، سوف أمسح بها قطَّ خطيبتك!" قال ذلك، وغادر الزنزانة.

أُعطيَ ورقة وقلماً، فكتب: "دع عائلتي بسلام. سوف أعيد إليك كل شيء على أعواد المشنقة" وأعاد الورقة إلى الحارس.

قبل الصعود إلى سيارة شحن صغيرة، سأله أحد الحرّاس إن كان قد توضّأ. أومأ رسول بالإيجاب مبتسماً.

اجتازت العربة بوّابة الولاية، وانعطفت إلى الشارع، وانطلقت مسرعة. سمع رسول المنطوي على نفسه اسمه يرنّ من بعيد. لمح في الشارع المقفر رازمودين الذي كان يركض صائحاً وملوّحاً بيده لكي يوقف العربة. تأمّله رسول صافيَ الذهن.

مضت الشاحنة في طريقها. رأى رسول بعض الناس يندفعون في الاتجاه نفسه نحو منتزه زارنغار.

في الآونة الأخيرة كانت السماء أشدّ زرقةً، وأكثر بعداً منها في السابق. ولم تكن الشمس بمثل هذا الإشراق، وهذا القرب.

توقفت العربة في المنتزه، ونزل منها الجميع.

شُغفَ رسول بغناء العصافير، وشردت نظرته بين أغصان الأشجار بحثاً عنها، لكي يُدندن معها: تات، تات، تات... تفام، تفام، أزي...

"رسول" اندفعت نحوه امرأة مغطاة بشادور أزرق سماوي ورفعت طرف حجابها. هذه صوفيا، باكية، يصدّها الرجال المسلّحون امتثالاً لأمر كاتب المحكمة الجديد. مضوا برسول إلى الأمام، غير مبالٍ ولا مكترث بكل أولئك الذين ينظرون إليه، ولا عابئ حتى بفرزان الذي كان يهزّ رأسه ليحيّيه بابتسامته الحزينة.

"لا تأخذوه إلى هناك!" ما زال رازمودين هو الذي يزعق، لاهثاً، خلف الموكب. "أمرُك مطاع أيها القائد!" قال له أحد الرجال هازئاً ومنعه من الاقتراب.

غير أن رازمودين لم يكفّ عن ترديد الكلمات ذاتها يائساً: "صدّقوني، ما يجري شيء رهيب".

دفع الرجال رسول إلى الأم، ولحق بهم فَرزان وصوفيا. فجأةً توقّف الجميع لدى اكتشافهم أن المشنقة بلا حبل وقد أحاط بها جمهور صامت.

"لِمَ هذه المشنقة بلا حبل؟" سأل كاتب المحكمة.

"لقد قُطِع" صاح أحد الحرّاس متعجباً.

حثّوا الخطى وانضمّوا إلى الجمهور أمام المشنقة. "أيها الإخوان، دعونا نمرّ، معنا المحكوم، ابتعدوا، ابتعدوا!".

استدار الناس نحو رسول، وتنحّوا له عن الطريق، كاشفين عن جثة ملقاة على الأرض. تجمّد كلّ شيء: الزمن، النفس، الدموع، الكلمات... وارتجفت السيقان. جثا رسول على ركبتيه أمام جثة برويز، والحبل في عُنقه. همهم الجمهور، واضطرب، وتنحّى. ظهر رجال مسلّحون آخرون أخذوا يبعدون الناس حانقين أشد الحنق لكي يشقّوا طريقاً للقادة الذين وصلوا محدثين جلبة. اختفى كل شيء تحت جُزمهم. ما عاد رسول يرى شيئاً. لم يبق إلاّ الصوت، ولا شيء غير الصوت، صوت صوفيا.

.

"أنتِ جميلة" همس رسول في أُذن صوفيا. احمرّت خجلاً.

ارتمى على قدميها ليعلن أخيراً: "أخُرُّ ساجداً عند قدميك لا من أجل جمالك البريء فحسب، بل من أجل معاناتك أيضاً!". تأثرتْ. ملكتْ نفسَها. تحرّكت يدها فقط وغاصت في شعر رسول لتختفي فيه.

– من زمن بعيد، لم تقل لي أشياء بمثل هذه الرقّة.

– كانت لديّ أشياء كثيرة أودّ أن أقولها لك، غير أن الحرب لم تترك لنا مُتّسعاً من الوقت للبوح بها.

قبّلها على الخدّين بخفر. غطّت وجهها، ومدّت يدها لتمسك بيد رسول الذي سألها:

– هل ترحلين معي؟

– للذهاب إلى أين؟

– بعيداً.

– إلى مزار شريف؟

– كلاّ، أبعد... إلى وادي الأطفال غير المتكلمين المستعادين!

– أين يقع؟

– في مكان بعيد، بعيد جداً. لا هو في الشرق ولا هو في الغرب، لا في الشمال ولا في الجنوب.

– لا وجود له إذاً!

– سأبنيه لك!

– وكيف سيكون؟

– سيكون وادياً في منتهى الجمال، حيث لا أحد يتكلّم. حيث ما من كائن عرف بعد تجربة الشرّ.

– إذاً نحن طفلان لا يعرفان الكلام؟

– دائماً.

وضحكا.

– يجب أن أذهب. قالت وهي تنهض.

– هل تعودين إلى نازيغول؟

– كلاّ. ذهبتْ مع عامر سلام.

– إلى أين؟

– لا أدري، – واقتربت من رسول: – أرجو ألاّ يأتيا إلى وادي الأطفال غير المتكلمين المستعادين!

– لا. هو لنا وحدنا.

– إذاً، إلى اللقاء! – لبست شادورها الأزرق السماوي وغادرت الزنزانة.

لبث رسول واقفاً، حالماً. "لديك أيضاً زيارة أخرى" قال له الحارس. ودخل كاتب المحكمة القديم مُتأبِّطاً ملفّاً. "كيف حال الشاب؟" هزّ رسول رأسه، صافيَ الذهن.

أراد كاتب المكتبة أن يجلس، غير أنّ رسول منعه. "لا تجلس هنا، إذا سمحت. هنا توجد ذُبابة، ذبابة بائسة...". لبس كاتب المكتبة نظارته ودقّق النظر في الأرض، مستطلعاً، ثم تنحّى وجلس بكثير من الحيطة والحذر. "هذه الذبابة... مسجونة معي"، قال رسول مشيراً إلى الذبابة، الموهنة، قرب كاتب المحكمة.

– الآن تهتمّ حتى بحياة ذبابة؟

– الليلة الماضية رأيت حُلماً عجيباً. حلمت بهذه الذبابة التي كانت تدندن أغنية كنت أعرفها، نوعاً ما مثل: تات، تات، تات...

تفام، تفام... أزي، نعم كانت كذلك، غير أنني لم أفهم المعنى.

– هذه أغنية هندية.

– بلا ريب. ما معناها؟

– أنت أيضاً هذا!

– هذا شيء جميل!

– الآن حتى الذباب يغنّي لك. الحياة حلوة! أنت إذاً مسرور لأن محاكمتك تجري كما تمنّيتها؟

– الآن تتساوى عندي كل الأشياء.

– كل الأشياء تتساوى عندك؟ خرّبت العالم وكل الأشياء تتساوى في نظرك؟ بسببك أقدم قائد كبير للمُجاهدين على شنق نفسه؛ وعُزِل القاضي؛ والصحف لا تتحدّث إلا عنك ليلاً ونهاراً. قريبُك استدعى كل الصحافيين الأجانب، وموظفي الأمم المتحدة... والسيّد ماذا يقول عن ذلك؟". هزّ رأسه علامة الاستنكار.

– لستُ أنا مَن خرَّب كل شيء. إنه دوستويفسكي.

– قُضي الأمر، ها قد عدنا إلى البداية! كفّ أنت وصاحبك دوستو... كذا! لم تقتل لأنك قرأته. قرأته لأنك أردت أن تقتل. هذا كل ما في الأمر. لو كان حيّاً لاتّهمك بانتحال روايته!

رنا إليه رسول، طويلاً، وعميقاً. "لا تنظر إليّ هكذا. لم أطرح عليك أُحجية"، قال كاتب المحكمة وهو يبسط ملفّه على الأرض. "على أي حال، أعادوني إلى وظيفتي، ويريدون ملفك... في الواقع، هل تعرف ماذا وجدوا في جيب القائد برويز؟".

نظر إليه رسول متسائلاً. "وجدوا رسالة مكتوبة بخط يده:

”أقيموا مأتمي، ولا تأخذوا بثأري!“. يا له من رجل، ما أشجعه! أتعرف سبب انتحاره؟ يبدو أن رجاله وجدوا قاتل ابنه بالتبنّي. لكن في أثناء الاشتباك قُتلت امرأة القاتل وطفلها أيضاً. ما علينا... قُلْ لي ماذا يجب أن أكتب؟“.

صمت.

– كل شيء! قلت لك كل شيء.

– كل شيء؟ لا أظنّ. على أي حال، كنتُ قد شرعتُ في كتابة بعض السطور. سأقرأ، وإن وجدتَ مشكلة نبّهني إليها. ”ما كاد رسول يرفع الفأس ليهوي بها على رأس السيّدة العجوز حتى خطرت على باله **الجريمة والعقاب** فصعقته. ارتجفت ذراعاه، واصطكّت ركبتاه، وأفلتت الفأس من يديه، وهوت على جمجمة المرأة فشقّتها وانغرزت فيها. تهاوت العجوز على السجّادة الحمراء والسوداء من دون أن تندّ عنها صرخة. تموّج غطاء رأسها المطبّع بزخارف من زهور شجرة التفاح في الهواء قبل أن يسقط على جسدها الرَّخْص والمُمتلئ. هزّتها التشنّجات. شهقت مرّة، وربّما اثنتين. شخصت عيناها المحملقتان في وجه رسول، الواقف في وسط الحجرة، منقطعَ الأنفاس، وأشدَّ شحوباً من جثّة. اقشعرّ بدنه. سقطت شملته عن كتفيه الناتئتين. سرحت نظرته المرتاعة في فيض الدم؛ ذلك الدم الذي كان ينحدر من جمجمة العجوز، ويمتزج بلون السجّادة الأحمر مغطّياً تخاطيطها السود، ثم ينساب بطيئاً نحو يد المرأة البضّة القابضة بقوة على رِزمة من الأوراق المالية. لسوف تغدو النقود ملطّخة بالدم...“.
حقاً، [illegible]“

"أيُّ سحر يستعمل المؤلف ليضحكنا وهو يصف مواقف تراجيدية".

Le Figaro

في هذه الرواية يقدِّم لنا عتيق رحيمي صورة مأسوية عنيفة عن أفغانستان من خلال جريمة قتل تتماهى مع قتل راسكولنيكوف المرابية العجوز في "الجريمة والعقاب" لدوستويفسكي!

نعم، أقدم رسول على قتل عجوزه لينقذ من البؤس خطيبته وأخته وأمه، لكنّه لم يلقَ المصير الذي لقيه شبيهه راسكولنيكوف! فجريمته لم يُعثر فيها على جثة، ولم يوجد لها شهود، ولا ما يثبت السرقة!

أكانت جريمة خيالية؟ جريمة مُتوَهَّمة؟ لا لشيء إلا لتسليط الضوء على عبثية القتل في أفغانستان الغارقة في حروبها الأهلية؟!

ولد عتيق رحيمي في أفغانستان عام ١٩٦٢. تابع دروسه الثانوية في كابول ثم طلب اللجوء إلى فرنسا عام ١٩٨٤. صدرت له عن دار الساقي رواية "حجر الصبر" الفائزة بجائزة غونكور الفرنسية ٢٠٠٨.



DAR AL SAQI

www.daralsaqi.com



ISBN 978-6-14425-798-2

